

كتاب موسى عن حملة الأنفال

تأليف
الزكي فرج الدين الأصبهني

الناشر : مكتبة دار الكتب - الكويت - ص ٢٣٦

مِنْ هَلْكَلَىٰ بِسْوَرَةِ الْأَنْفَالِ

تألیف
الرَّبُّوْرِ حَمَدُ الْهَبْنِي الْأَصْرَمِي

الناشر : مكتبة دار الأ رقم — الكويت — ص.ب . ٤٣٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :
جاء في كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لأبي عمر بن عبد البر - وأظن أن القول
للمؤلف نفسه - : « ولم أضر على العلم من قول القائل : لم يترك الأول للآخر شيئاً ».
وصدق أبو عمر رحمه الله . فإن هذه الكلمة توصد بباب الجهد والاجتهد ، وتغلق باب
التجدد والإبداع ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذه الأمة بالمطر لا يدرى أوله
خير أم آخره ، ولا يزال في المسلمين من يشعر عن ساق الجد في فهم كتاب الله والغوص في
بحاره يلتقط الدرر كما وصف عمر رضي الله عنه ابن عباس بقوله له : « غص ياغواص » ،
وذلك لثاقب فهمه في كتاب الله ، ومن أعظم مامن الله به على المسلمين في السنين الأخيرة
من الفهم في كتاب الله تفسيران عظيمان أولهما : « في ظلال القرآن » لسيد قطب رحمه الله
وثانيهما « أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن » للعلامة الفاضل الشيخ محمد الأمين
الشنفيطي .

وكذلك كان الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله من يدعو إلى (التربية القرآنية)
والعيش في جو القرآن ، جو الجهد والاجتهد والتربية والعتاب ، وهذا لا يتحقق إلا بالجهاد
الفعلي ، ولذلك كان يكثر من الحديث عن الجهد وكيف تركه المسلمون حتى أصبحوا أمة
خانعة ذليلة يستخف بها الطفاة ، وينخدعها أعداؤها وكان لا يفتأ يشرح ويفسر سورة الأنفال
التي تتحدث عن معركة (بدر) ومنها يتحدث عن التربية القرآنية للأصحاب الكرام ، وعن
تربية الأمة بالجهاد . ومنها يخرج على الآيات التي تتكلم عن غزوة أحد في سورة آل
عمران ، والآيات التي تتحدث عن غزوة الأحزاب . وكان يرى أن الأمة المسلمة تربت
بالجهاد . وهذا هو سبب اهتمامه بسورة الأنفال .

وبعد وفاته رحمه الله قامت حركات جهادية في أنحاء من العالم الإسلامي تجاهد الشر
والطاغية ، الذين يتحكمون بالعباد ويفسدون في الأرض ، وأعتقد أنه كان يتمنى أن يرى
هذا اليوم الذي يرى فيه الشباب وقد تقدموا للموت بتصور مفتوحة ، وأشواق إلى الجنة .

يقول رحمه الله عن المرحلة السابقة التي كان يمحض فيها على الجهاد : « وإن كثيرين من
أبناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر من أمثالي لا يحبون أن يسمعوا كلمة القتال ،

ولا يرقى لهم أن يتتحدث متحدث عن الجهاد ، ولقد سمعت اللوم من كثيرين من عامة الناس وخاصتهم ، سمعت كثيرين من الأمثال يقولون : « أليس هناك موضوع غير الجهاد ؟ » .

ويقول أيضاً : « إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومعاربها وهو موضوع الساعة » .

وكأنه ينظر بنور الله حين يقول : « والخلاصة إن الأمة لا ينقذها في مثل هذه الأيام إلا طليعة تتصف بصفات المؤمنين والشهداء تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين » .

والشيخ لا يتكلّم عن الجهاد وأثره في تفجير طاقات الأمة فحسب وإنما يحقق ويوازن ويرجع على طريقة العلماء المحقّقين الذين يحبون الحقيقة وينقون التراث الإسلامي مما علق به من روایات غير صحيحة ، أو آراء فاسدة من تأثير الفلسفات المترجمة . ولذلك نراه يحقق بجرأة ورصانة علمية موضع سورة الأنفال ، حيث يذهب بعض العلماء إلى أن اقتران الأنفال وبراءة هو من اجتهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وينقد هذه الرواية متنداً وسندًا : متنًا لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته عارض القرآن على جبريل مرتين ، فأين كان موضع سورة الأنفال وبراءة ؟ وسندًا لأنّه في سنته مجهول وينقل كلام الشيخ أحد شاكر في تعليقه على هذه الرواية : « ولا عبرة بعد هذا في هذا الموضع بتحسين الترمذى ولا بتصحیح الحاکم ولا بموافقة الذهبي وإنما العبرة للحجۃ والدلیل » . وهذا البحث نموذج حسن لما للأحاديث الضعيفة والواهية من أثر سبيلاً في أساس الدين ومعانيه .

كما يتحقق في موضع اختلاف الصحابة في الفنائِم وينقد الرواية التي تقول بانقسام الصحابة إلى ثلاثة أقسام ، وأنّ القسم الذي حواها هو الذي استأثر بها ، هذه الرواية ينقذها متنًا وسندًا : متنًا لأنّ هذا ليس من أخلاق الصحابة ، وسندًا لأنّ هناك رواية أقوى وهي أن الصحابة انقسموا قسمين : الشيخ والشباب وهذا نموذج لتنقية التفسير بما علق به .

ولما فسر الآية الثانية وتطرق إلى موضع الإيمان أفاد في التعليق على موضع الإيمان : زياسته ونفعه وأثره في النفس وحقق ذلك وربطه بأقوال المعاصرين ، وأقوال أساتذة علم النفس وال التربية من الغربيين ، وأيد رأي الشيخ الإسلام ابن تيمية في بحثه وتعريفه للإيمان ؟

لأنه هو الرأي الصحيح المواقف للعقيدة الإسلامية العملية البسيطة ، وليس للعقيدة الذهنية
المعقدة بعقد المرجنة والاعتزال وغيرها من الفرق الشاذة .

هذه بعض التحقيقات القيمة ، ولكن صلب الموضوع هو الجهد وكيف تربت الأمة من
خلاله على الصبر والمصايرة ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى كان يرفعها من خلال المعارك
والتعب والنصب ، وليس من خلال القراءة والحلقات فقط ، وهكذا يردها الشيخ (تربيبة
قرآنية) ولعلها قد ظهرت الآن بوادر لهذا الفهم القرآني ، ورحم الله الشيخ رحمة واسعة وجزاه
الله خيراً وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد العبدة

the first time in the history of the world that the
whole of Europe has been brought into one great
confederation.

Such a confederation is the natural result of the
present condition of Europe. It is the result of the
natural development of the political system of Europe.
It is the result of the natural development of the
political system of Europe.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هدي سورة الأنفال

تقدمة للسورة الكريمة

في موقعة القادسية قبل أن يأذن سعد بالقتال أرسل ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم وبحق عليهم في مواطن البأس فإأنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به وأنتم شعراً العرب وخطباً لهم وذوو رأيهم ونجدهم وسادتهم فسيروا في الناس فذر كروهم وحرضوهم على القتال (الطبرى ٤٥/٣) .

وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها (ابن الأثير ١٨١-١٨٢ / ٤٧/٣) . وعند فراغ القراء من قراءة هذه السورة كثُر سعد فكثُر الذين يلونه وكثُر بعض الناس بتكبير بعض فاستعد الناس للقتال ثم ثنى سعد فأكمل الناس استعداداتهم ثم ثُلث فبرز أهل النجدة وأنشبوا القتال ... ثم كثُر سعد التكبير الرابعة إشارة لبدء الزحف العام (الطبرى ٤٧/٣) .

وانه ليجدر التأمل في صفات هؤلاء الذين أرسلهم سعد إلى الناس قبل أن يأذن بالقتال - الرأي والعقل والنجدة - وإن هذا ليوضح جلياً مكانة ذوي الرأي والنجدة في ساعات البأس ، يدفعون المخدر ويقطعون التردد ويدفعون الناس إلى الموت وإلى الشهادة ومن المؤسف أن أمثال هؤلاء الدعاة قد فقدوا وإن وجد عدد يسير منهم فما يقومون بحق الله عليهم .

إن ألف الآلوف من المسلمين اليوم رغم هذه الظلمة الحالكة والخيرة الغالية لو أتيح لهم من يدعوههم دعوة صادقة يتقدم بها صاحبها ليستقبل الموت بصدره ونحره ، الوف الآلوف مستعدة لتلبية النداء والسعى وراء الشهادة ولو تم ذلك لتم معه نصر الله .

إن الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام بضلالها وشرورها مدينة لرجل واحد عجوز قيء هو بطرس الراهب الذي أخذ يسير من عاصمة إلى عاصمة في بلاد أوربة يدعو

لانتزاع المسجد الأقصى من أيدي المسلمين . أفلأ يوجد في المسلمين اليوم من يدعوه صادقاً إلى الاستجابة لله ولرسول الله لتخلص المسجد الأقصى من اليهود ؟

إن النصوص السابقة تشير إلى مكانة سورة الأنفال من كتاب الله في الدعوة إلى الجهاد ولا غرو فلقد نزلت على إثر بدر الكبرى التي فرق الله بها بين الحق والباطل وأراد الله بها نصرة دينه واعتزاز جنده .

روى البخاري في صحيحه في كتاب التفسير عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر وفي روايات أخرى عن ابن عباس « تلك سورة بدر » .

نظرة إجمالية في أغراض السورة الكريمة

المحور الذي تدور عليه آيات السورة الكريمة موضوع الجihad والغرض الأساسي الذي تدعو إليه الثبات في مواطن الأساس وعدم الفرار من وجه العدو .

والم الموضوعات التي تدور حولها السورة الكريمة تتلخص فيما يلي :

(عتاب للأصحاب رضوان الله عليهم أولا) (وتنذيرهم بما تم لهم في المعركة ثانيا) (وتنذيرهم بالحال التي كانوا عليها من قبل وما كان عليه المشركون من مكر وكيد وعناد ثالثا) (ونداءات للأصحاب رضوان الله عليهم متكررة متتالية رابعا) (ثم توجيه للأصحاب يتصل بشئون الحرب وأمور القتال خامسا) .

ولقد افتتحت السورة الكريمة بموضوع الأنفال وأشارت إلى نوع من النزاع وقع بين بعض الأصحاب في موضوع الأنفال وضعته الآيات الكريمة في صيغة سؤال أجبت عنه ثم خلصت إلى ذكر صفات المؤمنين مشيرة إلى أن هذه الصفات هي التي يجب أن يتتصف بها الأصحاب ، وانتهى ههنا موضوع العتاب الأول ووجدت الآيات الكريمة سبيلها لتسليمه إلى العتاب الثاني بتشبيه الموقف الأول بالموقف الثاني ذلك لأن الدافع واحد والضعف البشري هو العامل في الموقفين .

وامتنزج العتاب في الموضوع الثاني بالتنذير بما وقع قبيل المعركة كراهة فريق للخروج وخوف فريق من الموت حتى أنهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون وجداول فريق مع الرسول عليه صلوات الله وسلامه في موضوع القتال .

وهنا تقارن الآيات الكريمة بين ما يرشهده هذا الإنسان اذا خلي وضعفه وما يرشهده الله

منه يرید شهوات نفسه ويرید الله منه ان يربط في سبيل دعوة الحق .
وبعد هذا التوجيه الکرم والعتاب الرحيم تأخذ الآيات الکرمة بالتنذير بالمن التي
تمت في معركة بدر، الاستغاثة والاستجابة بالامداد بالملائكة ، والآيات من عند الله
ترى ، والاستجابة تبدأ بذكر الامداد بالملائكة وتختم بأمرهم بتشيیث الذين آمنوا وضرب
البيان وختم هذا كله بأن هذا هو شأن الكافرين أن يذوقوا العذاب في الدنيا بيد المؤمنين
ولهم في الآخرة عذاب النار .

النداءات الخمسة

كل هذا يتم في اربع عشرة آية وتطلع الآية الخامسة عشرة بنداء حاسم جازم
للمؤمنين هو النتيجة الختامية لكل ما سبق عدم التولي يوم الزحف .

ويعقب النداء الأول نداءات اربعة تؤكد مضمونه وتوبيده .

النداء الثاني امر بطاعة الله ورسوله وتحذير من الاعراض عنه .

النداء الثالث امر بالاستجابة لله ورسوله .

والنداء الرابع هي عن خيانة الله ورسوله .

والنداء الخامس تحریض على التقوى وذكر ثمرة من أعظم ثمراتها الفرقان ويتصل بكل
نداء معانٍ تناسبه :

فالامر بعدم الفرار من الزحف يناسبه أن يعلم المؤمن أن الأمر كله لله وإن كل ما يتم
في ملكه جل شأنه بتقديره وتدبره فلم الخوف إذن لم الفرار؟ قال تعالى «فلم تقتلوهم
ولكن الله قتلهم» و يتصل بالموضوع أن يستيقن المؤمن بأن الله موهن كيد الكافرين .

والامر بطاعة الله ورسوله يناسبه التنفير من حال الكافرين غلبت قلوبهم الذين
قالوا سمعنا وهم لا يسمعون الذين هم شر الدواب الصنم البكم الذين لا يعقلون .

والاستجابة لله ورسوله يناسبه التحذير من أمر ينبع بمحolan بين المرء والاستجابة لنداء
الحق أحدهما داخلي حين يحال بين المرء وقلبه وثانيها خارجي حين تعم الفتنة في الأمة
ويعظم شرها فلا يستطيع أن يقف أمامها ذو رأى أو يكبح جماحها ذوزعمة . ويناسب

الاستجابه لله ورسوله لما فيها من الحياة تذكير المؤمنين بمحامهم من قبل إذا هم قليل مستضعفون في الأرض فآواهم الله جل شأنه بعد استجابتهم وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات .

ويناسب الأمر بعد الخيانة التذكير بفتنة الأموال والأولاد

ويناسب ذكر الفرقان الذي يكون للمؤمنين بسبب تقواهم تذكيرهم بما كانوا عليه من قبل وما كان عليه المشركون من كيد وعكر وعناد :

أ— اثمارهم برسول الله عليه صلوات الله وسلامه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه .

ب— استهزاؤهم بآيات الله وقولهم «إن هذا إلا أساطير الأولين»

ج— عنادهم بأبغض صورة (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء)

ويتصل بالأمر الثالث أنهم يستحقون العذاب ولكن الله لا يعذبهم مادام الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم .

ويناسب ذكر الكافرين وعنادهم العود الى تطمين المؤمنين ، بأن الله محبط كيد الكافرين وبأن الأموال التي ينفقونها ليصدوا عن سبيل الله ستكون حسرة عليهم ثم يغلبون .

وهنا مكان بيان سنة من سنن الله في خلقه لعباده وابتلاءه إياهم في الحياة إلا فرصة تناح للخبيث ليقدم أسوأ ما عنده وللطيب ليدي أكرم خصاله وهذا الابتلاء «ليميز الله الخبيث من الطيب»

على أن باب الخير مفتوح غير مؤصد وليس بينه وبين هذا الإنسان إلا أن يستيقظ ضمير هذا الإنسان وهنالك تفتح له صفحة جديدة ويولد ولادة جديدة (ان ينتهاي يغفر لهم ما قد سلف)

فإذا كانت الحياة صراعاً بين الحق والباطل وإذا كان الشر دائياً على مغالبة الخير عاماً على إخفاء آثاره وطمس معالمه فليس البيان وحده كافياً في دفع الشر واحتثاث

اصله بل لابد من قتال يواجه القتال ومناجزة تسبق المد وليس الغرض من القتال التشفى ولا الانتقام ولكن الغرض كف الفتنة ودفع الأذى «وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة»

وهكذا كانت هذه الآية الكريمة مسوغة للقتال وهكذا كان بعد دفع المؤمنين الى الشبات وتحرر يضمهم على الوقوف أمام الأعداء كالأطواد بيان لمعنى القتال لدى المسلمين والغرض الدافع اليه . ومفهوم الآية الكريمة أن غير المسلمين اذا انكسرت شوكتهم وقطعت فتنتهم فلا مسوغ لقتالهم .

ويتصل بالقتال أمر هام جدا هو إحلال الغنيمة للMuslimين يقوون بها على الاستمرار في قتال المشركين وقطع دابرهم .

ويتصل بأمر الغنيمة تشريع هام جدا هوأخذ الخمس من الغنيمة ليكون لحاجات المسلمين العامة ولأقرباء الرسول عليه صلوات الله وسلامه الذين لايجوز لهم أن يتناولوا شيئاً من مال الصدقة وليتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم .

والآية التي شرعت هذا التشريع تستحب المسلمين للامتثال وتتعود بهم الى التذكير بالموقعة التي كتب لهم فيها النصر وبحال أعدائهم من قبل وذكر الفرقان هنا كما ذكر من قبل تحرير المؤمنين على القتال ودعوتهم الى الشبات في ميادينه ويتبع القتال الانفاق في سبيل الله . وصورة الانفاق هنا التنازل عن خمس ماغنمه المسلمين من أعدائهم وكلا الأمرين القتال والانفاق من احكام الله وتشريعته الهامة وقد وضع الحكم الأول في نداء اخترت به المهدات من قبله والمؤكّدات من بعده واعتمد التهديد والتأكيد على تذكير المؤمنين بما تم لهم في التجربة التي مرروا بها وعرفوا فيها لطف الله ولمسوا عنایته بهم وهنا في الآية الحادية والأربعين يفرض على المؤمنين قدر ليس باليسير يدعونه من الغنيمة الله ولرسوله .

وهنا ايضاً تستثار معاني الاعياد ثانية وتعود الآيات الكريمة الى التذكير بالموقعة وبحال الكافرين .

يُذَكَّر المؤمنون بموقعهم في المعركة وموقع اعدائهم ومكان الركب الذين نجوا بالقافلة ، واهتمام الآية الكريمة بذكر المكان فيه إشارة الى أنه كان للمكان الذي نزل فيه المسلمين والذي نزل فيه أعداؤهم دور في كسب المعركة وقد دخلت العناية الالهية فنزل المطر فوطأ

للأقدام في أرض المسلمين وكان شرًا على الكافرين .

وكان الاجتماع بين المؤمنين وقريش على غير ميعاد ، كان مفاجأة قدرتها رحمة الله لتكون عبرة وليقضي الله أمرًا كان مفعولاً .

وكان مما رتب لهذا اللقاء رؤيا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في منامه إذ رأهم قلة وتقليل المشركين في أعين المؤمنين قبل القتال وتقليل المؤمنين في أعين المشركين . يقول الزخنري : « قد قللهم (المؤمنين) في أعينهم (المشركين) قبل اللقاء ثم كثرهم بعده ليجترئوا عليهم ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا وهابوا وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم وذلك قوله تعالى « يرونهم مثلهم رأى العين » .

وهنا يستيقن المؤمنون أن الموقعة قد تمت بتدبير الله وأن نصرهم قد سددت خطواته قدرة الله فليزدادوا إيمانا بالله وتوكلوا عليه وهنا يأتي النداء في الآية الخامسة والأربعين شبها بالنداء الأول يدعو المؤمنين إلى الشبات أمام المشركين « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتووا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

ويلي النداء دعوة إلى الطاعة لله ورسوله كما كان الحال في النداء الأول اقترب النداء هنا بالأمر بالطاعة وبالنهي عن التنازع كما كان النهي في النداء الأول عن إعراض كإعراض المشركين « الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » .

واعقب النداء والأمر والنهي تحذير وتنفير من الواقع في حال المشركين « الذين خرجوا من ديارهم بطراء ورثاء الناس يصدون عن سبيل الله » .

وي المناسب حال بطر المشركين وكبرهم التذكير بتزين الشيطان لهم أعمالهم فإذا جد الجد تبرا منهم وتركهم في الميدان يذوقون الموت بسيوف المسلمين .

وي المناسب ذكر عون الله لأوليائه ونصرته للذين اتبعوا دينه التذكير بقول المنافقين « غر هؤلاء دينهم » واجابة هؤلاء الموجزة الخامسة قوله تعالى « ومن يتوكلا على الله فإن الله عزيز حكيم » .

ذكرت الآيات الكريمة قبل النداء الأول ضرب الملائكة للاعناق وللبنان وهنا تذكر الآيات الكريمة بالملائكة تتوفى الذين كفروا تضرب وجوههم وأدبارهم وتقول لهم ذوقوا

عذاب الحريق وكان السبب هناك مشاقة الله ورسوله والسبب هنا ما قدمت أيديهم .

وعقدت الآيات الكريمة شبهها بين مشركي قريش وآل فرعون والذين من قبلهم ووجه الشبه انهم « كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنبهم » وخلصت الآيات بعد هذه النتيجة الواقعه إلى قانون اجتماعي ومبدأ إنساني هام جداً ماله أن ما يعتري المجتمعات من ارتفاع وهبوط منوط بما يطرأ على نفوسهم من تغيير وتبدل وفوذج هذه القاعدة ماحل بالآلة فرعون حين كذبوا بآيات الله أهللوكوا وأغرقوه وتخلص الآيات الكريمة بعد كل هذا إلى مبدأ اجتماعي آخر يتم المبدأ الأول ويفصل عالمه ذلك أن شر تغير يطرأ على النفوس هو ذلك التغير الذي ينقل النفوس من الایمان الى الكفر وتصبح تلك النفوس التي ملئت كفرا شر مخلوق يدب على وجه الأرض .

ولما كان محور الموضوع قتال هؤلاء اختارت الآيات الكريمة من صفات هؤلاء الذين هم شر الدواب صفة نقض العهد فوصفتهم بأنهم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ثم وضعت لأمثال هؤلاء علاجاً شبيهاً بمعالجة الجرح بالكبي قال تعالى « فأما شقفهم في الحرب فشد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

ووضعت في الوقت نفسه حكماً شرعاً وقاعدة من قواعد الحرب « وأما تختلف من قوم خيانة فانبذ اليهم على سوء » وعادت الآية تطمئن المؤمنين وتسرع بقوى الكافرين ومكرهم وانواع جهودهم وتطمئنهم بأنهم المغلوبون

« ولا يحسن الذين كفروا سبقاً ، إنهم لا يعجزون »

وهذه الآية قد تحمل بعض الناس على فهم الأمور فيها منحرفاً جانبياً ومثل هؤلاء هم الكثرة الغالبة اليوم يحسبون أن المسلمين ينصرون ولم يعدوا أكبر عدة يستطيعونها ليرهبوا أعداء الله وليس معنى الآية الكريمة إلا أن تكون قوة المسلمين الحربية أعظم قوة في العالم كله إلى جانب كل أعداد يدخل في معنى القوة .

قال تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »

وهنا اذا انتهى المسلمين في اعداهم وقوتهم الى الذروة وخاف اعداؤهم بطيشهم فالوا الى المهاينة وجنحوا الى المسالمة فحكم الله في مثل هذه الحال ان يقبل المسلمين مصالحتهم ويرضوا بمسالتهم . يفعل ذلك المسلمون رغبة في الصلح وحقن الدماء وبرهاناً للناس

أجئين بأنهم لا يحملون في قلوبهم حقدا ولا غيظا ولا حنقا على أهل الشر ودعاة الباطل بل كل ما يرمونه أن يكف هؤلاء عن فتنتهم فإذا ألقوا السلاح وأعلنوا الاستسلام ألقى المسلمون سلاحهم ورضوا بصلاحهم وهم يفعلون ذلك بعيون مفتوحة وقلوب يقظة يعلمون أن دعاء الشر لا عهود لهم ، يضع المسلمون أسلحتهم ويرقبون ما يجيء من هؤلاء فإن كانوا يريدون خدعة فالله من ورائهم « وإن يريدوا أن يخدعواك فإن حسبك الله » وكأن الآية الكريمة تطلب من المؤمنين الحذر ولكنها في الوقت نفسه تطلب من المؤمن أن يكون موقفه موقف المطمئن إلى ربه الواثق بنصره أما المغالاة في الحذر التي تؤدي إلى المبالغة في الظلم بقتل الجماعات وبث الذعر في النفوس وذلك مما يعانيه الظالم من شدة الخوف والامتناع بالرعب كل ذلك يأبه الإسلام ولا يرضاه بل على القائد أن يطمئن دون أن يكون غافلا إلى معونة الله وتأييده بنصره وبالمؤمنين الذين ألف الإيمان بين قلوبهم .

وتؤكد الآية هذه الطمأنينة فتنادي النبي مطمئنة له ثانياً بـان الله كافيه (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

كانت الدعوة إلى الطمأنينة إلى نصر الله عند ذكر جنوح الأعداء إلى السلم وأنهم ربما أرادوا بذلك خدعة . وهذه الدعوة إلى الطمأنينة في مثل هذه الحال تفيد معنى كريماً أن المؤمن يقدم على معاني النجدة والمروعة غير هياب ولا وجح مطمئناً إلى نصر الله واثقاً بعونه كل ذلك يتم حين يbedo من العدو انكسار وحين يظهر بظاهر الخاضع للمسلم وإن كان يضرم الغدر ويزيد الشر فيظهر أمره وتبدو خيانته وينبذ اليه عهده ، أما في الحال التي يرفع فيها الكفر عقيرته ويبدي من ناجذيه فليس له إلا السيف وهنا تعود الآيات إلى الحض على القتال .

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال »

والتحريض هنا يقترب بحكم الذي كان في مطلع السورة وهو النبي عن الفرار في ساعة الزحف والحكم هنا يفصل الإجمال هناك فعدم الفرار في ساعة الزحف مقيد بمقابلة عدد من المسلمين الصابرين لعدد من المشركين يعدل عشرة أضعافهم ولكن شرط الصبر مفقود على الغالب فكان الحكم مقابلة المسلمين لثلاثين من المشركين هو المشروع .

يتصل بالموضع كله قاعدة في القتال هامة : لقد كان من هدي الآيات السابقة أن يقبل المسلمين من المشركين ميلهم إلى المهادنة وجنوحهم إلى المسالمة وذلك يدل على أن شوكتهم قد خضدت وعزتهم قد كسرت فإذا كان هذا حكم الله في مثل هذه الحال فما الحكم حين يكون المشركون في عزة ومنعة وقوة . الحكم في مثل هذه الحال لا يجدوا لدى المسلمين هؤادة في أمرهم فلا يقبلون فداء من أسراهم بل تضرب أعناقهم .

« ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يشخن في الأرض »

والاثنان في الأرض المبالغة في القتل حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله .

وجه العتاب الى الرسول عليه الصلاة والسلام وذكرت القاعدة التي يجب أن تتبع واقتصر العتاب بالعفو وجاء الحكم بأن ما أخذ من الأسرى حلال طيب مندرج في الآية التي أباحت الغنائم للمسلمين .

ولا يفوت الآيات الكريمة في مثل هذه الحال تطبيب قلوب بعض الأسرى ورواية ابن اسحاق تجعل الآية الكريمة في العباس عم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه اذا قال يارسول الله قد كنت مسلما فقال عليه الصلاة والسلام : الله أعلم باسلامك فان يكن كما تقول فإن الله يجزيك .

قال تعالى « يا أيها النبي قل لمن في ايديكم من الأسرى أن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذتم منكم ويفتر لكم »

قال تعالى « وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم » والذى يؤخذ من الآيات الكريمة انه كان في الأسرى من هو مؤمن كالعباس وكان فيهن قوم تكلموا بالاسلام ولم يضعوا فيه عزيمة ولا اعترفوا به اعترافا جازما . قال ابن العربي « ويشبه انهم ارادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين وقد بين الله الحقيقة لرسوله فقال « وان يريدوا خيانتك » .

سارت السورة الكريمة أشواطا في دعوة المؤمنين الى الثبات في ميادين القتال وتحريضهم على ملاقة الأعداء بقلوب غير هيبة وحطت الرحال عند آيات تبين موالة

المؤمنين بعضهم لبعض فالمهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض اما الذين آمنوا ولم يهاجروا فليس على المؤمنين من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . ولقد كان يدعوه عليه الصلاة والسلام الذين يدخلون في الإسلام من القبائل ان يتتحولوا من دارهم الى دار المهاجرين فان فعلوا ذلك كان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم وان ابوا واختاروا دارهم كانوا كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الفيء والغنية نصيب الا ان يجاهدوا مع المسلمين .

فالآية دعوة للمسلمين الى الهجرة ليكترسوا المسلمين ويظهر اجتماعهم واعانة بعضهم البعض ولم يزل طلب الهجرة مطلوبًا إلى أن انتهت بفتح مكة لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد فتح مكة .

واعادت الآيات الكريمة ذكر الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوا ونصروا هؤلاء في الآية الأولى بعضهم أولياء بعض وفي الآية التي تليها (اولئك هم المؤمنون حقا)

ويتبع هؤلاء في فصلهم الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا من بعد .
وهكذا ختمت السورة الكريمة بذكر الهجرة والموالة بين المهاجرين والأنصار وموالاة المسلمين بعضهم البعض .

وذيلت آخر آية بذكر أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم .

وخلصة ما سبق كله أن الموقعة ذكرت في السورة مرتين مهد للمرة الأولى بعتاب المؤمنين في موضوعين اولهما الأنفال ، وثانيهما تردد من بعض المؤمنين في القتال ، ثم ذكر المؤمنين بالمن التي تمت في المعركة ثم كان نتيجة ذلك كله خمس نداءات تتطلب الشبات في مواطن القتال وتؤكدده وذُكر المؤمنون بعد ذلك بحال المشركين من قبل ثم ذكر الغرض من الابتلاء في الدنيا والغاية من قتال المشركين كف الفتنة ودفع الأذى .

وعرضت الآيات الكريمة للغنية ثانية وأن خسها لله ولرسوله وكان الأمر بتقديم خمس الغنية تمهدًا لذكر الموقعة ثانية ولنداء يعقب ذكر الموقعة شبيه بالنداءات الأولى وكان

ذكر المشركين ثانيةً وذكر من صفاتهم الخروج بطراً وتزيين الشيطان لهم أعمالهم وأن شأنهم كشأن آل فرعون وإن عاقبهم إلى العذاب وذكر من صفاتهم نقض العهد ووضع للمؤمنين عدة قواعد حربية.

- ١ - متى ينبد المؤمنون عهود المشركين ، وامرروا هنا امراً جازماً باعداد العدة .
 - ٢ - متى يجتمع المسلمون للسلم وكيف ؟
 - ٣ - تفصيل قاعدة الثبات وعدم الفرار .
 - ٤ - ارهاب العدو والاثنان في الأرض .
- وختمت السورة الكريمة بموالاة المؤمنين بعضهم لبعض .

موضع السورة من كتاب الله

قال الألوسي^(١) :

«والظاهر أن وضعها هنا (يعني وضع سورة الأنفال في مكانها من المصحف) توقيفي وكذلك وضع براءة بعدها وما من هذه الحيثية كسائر سور والتي ذلك ذهب غير واحد .

وذكر الجلال السيوطي ان ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقف من الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابي رضي الله تعالى عنهم ، كما هو المرجح في سائر سور بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه ، وقد كان يظهر في رأي السيوطي بأدئ الرأي ان المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهو لا شراك كل في اشتتماها على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصاً أن الحديث ورد في فصل السبع الطوال وعدوا السابعة يonus وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البهقي في الدلائل ففي فصلها من الأعراف بسورتين فصل للنظر من سائر نظائره هذا مع قصر سورة الأنفال بالنسبة إلى الأعراف وبراءة»

وهكذا تورط السيوطي وقع في هذا الذي وقع فيه كله كون السورة ليست بتوقف من رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وانتقاده لوضعها في مكانها ، ثم يعود فيبين بأن وضعها وإن كان في الظاهر في غير مكانها ولكنه الصواب ، وبيانه بما فتح الله به عليه

تورط في كل هذا بسبب الحديث التالي :

يقول السيوطي وقد استشكل ذلك قدما حبر الأمة رضي الله عنه ويروى السيوطي حديثا عن ابن عباس اخرجه الترمذى وآخرجه ابن حنبل في المسند عن ابن عباس قال قلت لعثمان : ما حلكم على ان عمدتم الى الأنفال وهي من المثانى والى براءة وهي من المثنى فقررت بينها ، ولم تكتبوا سطر البسمة ، ووضعتموها في السبع الطوال ما حلكم على هذا ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه سور ذات العدد ، وكان اذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية يقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا .

وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وبعض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها ومن أجل ذلك قررت بينها ولم اكتب البسمة وضعتها في السبع الطوال . اخرجه ابو داود والترمذى وقال حديث حسن ورواه الامام احمد والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

ويقول الأستاذ احمد محمد شاكر في تعليقه على هذا الحديث في مسند احمد : (١) «في اسناد هذا الحديث نظر كثربل هو عندي ضعيف جدا ، بل هو حديث لا اصل له يدور اسناده في كل الروايات على «يزيد الفارسي» الذي رواه عن ابن عباس ، تفرد به عنه عوف ابن ابي جبilla الاعرابي ، وهو ثقة ، فقد رواه ابو داود (٢) والترمذى (٣) وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه الا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ، رواه ايضا ابن ابي داود في كتاب المصاحف (٤) بثلاثة اسانيد والحاكم في المستدرك (٥) وصححه على شرط الشیخین ووافقه الذهبي ، ورواه البیهقی في السنن الكبرى (٦) كلام من طريق عوف عن يزيد الفارسي .

ويزيد الفارسي هذا اختلف فيه أهويزيد بن هرمز ام غيره قال البخاري في

(١) ٣٩٩ / ١ (٢) ٢٨٧ - ٢٨٨ (٣) ١١٣ - ٤ (٤) ٣١ - ٣٢ (٥) ٢٢١ - ٢ (٦) ٤٢ : ٢

التاريخ الكبير^(١) قال لي علي : « قال عبد الرحمن يزيد الفارسي هو ابن هرمز قال فذكرته ليعيني فلم يعرفه قال وكان يكون مع النساء »

وفي تهذيب التهذيب^(٢) : « قال ابن أبي حاتم : اختلفوا هل هو يعني ابن هرمز - يزيد الفارسي أو غيره فقال ابن مهدي وأحمد هو ابن هرمز وأنكر يحيى ابن سعيدقطان أن يكونا واحداً وسمعت أبي يقول : يزيد ابن هرمز هذا ليس بيزيد الفارسي هو سواه »

يقول أحد محمد شاكر عليه رحمة الله « فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً حتى شبه على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو غيره ويدركه البخاري في الضعفاء .

يقول أحد محمد شاكر فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به وفي الحديث تشكيك في معرفة سور القرآن ، والثابتة بالتواتر القطعي قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف وفيه تشكيك في إثبات البسمة في أوائل سور ، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه وحاشاه من ذلك .

فلا علينا إذا قلنا أنه حديث (لا أصل له) تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث :

قال السيوطي في تدريب الراوي في الكلام على امارات الحديث الموضوع « إن يكون منافياً للدلالة الكتاب القطعية ، أو السنة المتواترة أو الاجماع القطعية »

وقال الحافظ بن حجر في النخبة : « ومنها ما يؤخذ من حال المروي كأن يكون مناقضاً لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الاجماع القطعية »

وقال الخطيب^(٣) « ولا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل ، وحكم القرآن الثابت الحكم والسنة المعلومة ، والفعل الجاري مجرى السنة ، وكل دليل مقطوع به .

يقول أحد محمد شاكر : وكثيراً ما يضعف أئمة الحديث راوياً لأنفراهم برواية حديث منكر يخالف المعلوم من الدين بالضرورة أو يخالف المشهور من الروايات فأولى أن نضعف يزيد بن فارس هذا بروايته هذا الحديث منفرداً إلى أن البخاري ذكره في الضعفاء ،

(١) ٤/٣٦٧ (٢) ١١: ٣٦٩ (٣) في الكفاية ٤٣٢

و ينقل عن يحيى القطان أنه كان يكون مع النساء . هـ
ويؤيد ما ذهب إليه الأستاذ أحمد محمد شاكر عليه رحمة الله ما ذكره ابن حجر في
التهذيب قال : يزيد بن هرمز قيل إنه يزيد الفارسي وال الصحيح أنه غيره .

ويقول في التقرير يزيد بن هرمز المداني مولىبني ليث وهو غير زيد الفارسي على
الصحيح وهو والد عبد الله ثقة من الثالثة .

ويترجم ابن حجر لزيد الفارسي البصري في التقرير أيضاً ويقول عنه مقبول من
الرابعة . (د - ت - س)

ويقول ابن حجر في تهذيب التهذيب :
يزيد الفارسي البصري روى عن ابن عباس وحكى عن عبيد الله بن زياد والحجاج
ابن يوسف في أمر المصاحف عنه مالك بن دينار وعبد الله بن فiroz وعون بن ربعة
الثقفي وعوف الأعرابي .

قال بعضهم إنه هو يزيد بن هرمز وال صحيح أنه غيره قال علي بن المديني ذكرت
ليحيى بن سعيد قول بن مهدي ابن يزيد الفارسي هو ابن هرمز فلم يعرفه وقال كان يقول
عن الامراء قال ابن حجر وقال أبو هلال ثنا مالك بن دينار عن يزيد الفارسي كاتب
عبيد الله بن زياد .

وقال أبو حاتم لا بأس به . وعبارة أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل هي ما يلي :
وكذلك صاحب ابن عباس (ويعني به يزيد الفارسي لا بأس به)

و ينقل الأستاذ أحمد شاكر ما ذكره السيد محمد رشيد رضا في تفسيره موجزاً ونحن
نجد من الفائدة أن نقل كل ما نستطيع نقله عن هذا الحديث . قال السيد رشيد رضا في
تفسيره ^(١) : ولأجل هذه الرواية (يعني الحديث الذي سبق ذكر ما ذهب البهقي إلى
أن ترتيب جميع سور توفيقي عن النبي صلى الله عليه وسلم لا الأنفال وبراءة وافقه
السيوطى)

(١) : ٥٨٥ ص ٩

ويرد السيد رشيد رضا هذا القول بأنه لا يعقل أن يرتب النبي صلى الله عليه وسلم جميع السور إلا الأنفال وبراءة.

وقد صح عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من كل عام فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين فأين كان يضع هاتين السورتين في قرآته؟

يقول «وهذا الحديث قال الترمذى حسن لا نعرفه الا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ويزيد الفارسي هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل هو يزيد بن هرمز أو غيره والصحيح انه غيره روى عن ابن عباس وحکي عن عبيد الله بن زياد وكان كاتبه وعن الحجاج بن يوسف في أمر المصاحف وسئل عنه يحيى بن معين فلم يعرفه^(١) وقال أبو حاتم لا بأس به . ا . هـ ملخصا من تهذيب التهذيب .

يقول السيد رشيد رضا فضل هذا الرجل لا يصح أن تكون روایته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر .

ويقول الأستاذ محمد علي سلامة رحمه الله من افضل علماء الأزهر في كتابه^(٢) : «ان هذا الحديث غير صحيح لأن الترمذى الذي هو أحد من خرجه قال فيه انه حسن غير بسب لا نعرفه إلا من حديث يزيد الفارسي عن ابن عباس ويزيد هذا مجھول الحال فلا يصح الاعتماد على حديث الذي انفرد به في ترتيب القرآن .

يقول الشيخ احمد محمد شاكر بعد ان نقل عن السيد رشيد رضا ما سبق : وهذا يكاد يوافق ما ذهبنا اليه فلا عبرة بعد هذا كله في هذا الموضوع بتحسين الترمذى ولا بتصحیح الحاكم ولا بموافقة الذهبي وإنما العبرة للحجۃ والدليل ، والحمد لله على التوفيق . وبعد هذا البحث الذي لا ندعی له الكمال والاستيفاء نريد أن نخلص الى ان الذي نؤمن به من غير ريب أن الذي بين دفتی المصحف كتاب الله جل شأنه أنزله على

(١) : الذى جاء في تهذيب التهذيب انه لا يعرفه هو يحيى بن سعيد القطان كما نقلنا وليس يحيى بن معين ويدو ان السيد رشيد قد سهل في هذا .

(٢) : منهج الفرقان في علوم القرآن ص ١٣٦

نبيه لا مدخل للبشر في صفة من أوصافه ولا في حرف من حروفه ولا مجال للاجتهد في ترتيب آياته ولا في ترتيب سوره بحيث أثبتت البسمة فاما أثبتت بأمر الله وحيث حذفت فاما وقع ذلك بأمر الله . وإنما الريب في مثل الرواية التي سبق ذكرها التي تحيط بها الشكوك وتحفها الأوهام ومن عجب أن ينطلي آخر مثل هذه الرواية على بعض العلماء كما مر لدى البيهقي والسيوطى ولعلها أخذنا بتحسين من حسنها وتصحيح من صححها والعصمة من الخطأ لله وحده . والذي حسنها هو الترمذى ولكن يشير الى ضعفها بقوله ، لا نعرف الا من حديث يزيد الفارسي . والذي صححها هو الحاكم والذهبي .

والبحث غودج حسن لما للأحاديث الضعيفة والواهية من أثر سيء في اسس الدين ومعانيه .

قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول »
يبدأ السورة الكريمة بقوله تعالى يسألونك وجاء ما بعدها جواباً عن السؤال الذي توجه به الأصحاب رضوانه الله عليهم الى النبي صلى الله عليه وسلم بشأن الأنفال .

والأسئلة التي وجهت الى الرسول عليه صلوات الله وسلامه في القرآن مختلفة الأسلوب حدد في بعضها المسؤول عنه وحددت جهة السؤال ولم يحدد شيء من ذلك في بعضها الآخر فالسؤال عن الشهر الحرام قتال فيه حدد فيه المسؤول عنه وبينت وجهته اما قوله تعالى يسألونك عن الخمر ، يسألونك عن اليتامي ، يسألونك عن المحيض فالمسؤول عنه في كل هذه الأسئلة غير محدد ولكن الجواب يحدد ويبينه من هذا النوع السؤال الذي نحن بصدده « يسألونك عن الأنفال » اذ يحتمل أن يكون سؤالاً عن الأنفال من جهة حل أكلها وجوائز الانتفاع بها ومحتمل أن يكون سؤالاً عن كيفية قسمتها ومن ترجع اليه قسمتها ، ولكن الجواب الذي أتي من بعد يدل على المقصود ويوضح ان السؤال عنها من الجهة الثانية لا من الجهة الأولى وذلك لأن الجواب بكونها لله والرسول لا يدل على حلها ولا على حرمتها ولا يستفاد منه الحكم عليها بشيء من ذلك فلا يصلح أن يكون هذا القول جواباً لسؤال ما هو حكمها .

ثم ان قوله تعالى بعد ما سبق « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » يشعر بأنه قد وقع منهم ما احتاجوا معه الى التنبية إلى اصلاح ذات

بینهم والی تذکرهم بتقوى الله وطاعته . وليس من شک في أن السؤال عن حل الأنفال
أو حرمتها ليس بما ينافي التقوى ولا يؤدي السؤال عن ذلك الى الخروج من صلاح ذات
البين أو الخروج من طاعة الله ورسوله بل لعله على عكس ذلك يؤكّد التقوى وجع الكلمة
والحرص على الطاعة .

فالأمر بالتقى واصلاح ذات البين واطاعة الله ورسوله لا يصلح ان يقع جوابا عن
سؤال الحل والحرمة .

ويؤيد ما ذهبنا اليه الروايات التي تشير الى الاختلاف الذي وقع بين المسلمين في
غنائم بدر .

قال تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول »
قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبری : اختلف أهل التأویل في معنى الأنفال التي
ذكرها الله في هذا الموضوع فقال بعضهم : هي الغنائم ، وقالوا معنى الكلام : يسألك
أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتمها انت واصحابك يوم بدر ، من هي ؟ فقل هي الله
ورسوله . ويسرد ابن جریر الطبری أسانیده الى عكرمة ومجاهد والضحاک وابن عباس
وقتادة وعطاء بأن الأنفال هي الغنائم .

يقول الطبری :

وقال آخرون هي أنفال السرايا ويدرك ستدا بذلك عن صالح بن حي انه قال بلغني
أن الأنفال هي السرايا ثم يقول : وقال آخرون : ما شذ من المشركين الى المسلمين من
عبد أو دابة وما أشبه ذلك ويروى هذا المعنى باسناد . وقال آخرون : النفل الخامس
الذى جعله الله لأهل الخامس ويروى هذا القول باسناده الى مجاهد .

ثم يقول الطبری :

وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى الأنفال قول من قال : هي زيادات يزدها
الامام بعض الجيش أو جيشه إما من سهمه على حقوقهم من القسمة وأما مما وصل اليه
بالنفل او ببعض أهيباته ، ترغيبا له وتحريضا له من جيشه على ما فيه صلاحهم
وصلاح المسلمين ، أو صلاح أحد الفريقين وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من انه

الفرس والدرع ومحو ذلك ويدخل فيه ما قاله عطاء من ان ذلك ما عاد من المشركين الى المسلمين من عبد او فرس لأن ذلك امره الى الامام اذا لم يكن ما وصلوا اليه بغلبة وقهر، يفعلي ما فيه اصلاح اهل الإسلام وقد يدخل فيه ما غالب عليه الجيش بقهر.

وأنا قلنا اولى الأقوال بالصواب لأن النفل في كلام العرب اما هو الز يادة على الشيء يقال عنه نفلك كذا وانفلتك اذا زدتك . والأنفال جمع نفل ومنه قول لبيد ربيعة
ان تقوى ربنا خير نفل وباذن الله ريشي وعجل
الى أن يقول .

الغنية هي ما أفاء الله على المسلمين من أموال المشركين بغلبة وقهر نفل منه منفل أو لم ينفل .

والنفل هو ما أعطيه المرء على البلاء والغناء عن الجيش على غير قسمة
وينقل ابن كثير الأقوال التي ذكرها ابن جرير :
قول ابن كثير في النفل :-

١ - فيقول : الأنفال : المغنم أو الغنائم .
٢ - يذكر أسنادا ويقول : هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله
الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتادر إلى فهم كثير
من الفقهاء من لفظ النفل .

٣ - القول الثالث يرويه ابن كثير عن مجاهد انه سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن الخامس بعد الأربعين من الأخناس فنزلت يسألونك عن الأنفال .

٤ - القول الرابع عن عطاء بن أبي رباح (يسألونك عن الأنفال) قال يسألونك فيما شذ
من المشركين إلى المسلمين من غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متعاف فهو نفل للنبي
صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يشاء .
وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

٥ - وقال آخرون هي إنفال السرايا عن علي بن صالح بن حبيبي قال بلغني في قوله
تعالى «يسألونك عن الأنفال» قال السرايا ومعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا
زيادة على قسمهم مع بقية الجيش .

قول أبي عبيد في الأنفال : -

ويقول ابن كثير: قال أبو عبيد: والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا أن الخامس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ومعنى الأنفال في كلام العرب كل احسان فعله فاعل تفضيلا من غير أن يجب ذلك عليه فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصمهم الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل .

يقول ابن كثير: قلت شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي الحديث إلى أن يقول: وأحلت لي الغنائم ولم يحل لأحد قبلي» .

ثم قال أبو عبيد: وهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو .^(١) .

قول الراغب

وقال الراغب: النفل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبادة عنه لاختلاف الاعتبار فإنه اذا اعتبر بكونه مظفورة به يقال غنيمة، واذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداء من غير وجوب يقال له نفل، ومنهم من فرق بينها من حيث العموم والخصوص فقال الغنيمة كل ما حصل مستغنا بتعب كان او بغير تعب وباستحقاق او بغير استحقاق وقبل الظفر كان او بعده والنفل ما يحصل للإنسان قبل القسمة من جملة الغنيمة، وقيل هو ما يحصل لل المسلمين بغير قتال وهو الفيء، وقيل ما يحصل من المtau قبل ان تقسم الغنائم . وعلى هذا حلوا قوله (يسألونك عن الأنفال) .

(١) جاء في الأعلام: القاسم بن سلام المروي الأزدي الخزاعي أبو عبيد (١٥٧ - ٢٢٤) هـ من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه ، من أهل هرة ولد وتعلم بها ، وكان مؤذيا ورحل إلى بغداد ، فولى القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة - ٠٠٠ وحج فتوفى بمكة .

خلاصة الأقوال

من كل ما سبق يتلخص أن العلماء ذهبوا في معنى الأنفال التي وردت في هذه السورة مذاهب شتى يمكن ردها إلى أقوال ثلاثة :

القول الأول: الأنفال الغنائم وقد روی هذا عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وطائفة من الصحابة وهو قول جمهور العلماء ، قال البخاري في صحيحه قال ابن عباس الأنفال المغنم ويؤيد ما ورد في سبب نزول الآية من اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في غنائم بدر و يؤيد هذا اللغة كما ذكر الراغب أن النفل هو الغنيمة بعينها .

والقول الثاني: هو الذي اختاره ابن جرير زباده يزیدها الامام لفرد من أفراد الجيش أو لفرقة من الجيش لحسن بلائهم ولعظم غناهم وهذه الزيادة إضافة إلى نصيب كل من الغنيمة العامة ، وهذه الزيادة أهي من الخمس الذي لرسول الله عليه صلوات الله أم هي من اصل الغنيمة قبل أن تخمس أم بعدها في كل هذا اختلاف العلماء سنعرض هذه المباحث فيما يلي ان شاء الله .

ويدخل في هذا النوع ما يسمى بأنفال السرايا وهي ما ذكرها ابن كثير في القسم الخامس في تقسيمه .

ويؤيد هذا القول ، كما ذكر ابن كثير ، رواية سعد رضي الله عنه وسيأتي ذكرها .

القول الثالث : المراد بالأنفال في الآية الكريمة ما شذ من المشركين إلى المسلمين من غير قتال وهذا هو الفيء كما ذكر ابن كثير . ويبدو أن هذا القول بعيد لأن حكم الفيء مخالف لحكم الغنيمة ومدار الحديث ههنا على الغنائم وتوزيعها أما حكم الفيء فقد جاء في سورة الحشر في قوله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللله ولرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .

قال الأستاذ الشنقيطي^(١) أكثر العلماء فرقوا بين الفيء والغنيمة فقالوا الفيء ما يسره الله للMuslimين من أموال الكفار من غير انتزاعه منهم بالقهر كفي بنى النمير الذين نزلوا

^(١) في اضواء البيان (جـ ٢ صـ ٣٥٢) .

على حكم النبي صلى الله عليه وسلم لشدة الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم ورضي لهم صلى الله عليه وسلم أن يرتحلوا بما يحملون على الأبل غير السلاح .

وأما الغنيمة فهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالغلبة والقهر .

وهذا التفريق يفهم من قوله « واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن الله خسنه ولرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » مع قوله فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب فإن قوله تعالى « فما أوجفتم عليه » الآية ظاهر في أنه يراد به الفرق بين ما أوجفوا عليه وما لم يوجفوا عليه . . .

وآية (واعلموا إنما غنمتم) ذكر فيها حكم الغنيمة وآية (وما أفاء الله على رسوله) ذكر فيها حكم الفيء واشير لوجه الفرق بين المسألتين بقوله : « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » اي فكيف يكون غنيمة لكم وأنتم لم تتبعوا فيه ولم تنتزعوه بالقوة من مالكيه .

يقول الاستاذ الشنقيطي : وبعض العلماء يسوى بين الغنيمة والفيء ويعزرو هذا القول إلى قتادة ، ويقع قتادة رحمه الله بناء على تسويته هذه في إشكال الجمع بين الآيتين آية الأنفال وآية الحشر فلا يجد ملخصاً مما وقع فيه إلا قوله إن آية الأنفال ناسخة لآية (وما أفاء الله على رسوله) .

يقول الشيخ الشنقيطي وهذا القول الذي ذهب إليه رحمه الله باطل بلا شك . . . هـ

ما سبق يبدو جلياً استبعاد كون الأنفال هيناً بمعنى الفيء ويفيد ذلك كون آية الفيء نزلت بعد وقعة بدر بشأن غنائم حصل عليها المسلمين بلا قتال وليس موضوع الفيء وارداً هنا بحال ولذلك لا نجد شيئاً من الروايات التي تتعلق بسبب نزول الآية الكريمة يذكر هذا المعنى .

وعلى هذا فالمراد بالأطفال دائرة بين أمرين إما الغنائم مطلقاً وإما الزيادات التي تعطى لمن هم غناء كبير وبلاه حسن في الموقعة والأمران وإن بدا أنها موضوعاً ولكن الواقع أنها متداخلان يتوثر كل منها في الآخر فالزيادة هي في الأصل جزء من الغنائم فإذا عظم مقدارها صغر نصيب كل فرد مما بقي منها إلا أن تكون الزيادة من الخمس وهو رأي مرجوح في نظرها.

روى مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير بباب الأطفال قال :

١ - حدثنا قتيبة بن سعيد (١) حدثنا أبو عوانة (٢) عن سماك عن مصعب (٣) ابن سعد عن أبيه قال أخذ أبي من الخمس سيفاً فأتاها النبي صلى الله عليه وسلم فقال هب لي هذا فأبى فأنزل الله عز وجل «يسألونك عن الأطفال قل الأطفال لله والرسول».

٢ - حدثنا محمد بن الشنوي وابن بشار (واللفظ لابن الشنوي) قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : نزلت في أربع آيات (٤) أصبت سيفاً فأتاها النبي صلى الله عليه وسلم «ضعه من حيث أخذته» ثم قام فقال : نفلتني يا رسول الله فقال ضعه فقام فقال يا رسول الله نفلتني أجعل كمن لا غناء له فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «ضعه من حيث أخذته» قال فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأطفال قل الأطفال لله والرسول).

٣ - حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب ، قالا : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا زهير حدثنا سماك بن حرب حدثني مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال : حلفت أَمْ سعد أَنْ لا تكلمه أبداً حتى يكفر بيديه ولا تأكل ولا تشرب قالت : زعمت أن الله وضاك بوالديك وأنا أمك وأنا أمرك بهذا .

قال : مكشت ثلاثة حتى غشي عليها من الجهد فقام ابنها يقال له عمارة فسقاها

(١) : ثقة ثبت من العاشرة

(٢) : ثقة ثبت من السابعة

(٣) : كوفي صدوق وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة وقد تغير بأخره فكان يلفن (من الرابع)

(٤) : قال الشارح : لم يذكر هنا من الأربع إلا هذه الواحدة . وقد ذكر مسلم الأربع بعد هذا في كتاب الفضائل وهي : بر الوالدين ، وتحريم الخمر ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم ، وأية الأطفال .

فجعلت تدعوا على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهدك على أن تشرك بي (٣١ لقمان ١٥) وفيها : وصاحبها في الدنيا معروفا .

قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة فإذا فيها سيف فأخذته فأثنيت به الرسول عليه الصلاة والسلام فقلت : نفلنى هذا السيف فأنا من قد علمت حاله فقال « رده من حيث أخذته » فانطلقت حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتنى نفسي فرجعت اليه فقلت : أعطنيه قال : فأنزل الله عز وجل : يسألونك عن الأنفال ... الحديث (١)

والحديث قد رواه الترمذى قال (ج ٨ ص ٤٦٦) :
حدثنا أبو كريب (٢)، أخبرنا أبو بكر بن عياش (٣) (مات سنة ١٩٤ وقد قارب المائة) عن عاصم بن بهدلة (٤) عن مصعب بن سعد (٥) عن أبيه قال : « لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف ، فقال هذا ليس لي ولا لك فقلت عسى أن يعطى هذا من لا يليلي بلا شيء فجاءني الرسول فقال إنك سألتني وليس لي وأنه قد صار لي وهو لك قال فنزلت يسألونك عن الأنفال .. الآية » .

وفي هذه الرواية عاصم بن بهدلة يروي عن مصعب بن سعد فهي رواية تقوى الرواية السابقة رواية سماك . والحديث رواه أيضاً أبو داود في سنته عن أبي بكر عن عاصم عن مصعب بن سعد عن أبيه .

يقول ابن كثير: رواه أبو داود والترمذى والنمساني من طرق عن أبي بكر بن عياش

(١) : صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٧٧

(٢) : محمد بن العلاء بن كريب أبو كريب ثقة حافظ من العاشرة

(٣) : ثقة عابد إلا أنه لما كبر سأله حفظه وكتابه صحيح (من السابعة)

(٤) : عاصم بن بهدلة : قال عنه الحافظ بن حجر في التقريب : عاصم بن بهدلة الكوفي من السادسة صدوق له أوهام ، حجة في القراءة وحديثه في الصحيحين مقرر (ع)

(٥) : أبو زرارة المداني ثقة من الثالثة أرسل عن عكرمة ابن أبي جهل (ع)

به وقال الترمذى حسن صحيح وهكذا رواه ابو داود الطیالسى اخبرنا شعبة اخبرنا سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال نزلت في أربع آيات ... الحديث .

سبب آخر في نزول الآية :

يقول ابن كثير «سبب آخر في نزول الآية»

قال الامام احمد حدثنا محمد بن سلمة عن ابن اسحاق ^(١) عن عبد الرحمن ^(٢) عن سليمان بن موسى ^(٣) عن مكحول ^(٤) عن أبي أمامة قال سألت عبادة عن الأنفال فقال فيما أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساعت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء يقول عن سوء .

وقال الامام احمد أيضا حدثنا معاوية عن عمر ^(٥) واحبنا أبو اسحاق ^(٦) عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربعة عن سليمان بن موسى عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه واحدق طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة حتى اذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جعوا الغنائم نحن حوياناها

(١) : محمد بن اسحاق : صدوق يدلس ، امام المغازي ورمي بالتشيع والقدر (مات سنة خمسين ومائة خت ٤ من صغار الخامسة)

(٢) : عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش : ابو الحارث المدنى ، صدوق له اوهام من السابعة مات سنة ثلث واربعين / بع ٤

(٣) : سليمان بن موسى : الأموي الدمشقي الأشدق صدوق ، فقيه في حديثه بعض لين وخلط قبل موته بقليل من الخامسة / م ٤

(٤) : مكحول الشامي : ابو عبد الله ثقة فقيه كثير الارسال مشهور من الخامسة مات سنة بضع عشرة ومائة / م ٤

(٥) : ثقة من صغاري التاسعة

(٦) : ابو اسحاق الفزارى ابراهيم بن محمد بن الحارث ثقة حافظ من الثامنة

فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجن في طلب العدو لست بأحق به منا نحن متعنا عنه العدو وهزمناهم وقال الذين أخذدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا أن يصيّب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغارت في العدو نفل الرابع فإذا أقبل راجعا نفل الثالث وكان يكره الأنفال وروى الترمذى وابن ماجة من حديث سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه قال الترمذى هذا حديث صحيح ، ورواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث وقال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقال صاحب مجمع الزوائد رجال الطريقين ثقات هكذا قال صاحب مجمع الزوائد ولكننا نجد في كلا السندين رجليْن وصفا بالضعف أو هما سليمان بن موسى وقد قال عنه ابن حجر صدوق فقيه في حديثه بعض لين وخلط قبل موته بقليل .

والثاني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش وقد قال فيه ابن حجر صدوق له أوهام وهذا التعبير أول درجات الجرح وهو يجعل الحديث ضعيفا .

والذى لا يطمئن اليه القلب في الرواية الثانية ما جاء فيها : (قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويتها فليس لأحد فيها نصيب) فكيف يمكن أن يقول بعض أصحاب رسول الله مثل هذا القول : الغنية لنا لا يشركنا فيها مشارك وكيف يعقل أن يرى الذين جمعوا الغنائم أنهم أحق بالغنائم من الذين انطلقو في أثر العدو يهزمون ويقتلون وكيف يرى أحد من هذين الفريقيين بأنه أحق بالغنية من الذين أخذدوا برسول الله كيلا يصيّب العدو منه غرة مال الواقع أن المتأمل يرى في الرواية فجاجة في الرأي لا تنسب إلى أصحاب رسول الله ولكنها تنسب إلى أحد الرواة الذي أراد أن يروي بالمعنى فاختطاً وعرض القصة على مستوى الذهني .

يقول المفسر جمال الدين القاسمي وقع عند الزعبي أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر، من الحكم فيها للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعا؟ فأجبوا بأن الحاكم فيها

الرسول ، وليس لأحد فيها حكم . وتأثر بالزنخشري أبو السعود ، في سوقه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماده له ، بتطويل ممل .

ولا أدرى من أين سرت لهم هذه الرواية . فإن رواة الآثار لم يخرجوها في صحاحهم ولا سننهم ، بل ولا أصحاب السير ، كابن اسحق وابن هشام . وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ، ويتنازعوا ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتي عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . ولكن هو الرأي (قاتله الله) ونبذ كتب السنة ، والتقليد البحت ، الذي لا يهم صاحبه بحقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ، ولا فحصها بالعقل . يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره ، منقاداً لها ، مصدقاً ما ينطق به فهو غثاً كان أو سمياناً . اللهم نور بصيرتنا بفضلك .

والقاسي يبدأ تفسيره الآية الكريمة بالروايتين السابقتين ولا يعلق عليهما بشيء وقد جاء في الرواية قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويتها وجعلناها فليس لأحد فيها نصيب . ومن عجب أن ينكر القاسي على الزنخشري قوله إن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر من الحكم فيها ويقول هل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ويتنازعوا ولايتها والرسول بين أظهرهم ولا ينكر على ما جاء في الرواية السابقة شيئاً ونحن نستبعد جداً هذا التصوير الذي صورته الرواية السابقة ونذهب كما ذكرنا إلى أن الراوي قد أخطأه التصوير الدقيق والوصف الصادق كما نلاحظ على الرواية التي ذكرها الحاكم الأمور التالية :

١ - اللفظ الذي ذكره الحاكم في المستدرك « كان الناس على ثلاث منازل ثلاث يقاتل العدو وثلاث يجمع المtau ويأخذ الأسرى وثلاث عند الخيمة يحرس رسول الله عليه الصلاة والسلام وهذه الصورة توهم أن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كان ملازم لخيته والرجال محدثون به يخافون أن يصيب القوم منه غرة ولقد جاء في الروايات الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يسوّي الصدوق ببده الشريفة ويعرض المسلمين على القتال ويقول لهم : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والارض ويقول : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل مقبل غير مدبر إلا كانت له الجنة وعند البخاري فخرج وهو يقول سيزم الجموع ويولون الدبر . يقول ابن حجر « وفي رواية أبوب عن عكرمة عن

ابن عباس قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشب في الدروع ويقول سيمز الجماع» وقول علي رضي الله عنه «كنا اذا اشتد البأس واحد الحدق اتقينا برسول الله عليه صلوات الله وسلامه فما يكون رجل اقرب إلى العدو منه».

٢— واللفظ الذي عند الحاكم في المستدرك :

«فأنزعها الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه على السواء لم يكن فيه يومئذ خس فكان فيه تقوى الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وصلاح ذات البين» قوله لم يكن فيه يومئذ خس يعارض ما جاء في مسلم يقول ابن كثير: وفيما تقدم من كلامه (كلام أبي عبيد الله القاسم بن سلام) وهو قوله ان غناهم بدر لم تخمس نظر ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفه اللذين حصلوا له من الخمس يوم بدر.

٣— قوله : فقسمه على السواء فيه نظر أيضاً في الرواية الثانية (عن فواد) وما تفسيران ذكرهما ابن الأثير وصاحب لسان العرب قال في اللسان عن فواد أن قسمها في قدر فوق ناقة وهو قدر ما بين الخلبيتين من الراحة تضم فاؤه وتفتح وقيل أراد التفضيل في القسمة كأنه جعل بعضهم فوق من بعض على قدر غناهم يومئذ .

الرواية الراجحة في نظرنا :

وللحالكم في مستدركه والنثائي وابن جرير وابن مردوه من طرق وأبي داود واسناد أبي داود^(١) حدثنا وهب بن بقية قال أنا خالد عن داود عن عكرمة عن ابن عباس واسناد الحاكم حدثنا أبو بكر أحد بن اسحاق ثنا أبو المثنى ثنا مسدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت داود بن أبي هند يحدث عن عكرمة عن ابن عباس قال : «لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيخ تحت الرياحات فلما كانت المغامم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم فقال الشيخ لا تستأثروا علينا فانا كنا رداء لكم لو انكشفتم لفتحت اليانا فتزاعوا فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الأنفال إلى قوله واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) .

هذه الرواية ترجع على الرواية السابقة لنقاء سندتها وخلورجاله من كل مطعن فرجال أبي داود أو هم وهب بن بقية ويقول عنه ابن حجر ثقة من العاشرة وهو من رجال

(١) ج ٢ ص ١٠٢

مسلم وابي داود والنسائي ، مات سنة ٢٣٩ وثانيهم خالد وهو خالد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن يزيد الطحان الواسطي قال بشأنه عبد الله بن أحمد بن حنبل كان خالد الطحان ثقة وقال ابو حاتم ثقة صحيح الحديث (مات سنة اثنين وثمانين ومائة وكان مولده سنة عشر ومائة) وهو من رجال الكتب الستة وداود ابن أبي هند القشيري البصري يقول عنه ابن حجر ثقة متقن (كان بهم بآخره من الخامسة مات سنة اربعين ومائة) وروى عنه البخاري تعليقا وروى عنه مسلم وأصحاب الكتب الأربع وقد قال عبد الله بن احمد بن حنبل عن أبيه هو ثقة ثقة وسئل عنه مرة أخرى فقال مثل داود يسأل عنه وعكرمة ابن عبد الله مولى ابن عباس أصله بربرى ثقة ثبت عالم بالتفسir (لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ولا يثبت عنه بدعة) روى له أصحاب الكتب الستة ورجال الحاكم مسدد بن فرهيد ثقة حافظ روى له البخاري ومسلم وابو داود والنسائي والمعتمر بن سليمان ثقة روى له أصحاب الكتب الستة جيعا .

وهذا الحديث صحيح كما قال الحاكم وكما قال الذهبي وابن سناه على شرط البخاري وابن سناه ابى داود نقي حال من الشوائب أيضا وعلى هذا فالحديث على غایة من الصحة . ثم إن المضورة التي تعطيها هذه الرواية للخلاف الذى وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم لا مطعن عليها إذ ذكر الرواية أن الرسول عليه صلوات الله دفع الشبان إلى الاقدام وقال من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا وعند الحاكم من فعل كذا وكذا أو أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا وهذا دفع للشبان معقول مأثور يجدون فيه منطلقا لطاقتهم ومجالا للتعبير عن الحيوية التي تشتمل عليها أجسامهم الفتية القوية والأريحية التي تؤججها حماسة الشباب في نفوسهم .

بل إن إهمال الشبان في مثل هذه المواطن وعدم الاستفادة من قوتهم ورشاقتهم واستعدادهم للمغامرة يفوت غرضين أولهما فردي والثانى جماعي ويضيع فرصتين هامتين أولهما الانتفاع بما وهب الشباب مما يعود على غرض القتال نفسه ، فقد يكون سببا للنصر إقدام شاب كان يقترب من جيش العدو ويكشف ثغرة من التغارات لديهم أو يقترب فينسف حصنا أو بارجة حربية ، وما تزال هذه الروح في الحروب الحديثة لها مكانتها وأثرها في إحراز النصر ، والثانية الدرية التي يكسبها هؤلاء في أعمالهم هذه وروح

المغامرة التي تنمو لديهم في سبيل نصرة جيشهم .

والمؤلم إسلاماً شديداً أن هذه الروح في هذه الأيام قد انتقلت إلى أعدائنا وضمرت ضموراً شديداً في أبناء المسلمين .

وهذا المعنى هو الذي أيقظه محمد عليه الصلاة والسلام في نفوس شبان الصحابة ، دفعهم صلوات الله وسلامه عليه إلى المغامرة وإلى القيام بأعمال قد تكون سبباً للفوز والغلبة وليس من شك بأن مثل هذه الأعمال يجب أن تكافأ ، ولا بد من أن يشعر الفدائي بأنه قد حاز رضا القائد وإعجابه وكانت علامه الرضا ما منحهم القائد عليه صلوات الله من زيادات ليست لأحد غيرهم ، إن الزيادة هنا ليست ذات قيمة مادية فحسب ولكنها لها معنى أكبر من قيمتها المادية فالسيف الذي أخذه سعد بإذن رسول الله عليه صلوات الله ليس سيفاً فحسب ولكنه سيف له تاريخه وله ما يحيط به من معان .

إن الرواية تجمل ذكر الأفعال التي قام بها الشبان ولا تذكر تفصيلاً لها ويمكن أن يقدر الذهن نوع تلك الأعمال وخطرها في فوز الجيش الإسلامي أنها لم تكن أموراً اعتباطية ولا قيمة لها ولكنها كانت من وضع القائد الحكيم عليه صلوات الله واكتفى الرواة بأن يقولوا من فعل كذا وكذا أو أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا وإنني لأقدر أنها كانت أعمالاً لها وزنها ولها ثقلها وربما كانت عاملاً هاماً من عوامل النصر .

وتقول الرواية فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات والرواية على إجماعها تتحدث عن طبيعة الشبان وطبيعة الشيوخ طبيعة الشبان الحفنة والنفرة والإسراع وطبيعة الشيوخ التثاقل والثبات وقد قام كل بواجبه .

ثم كان التنافس بين الشيوخ والشبان وهو أمر من واقع الحياة أن ينفس الشيوخ على الشبان بما وعدهم رسول الله صلوات الله عليه جزاءً على مقدرتهم الفائقة على الإقدام على أمور يعجز عنها الشيوخ وهنالك رواية يذكرها ابن كثير يأتي فيها على ذكر سعد بن عبادة أنه قال : يا رسول الله إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنك لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليه مخافة أن يأتوك من ورائهم فتشاجروا وتزل القرآن .

لعل الذي نفس على الشبان بكافأتهم هو سعد بن عبادة رضي الله عنه وحده ولعل معه ثان وثالث ولعل مناقشة هادئة وقعت بين اثنين أحدهما يمثل الشیوخ وأخر يمثل الشبان أما ما تصوره الروایة الأولى من أن الأصحاب رضوان الله عليهم انقسموا إلى ثلاثة فرق فذلك ما يأبه الفهم الصحيح والذوق السليم .

لقد كان الشبان على حق في مطالبتهم بما وعدهم رسول الله عليه صلوات الله ولا تشریب عليهم في أن يدرکوا ثمرة ما قدموا من جهد فائق لا يقوى عليه كثيرون ولعل دافعهم المعنى قبل المادة كما ذكرنا للشیوخ بعض العذر في طلبهم المساواة بالشبان فلقد كانوا الردء وكانوا الذين حوا ظهور الشبان وفي مثل هذه الحالة يحق للذين حوا الظهر أن يكونوا شركاء في الغنیمة .

قال صاحب كتاب عن العبود عند شرح الروایة التي جاء فيها (قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواء) : «فيه دليل على أنه اذا انفردت من الجيش قطعة ففنت شيئاً كانت الغنیمة للجميع قال ابن عبد البر لا يختلف الفقهاء في ذلك إذا خرج الجيش جميعه ثم انفردت منه قطعة» . انتهى قول ابن عبد البر ، وليس المراد الجيش القاعد في بلاد الاسلام فإنه لا يشارك الجيش الخارج إلى بلاد العدو . وقال ابن دقيق العيد إن المنقطع عن الجيش الذي فيه الإمام ينفرد بما يقتمه قال وإنما قالوا هو بمشاركة الجيش لم إذا كانوا قرابة منهم يلحقهم عونهم وغوثهم لواحتاجوا .

ولما ذكرنا هذا لنخلص منه إلى أن للشیوخ بعض العذر فيها قالوا (كنا رداء لكم لو انهزمتم لفتحكم إلينا) .

والحق أن الموقف مختلف والأعمال الفدائیة تتفاوت فقد يكون في بعضها ما يقوم به الفدائی وحده لا يجدي في عمله معونة من وراءه كمن يدخل منفردا في جيش العدو وليس من شك في أن من يقوم بعمل كهذا يستحق أن ينفرد بزية لا يشاركه فيها غيره . وهنا نقول إن الرسول الحکیم وضع الأمر موضعه وأعطى كل ذي حق حقه ، وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الشرائح جنحوا إلى تفسير قول الراوی على فوق إلى التفضيل في القسمة فجعل بعضهم أفق من بعض على قدر غناائهم وبلائهم . قال صاحب عنون العبود (لإيقاء الوعد وهذا أقرب) وهذا الذي نجده إلى الحق أن يفي عليه الصلاة والسلام بما وعد .

هذه هي الخصومة التي وقعت بين بعض أفراد الصحابة في غزوة بدر وما ذكرنا يوضح أنها كانت تمثل وجهات في النظر ليس فيها مجازفة للحق ولكنها أمر يمكن أن يقع ومع ذلك فإن الآيات الكريمة لم ترض بشيء من النزاع بين الأصحاب وإن تضليل أمر وتنزيله لترفع هذه النفوس إلى مكانها ولتعيد إليها سكينتها ، لتعيد إليها الطمأنينة بإيمانها والرضا بما يقسم لها من غير جشع ولا طمع فلتنتزع هذه النفوس عن التفكير بقسمة الغنائم ولتدفع أمر ذلك إلى الله ربها ورسوله نبئها ، ولتعلم أن ذلك هو الذي يورث الخصومة وينبت الشقاوة في جماعتها فلتتذرذل ذلك ولتحرص تلك النفوس على وحدة الكلمة وصلاح ذات البين فليس شيء أشد خطرا على الجماعة من نزاع أفرادها ووقوع التناحر بينهم ، وهذه الجماعة شأن كبير، ستصل راياتها بعد قليل إلى أقصى المسافات في مشارق الدنيا ومغاربها .

وليس من شك أن الرسول الحكيم عليه صلوات الله قد أنهى الخصومة بأسرع حين وقسم الغنائم بأسرع وقت ورضي كل بنصيبيه وخرج المسلمين من هذه المعركة العاتمة البسيطة معركة التنازع فيها بينهم إخواناً متحابين .

يروي أبو داود في سنته عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم بدر في ثلثمائة وخمسة عشر ف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم اللهم إنهم عراة فاكسهم اللهم إنهم جياع فأشبعهم ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجميل أو جلين واكتسوا وشبعوا .

خلاصة القول في الروايات .

يتلخص مما سبق أن بعض الروايات التي ذكرنا فيها سبب نزول الآية الكريمة تذكر خصومة وبعضها تبالغ في ذكر الخصومة وبعضها لا تذكر خصومة أبداً .

فرواية أبي داود جاء فيها ما يلي :

« فلما فتح الله عليهم قالت المشيخة كنا رداء لكم لو انهزمتم فشم علينا فلا تذهبوا بالغمغنة ونبيقى فأبى الفتى و قالوا جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا فأنزل الله تعالى يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول إلى قوله تعالى كما أخرجك ربك » .

وهكذا لم تزد الرواية على ذكر إباء الفتى .

ورواية الحاكم لا تذكر خصومة ولا اباء ولفظها كما يلي: «فَلِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جَاءَ الْشَّبَانَ يَطْلَبُونَ مَا جَعَلَ لَهُمْ وَقَالَ الشَّيْخُ أَنَا كَنَا رَدِئًا لَكُمْ وَكَنَا تَحْتَ الرَّايَاتِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَسْأَلُنَّكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ الْآيَةِ».

وقد تبين مما سبق ان هاتين الروايتين هما اعدل الروايات واقربها الى تصوير الواقع وقد رأينا أن رجال الروايتين من رجال الطبقة الأولى.

واما رواية احمد والترمذى فقد جاء فيها قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويتناها وجعلناها فليس لأحد فيها نصيب والرواية الثانية تحمل فتقول : فيما اصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساعت فيه اخلاقنا فنزعته الله من ايدينا فجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء .

وقد ذكرنا بشأن هاتين الروايتين ما ذكرنا .

اما الآية الكريمة فتمس الموضوع مسا رقيقا ولا تزيد ان تصف الذي وقع كله بأكثر من سؤال توجه به المسلمون الى رسول الله عليه صلوات الله ، وليس في السؤال حرج وليس فيه كبير لهم ، نعم قد يلجم المتخاصمان الى السؤال لفك النزاع وانهاء الخصم وما في هذا يحمدان لأنّه نوع من التحكيم وطن فيه كل جانب من المتخاصمين نفسه على الرضا بقبول الحكم فالقضية كما عرضها القرآن الكريم سؤال أقصى ما يكون فيه أنه أريد به فض النزاع وانهاء الجدال وهو خير كل الخير ولا يمكن أن تتصور أن الخصومة التي وقعت خصومة عنيفة ولكنها كما ذكرنا لا تزيد عنها صورته رواية أبي داود ولو كانت اعنف من ذلك لما فات الآيات القرآنية ذكر ذلك والتعليق عليه فقد عودتنا الآيات الكريمة ان ترعى هذه النفوس رعاية تامة فلا تدع دقائق الأمور تمر دون ذكرها والتنبيه اليها .

كان ما وقع بين المسلمين من خلاف مصوراً في القرآن الكريم بسؤال ولكنه وإن كان سؤالاً فقد وقع في الجو الذي امتنج فيه وهي السماء والإمداد بالملائكة بالاستغاثة والخوف وتم النصر وبلغت النفوس أوجها من الإيمان ، في مثل هذا الجو ما كان ينبغي أن يكون سؤال عن الأموال ولا نزاع ولو كان يسيراً في موضوع الأنفال ولذلك كانت التربية حازمة واللقتات قوية والمعاني التي طلبت إلى الفتنة القليلة في منتهى السمو .

«قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين انا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم اذا تلية عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى رهنهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ». .

انها دفعة قوية جدا الى الصعود الى مراتب سامية جدا .

لقد لست فريقا من المسلمين لسة خفيفة من معاني الحرص على الجمع ذلك المعنى الغريزي لدى كل انسان فكانت الآيات الكريمة في مواطن الغيرة على هذه التغافل أن تصيبها مثل هذه اللمسة فاثابت بها تنتزعها وتتصعد بها إلى جو ساق عال رفيع يتنزه عن الدنيا وكل مافيها .

لقد اخذنا برواية ابن عباس الواردة لدى ابي داود والحاكم في سبب نزول الآية الكريمة والسؤال الذي يرد بعد هذا انا قدمنا في اول الموضوع رواية مسلم وفيها قصة سعد رضي الله عنه والسيف الذي رغب ان يكون له خاصة دون غيره وقد جاء في تلك الرواية ان الآية نزلت في سعد رضي الله عنه كما نزلت فيه آيات اخرى .

فكيف يمكن الجمع بين الروايتين: رواية ابي داود تذكر ان السبب في نزول الآية طلب الشیوخ الا يستأثر الشبان بالغنيمة وإباء هؤلاء ورواية مسلم تذكر ان السبب في نزول الآية طلب سعد السيف من رسول الله وامتناعه عليه الصلاة والسلام من اعطائه ايام حتى نزلت الآية .

والجواب الذي نأخذ به في مثل هذا التعارض ما قاله ابن تيمية رحمه الله (١) .

قال ابن تيمية رحمه الله :

قولهم انزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة ان تلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما نقول عنى بهذه الآية كذا .

وقال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتبعين ان احدهم اذا قال نزلت هذه الآية في كذا ، فإنه يريد بذلك انها تتضمن هذا الحكم لا ان هذا كان

(١) : انظر تفسير القاسمي ج ١ ص ٢٦ .

السبب في نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع أ. هـ .

وهكذا نرجح أن سياق الآيات الكريمة في جانب الرواية التي ذكرت ما وقع بين الشيوخ والشبان وطلب سعد للسيف قد وقع في غزوة بدر وقوله رضي الله عنه إن الآية الكريمة نزلت في شأنه يعني انه داخل في حكمها وليس يستبعد ان تكون الآيات الكريمة قد نزلت أصلًا لمشكلة الخلاف ولمشكلاً آخر كطلب سعد رضي الله عنه والله الموفق للصواب .

هل الآية منسوخة

أ— القائلون بأنها منسوخة .

ب— ما الذي دعا الى القول بالنسخ .

ج— القائلون بأنها عامة .

د— القول الذي نرجحه .

أ— القول بأنها منسوخة :
يقول القرطبي : (١) .

هذه الآية (يعني قوله تعالى : «واعلموا ان ماغنمتم») ناسخة لأول السورة عند الجمهور . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على ان هذه الآية نزلت بعد قوله يسألونك عن الأنفال ، وان قوله يسألونك عن الأنفال نزلت في حين تاجر اهل بدر في غنائم بدر على ما تقدم اول السورة قلت (القرطبي) وما يدل على صحة هذا ما ذكره اسماعيل بن اسحاق ويذكر سنته الى ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم «من قتل قتيلاً فله كذا ومن اسر أسيرًا فله كذا ، وكانوا قتلوا سبعين واسروا سبعين فجاء ابواليسير بن عمرو وأسير بن فقال يا رسول الله انك وعدتنا من قتل قتيلاً فله كذا وقد جئت بأسيرين فقام سعد فقال يا رسول الله إنما لم يعننا زهادة في الاجر ولا جبن عن العدو ولكننا قمنا هذا المقام خشية ان يعطف المشركون فإنك إنْ تعط هؤلاء فلا يبقى لاصحابك شيء قال وجعل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فنزلت «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول» فسلموا الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نزلت

(١) ٤٢:

«واعلموا انما غنمتم من شيء فلان لله خمسه».^(١)

وقال ابن جرير:^(٢)

واختلفوا فيها : أمنسخة هي ام غير منسخة ؟ فقال بعضهم هي منسخة وقالوا نسخها قوله «واعلموا ان ما غنمتم من شيء فلان لله خمسه ولرسول» وروى ابن جرير بسنده القول بالنسخ عن مجاهد وعكرمة والسدوي .

قال الشيخ الشنقطي حفظه الله :^(٣)

«قال مقيده عفا الله عنه : جمهور العلماء على ان الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها » ويشير الى الروايات التي ذكرت الخلاف بين الأصحاب رضوان الله عليهم ثم يقول : « وعلى هذا القول الذى هو قول الجمهور ، فالآية مشكلة مع قوله تعالى واعلموا ان ما غنمتم من شيء الآية » .

واظهر الأقوال التي يزول بها الإشكال في الآية هو ما ذكره ابو عبيد ونسبة القرطبي في تفسيره لجمهور العلماء ان قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم » . ناسخ لقوله « يسألونك عن الأنفال » ولا يشير الاستاذ الى وجہ الإشكال ولعل الإشكال ماجاء في الرواية كما ذكرنا « فسلمو الغنيمة الى رسول الله » اى انهم فهموا من الآية أن الغنيمة أصبحت ملكاً لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه يتصرف بها كيف يشاء ، ثم نسخ هذا الحكم بقوله تعالى « واعلموا أن ما غنمتم »

يدل على ذلك قوله :^(٤) فالحاصل ان آية « واعلموا ان ما غنمتم » بينت ان ليس المراد قصر الغنائم على الرسول المذكور في أول السورة .

(١) : النسخ هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي ويدركون لوقع النسخ شرطها اربعة اولها وجود التعارض بين الحكمين تعارضاً حقيقياً بحيث لا يمكن الجمع بينها واعمالهما معاً والثاني كون الناسخ هو الله جل شأنه فلا بد من دليل شرعي يثبت معه النسخ والثالث ان المنسوخ لا بد وان يكون حكماً شرعياً والرابع أنه لا بد ان يكون الناسخ متراخيأً في الزمن عن المنسوخ غير متصل به كاتصال القيد بالقيد . وهذا على قول القائلين ان الغنيمة سلمت لرسول الله ليتصرف بها بما يشاء ذلك معنى قوله الأنفال لله في رأيه تم هذه الشروط .

(٢) : ٣٨٠ . ١٣ . (٣) : ٣٤٥ . ٢ . (٤) : ٣٤٦ . ٢

والأستاذ الشنقيطي يرى ان قوله تعالى «واعلموا ان ما غنمتم» نزل قبل قسمة الغنائم وقد خمست الغنائم بدليل ما ثبت في صحيح مسلم من حديث علي بن ابي طالب رضي الله عنه «كان لي شارف من نصبي من المغنم» ومؤدي هذا إلى أن الزمن الذي سلمت الغنائم فيه الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وأذن له بالتصرف فيها كان بين نزول الآيتين الكريمتين : (يسألونك عن الأنفال) ، (واعلموا أن ما غنمتم) وكان نزولهما قبل قسمة الغنائم فالزمن بينها قصير جدا.

ب - ما الذي دعا الى القول بالنسخ ؟

يبدو ان الذي دعا الى القول بالنسخ امران او هم الروايات التي ذكرت ان الأصحاب سلموا الغنيمة لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه وهذا ما اشار اليه القرطبي والثاني تفسير الانفال بالغنائم كلها وقوله تعالى : «للله وللرسول» أي ملك للرسول يتصرف بها كما يشاء .

وقد حمل هذا الفهم كثيرين على القول بالنسخ للتخلص من التعارض بين الآية الأولى حين تفهم هذا الفهم وبين قوله تعالى واعلموا ان ما غنمتم لا سيما وقد استخلص في ان الغنائم للرسول عليه صلوات الله وسلامه وليس قسمها بين الغائبين بواجب .

قال القرطبي (١) : وقد قيل : انها محكمة غير منسوبة وان الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس مقسمة بين الغائبين ، وكذلك لم ينبع ذلك من الأئمة .

كذا حكاه المازري عن كثير من اصحابنا رضي الله عنهم ، وأن للامام ان يخرجها عنهم .

واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين ، وكان ابو عبيدة يقول : افتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة ومن على اهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم شيئا ، ورأى بعض الناس ان هذا جائز للامامة بعده .

قللت (القرطبي) وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى «واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان الله خمسه» والأربعة اخاس للامام ان شاء حبسها وان شاء قسمها بين الغائبين وهذا

(١) ٢ / ٨ .

ليس بشيء لما ذكرنا ولأن الله سبحانه اضاف الغنيمة للغافمين فقال «واعلموا ان ما غبنتم من شيء» ثم عين الخمس لمن سمي في كتابه ، وسكت عن اربعة الأخاس ، كما سكت عن الثثنين في قوله : وورثه أبواه فلأمه الثالث فكان للأب الثالثان اتفاقاً وكذا الأربعة الأخاس للغافمين وإجماعاً ، على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والداودي والمازري ايضاً والقاضي عياض وابن العربي . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة، وسيأتي بعضها . ويكون معنى قوله «يسألونك عن الأنفال» ما يتفله الإمام لمن شاء ولما يراه من المصلحة قبل القسمة^(١) .

وقال الشيخ الشنقيطي حفظه الله^(٢) : «جاحير علماء المسلمين على أن أربعة أخاس الغنيمة للفقراء الذين غنموها ، وليس للأمام أن يجعل تلك الغنيمة لغيرهم ...» . وخالف في ذلك بعض أهل العلم وهو قول كثير من المالكية ونقله عنهم المازري رحمه الله ايضاً قالوا للأمام أن يصرف الغنيمة فيها يشاء من مصالح المسلمين ومنع منها الغزاة الغافمين .

واحتاجوا لذلك بأدلة منها قوله تعالى «يسألونك عن الأنفال ...» قالوا الأنفال الغنائم كلها والآية حكمة لا منسوخة .

واحتاجوا لذلك ايضاً بما وقع في فتح مكة وقصة حنين قالوا : انه صلى الله عليه وسلم فتح مكة عنوة بعشرة آلاف مقاتل ومن على اهلها فردها عليهم ولم يجعلها غنيمة ولم يقسمها على الجيش ، فلو كان قسم الأخاس الأربعة على الجيش واجباً لفعله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة . قالوا وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين اعطي منها عطايا عظيمة جداً ولم يعط الأنصار منها مع انهم من خيار المجاهدين الغازين معه صلى الله عليه وسلم ..» .

يقول الشيخ الشنقيطي حفظه الله : «وأجيب من جهة الجمورو عن هذه الاحتجاجات : فالجواب عن آية «يسألونك عن

(١) : فسر القرطبي الآية الكريمة في مطلع السورة (٣٦١ / ٧) بقوله «إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ الْحُكْمُ فِيهَا وَالْعَمَلُ بِهَا يَقْرُبُ مِنْ لَهُنَّ تَعَالَى» وهذا التفسير هو الأرجح في رأينا .

(٢) : ٢/٣٥٤ .

الأطفال» هو ما قدمنا من أنها منسوحة بقوله «واعلموا ان ما غنمتم ..» ونسبة القرطبي لجمهور العلماء والجواب عما وقع في فتح مكة ان مكة ليست كغيرها من البلاد لأنها حرام بحرمة الله من يوم خلق السماوات والأرض الى يوم القيمة وانما احلت له صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده ، وما كان بهذه المثابة فليس كغيره من البلاد التي ليست لها هذه الحرمة العظيمة .

واما ما وقع في قصة حنين فالجواب عنه ظاهر ، وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم استطاب نفوس الغزاة عن الغنية ليؤلف بها قلوب المؤلفة قلوبهم لأجل المصلحة العامة للإسلام وال المسلمين ومن جملة ما قال لهم عليه الصلاة والسلام : « الا ترثون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشأة والبعير وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى رحالكم ، الى آخر كلامه فرضي القوم وطابت نفوسهم وقالوا رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظا وهذا ثابت في الصحيح^(١) .

ج - القائلون بأن الآية حكمة مجملة .

قال ابن جرير الطبرى^(٢) وقال آخرون هي حكمة وليس منسوحة وإنما معنى ذلك : « قل الأطفال الله » وهي لا شك الله مع الدنيا بما فيها والآخرة - وللنرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيه » .

وقال صاحب الفتوحات الإلهي في شرحه على تفسير الجلالين :^(٣) .

« قوله الله والرسول » هذا فيه نوع إجمال بينه ما سبأتهي في قوله واعلموا أن ما غنمتم من شيء الآية فهذه الآية حكمة على التحقيق لا منسوحة غاية الأمر أنها مبينة بما يأتي أهـ . فعلى هذا معنى قوله الله والرسول أنها لها من حيث القسمة وليس المراد أنها للرسول من حيث الاستقلال بالملك وعبارة أبي السعود قل الأطفال الله والرسول أي حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير ان يدخل فيه رأي احد

(١) : يقول القرطبي هنا « وليس لغيره ان يقول هذا القول ، مع ان ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا والله اعلم » .

(٢) : ١٣ / ٣٨١ .

(٣) : ٢ / ٢٢٥ .

أهـ . والقول بأنها منسوبة مبني على أن المراد من قوله هنا الله والرسول أن الرسول يختص بملكها يتصرف فيها كيف يشاء» .

وقال السيد رشيد رضا في تفسيره :

«قل الأنفال لله والرسول أي قل لهم الأنفال الله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها صلى الله عليه وسلم بالسواء وهذا لا ينافي التفصيل الذي سيأتي في قوله تعالى واعلموا أن ما غنمتم ... فيكون التفصيل ناسخا للإجال كما قال مجاهد وعكرمة والسدي فالصواب قول ابن زيد ان الآية عكلة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس .

وقال الدكتور مصطفى زيد : ^(١) .

والصحيح أن الآية الأولى أجلت الجواب عن سؤالم فقلت الأنفال لله والرسول معنى حكم الأنفال الله يحكم فيها بما يشاء ويقسمها الرسول على ما حكم به الله ثم جاءت الآية الثانية ففصلت هذا الإجمال .

قول ابن جرير الطبرى :

قال أبو جعفر : ^(٢) والصواب من القول في ذلك أن الله جل ثناؤه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه صلى الله عليه وسلم ينفل من شاء فنفل القاتل السلب وجعل للجيش في البداية الرابع وفي الرجعة الثالث بعد الخمس ونفل قوما بعد سهمائهم بغيرا في بعض المغازي فجعل الله تعالى ذكره حكم الأنفال إلىنبيه صلى الله عليه وسلم ينفل على ما يرى مما فيه صلاح المسلمين وعلى من بعده من الأئمة أن يستثنوا لستنه في ذلك .

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ لا حتا لها مما ذكرت من المعنى الذي وصفت . وغير جائز أن يحکم قد نزل به القرآن أنه منسوخ بمحة يجب التسليم لها ، فقد دللتنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادث حكم بخلافه ينفيه من كل معانيه ، أو يأتي خبر يوجب الحجة أن أحد هما ناسخ الآخر» .

(١) النسخ في القرآن الكريم ٦١٨ / ٢ .

(٢) ٣٨١ / ١٣ .

ولقد فسر هذا ابن جرير الأنفال بالز يادات التي يز يدها الإمام بعض الجيش وهو المعنى الذي اختاره في معنى الأنفال .

— الخلاصة :

والذى نرجحه أن الأنفال هي الغنائم وأن الآية محكمة بجملة جاء بيانها وتفصيلها في الآية الثانية وهي قوله تعالى : واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن الله خمسه .

متى شرع الخمس ؟ أخسست غنائم بدر ؟

جاء في كتاب فرض الخمس عند البخاري (١) أن عليا قال « كانت لي شارف من نصبي من المغنم يوم بدر وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفا من الخمس ». وقال ابن حجر في شرح الحديث : « قال ابن بطال : ظاهره أن الخمس شرع يوم بدر ولم يختلف أهل السير أن الخمس لم يكن يوم بدر، وقد ذكر اسماعيل القاضي في غزوة بني قريظة أنه أول يوم فرض فيه الخمس . قال وقيل نزل بعد ذلك قال ولم يأت فيه بيان شاف وإنما جاء صريحا في غنائم حنين . قال ابن بطال : إذا كان ذلك فيحتاج قول علي ما إلى تأويل . قال ويعکن أن يكون ما ذكر ابن اسحاق في سرية عبد الله بن جحش التي كانت في رجب قبل بدر بشهرين ، وإن ابن اسحاق قال : ذكر لي بعض آل جحش أن عبد الله قال لأصحابه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمنا الخمس وذلك قبل أن يفرض الله الخمس ، فعزل له الخمس وقسم سائر الغنيمة بين أصحابه قال فوق رضا الله بذلك قال فيحمل قول علي « وكان قد أعطاني شارفا من الخمس » أي من الذي حصل من سرية عبد الله بن جحش .

قلت (ابن حجر) ويعکر عليه أن في الرواية الآتية في المغازي « وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ » والعجب أن ابن بطال عزا هذه الرواية لأبي داود وجعلها شاهدة لما تأوله وغفل عن كونها في البخاري الذي شرحه وعن كون ظاهرها شاهدا عليه لا له ، ولم أقف على ما نقله عن السير صريحا في أنه لم يكن في غنائم بدر خمس . والعجب أن يثبت في غنيمة السرية التي قبل بدر الخمس ويقول إن الله رضي بذلك وينفيه في يوم بدر مع أن الأنفال التي فيها التصریع

(١) : فتح الباري ٦ / ١٩٦

بفرض الخامس نزل غالباً في قصة بدر وقد جزم الداودي الشارح بأن آية الخامس نزلت يوم بدر. وقال السبكي نزلت الأنفال في بدر وغناهمها . والذى يظهر أن آية قسمة الغنيمة نزلت بعد تفرقة الغنائم لأن أهل السير نقلوا انه قسمها على السواء واعطاها من شهد الموقعة أو غاب لعدرتكم منه لأن الغنيمة كانت اولاً بنص سورة الأنفال للنبي صلى الله عليه وسلم قال : ولكن يعكر على ما قال أهل السير حديث علي يعني حديث الباب حيث قال . وأعطاني شارفاً من الخامس يومئذ فإنه ظاهر في أنه كان فيها خمس » .

قلت (ابن حجر) ويحتمل أن تكون قسمة غنائم بدر على السواء بعد أن أخرج الخامس للنبي صلى الله عليه وسلم على ما تقدم من سرية عبد الله بن جحش وأفادت آية الأنفال وهي قوله تعالى (واعلموا ان ما غنمتم) الى آخرها بيان مصرف الخامس لا مشروعيه أصل الخامس والله أعلم وأما ما نقله عن أهل السير فأخرجه ابن اسحاق بأسناد حسن يحتاج بهاته عن عبادة بن الصامت قال «فلا اختلافنا في الغنيمة وساعت أخلاقنا انتزعها الله منها فجعلها لرسوله فقسمها على الناس عن سوء» أي على سوء ساقه مطولاً وأخرجه أحمد والحاكم من طريقه وصححه ابن حيان من وجه ليس فيه ابن اسحاق » .

وهكذا يرى ابن بطال أن الغنائم في بدر لم تخمس ليسايراً في ذلك ما نقله عن أصحاب السير «ان الخامس لم يكن يوم بدر» وهو يرى أن سرية عبد الله بن جحش التي سبقت بدرها بشهرين خمست غنائمها ، وهذا يعجب ابن حجر لصنيعه هذا يثبت الخامس في غنمية السرية التي قبل بدر وينفيه فيها ، وينفي ابن حجر أن يكون ما نقله ابن بطال عن أهل السير صريحاً في أنه لم يكن في غنائم بدر خمس .

ويرى ابن حجر سبيلاً آخرى للتوفيق هي أن غنائم بدر خمست على ما تقدم في سرية عبد الله بن جحش وأن نزول الآية الكريمة لم يكن لبيان الحكم بل لبيان مصارف الخامس .

وخبر تخميس غنائم سرية عبد الله بن جحش يرويه ابن إسحاق عن الزهري ويزيد ابن رومان عن عروة قال وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمتم الخامس وذلك قبل أن يفرض الله من الغنائم الخامس فعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس الغنيمة وقسم سائرها

بين أصحابه وقال ابن القيم^(١): «قد عزلوا من ذلك الخمس وهو أول خمس كان في الإسلام».

والذى يبدو أن الآية الكريمة نزلت يوم بدر كما ذهب إلى ذلك كثيرون سواء كان نزولها لإنشاء الحكم أم لتوسيعه وبيان مصارف الخمس من الغنائم والراجح أن غنائم بدر قد خست تبعاً لما جاء في رواية البخاري.

هل النفل من أصل الغنيمة؟

قال الشوكاني^(٢): «وقد اختلف العلماء هل هو (يعنى النفل) من أصل الغنيمة أو من الخمس أو من خمس الخمس أو ما عدا الخمس على أقوال ، واختلفت الرواية عن الشافعى في ذلك فروى عنه أنه من أصل الغنيمة وروى عنه أنه من الخمس وروى عنه أنه من خمس الخمس والأصح عند الشافعية أنه من خمس الخمس .

وقال الأوزاعي^(٣) وأحمد وأبو ثور وغيرهم النفل من أصل الغنيمة وإلى ذلك ذهبت المادية^(٤).

وقال مالك وطائفة لا نفل إلا من الخمس .

قال الخطابي أكثر ما روى من الأخبار يدل على أن النفل من أصل الغنيمة».

وجاء في كتاب الروض النصير^(٥):

قال علي عليه السلام « وإنما النفل قبل الغنيمة ، ولا نفل بعد الغنيمة ».

وقال الشارح^(٦) : « قوله : إنما النفل قبل الغنيمة أي قبل تسميتها وهو المختار

(١) : نيل الأوطار ٢٧٤ / ٧.

(٢) : جاء هذا النفل إلى آخر قول الخطابي في الفتح ٢٤ / ٦.

(٣) : قال أبو عبيدة في كتاب الأموال (٣٢٠) : وأما الأوزاعي فان المعروف من رأيه انه كان لا يرى النفل من الخمس ويقول إنما الخمس للاصناف التي سمي الله تبارك وتعالى في كتابه قال أبو عبيدة وما يقوى قوله الأوزاعي حديث عمر (في سواد العراق) قال أبو عبيدة (واما عظم الآثار والسنن فعلى ان الخمس مفوض الى الامام ينفل منه من شاء).

(٤) : ٤ / ٦٤٨.

(٥) : المصدر السابق ٤ / ٦٥٠.

لذهب الهدية ، وقال به الحسن البصري والأوزاعي وأحمد وابو ثور وآخرون .

قال الخطابي (١) : أكثر ما روي من الأخبار في هذا الباب يدل على أن التنفيل من أصل الغنيمة ويؤيد هذه رواه محمد بن اسحاق عن نافع عن ابن عمر قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى نجد ، فخرجت معها فأصبنا نعا كثيرا فنفلنا أميرنا بعيرا بكل إنسان ثم قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسم بيننا غنيمتنا فأصحاب كل رجل منا اثنى عشر بعيرا بعد الخمس ، وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى أعطانا أميرنا ولا عاب عليه ما صنع فكان لكل رجل منا ثلاثة عشر بعيرا ينفله فهو نص صريح على أن التنفيل كان من رأس الغنيمة وكذلك حديث حبيب بن مسلمة المتقدم وظاهره أنه كان ينفل بعد إخراج الخمس أي ينفل من أربعة اخواس ما يأتون به (٢) .

وذهب مالك وأبو حنيفة ، وهو قول سعيد بن المسيب وهو المختار عند اصحاب الشافعى أنه ينفل من خمس الخمس (٣) واحتجوا بما أخرجه مسلم عن ابن عمر قال نفلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى نصيبينا من الخمس . فأصابني شارف (٤) ، ولما

(١) : حد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستي ابو سليمان فقيه محدث من اهل بستان (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (اخي عمر بن الخطاب) له معالم السنن في شرع سنن أبي داود وكتب أخرى (٣١٤ - ٣٨٨) .

(٢) : قال الخطابي في معالم السنن ٥٥ / ١٤ « وقال غيرهم كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفلهم من الغنيمة التي يغنمونها كما نفل القاتل السلب من جلة الغنيمة « قال الخطابي » وعلى هذا دل أكثر ما روی من الأخبار في هذا الباب ، وبعد ذكر حديث ابن عمر يقول « قلت : أفي هذا بيان واضح ان النفل ائما اعطاهم اياهم من جلة الغنيمة لا من الخمس الذي هو سهمه ونصيبه » وبعد الحديث الذي جاء انه عليه الصلاة والسلام ينفل الثالث بعد الخمس قال : « فيشب والله اعلم ان يكون الامران معا جائزين » .

(٣) : قال بدر الدين العيني في عمدة القارى ١٦٤ / ٧ والأعمى عندنا انه يعني النفل من خمس الخمس وبه قال ابن المسيب ومالك وأبو حنيفة وآخرون ومن قال انه من أصل الغنيمة الحسن البصري والأوزاعي وأحمد وابو ثور وآخرون .

(٤) : صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ص ١٣٦٩ .

روي عن مالك بن اوس بن الحدثان^(١) أنه قال : ما ادركت الناس ينفلون إلا من الخمس . قال الشافعي أخبرنا مالك عن أبي الزناد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول كان الناس يعطون النفل من الخمس^(٢) قال الشافعي وقول سعيد كما قال ان شاء الله «أ.هـ ما جاء في الروض النصیر».

نقل الشوكاني عن ابن حجر ونقل صاحب الروض النصیر أن قول أحاديث النفل من أصل الغنيمة وكذا نقلًا عن الأوزاعي مثل هذا وابن قدامة ينقل عنها قوله ربيماً كان أدق يقول^(٣) :

قال أحاديث والنفل من أربعة أخاس الغنيمة ، هذا قول أنس بن مالك وفقهاء الشام منهم رجاء بن حبيبة وعبادة بن نسي وعدي بن عدي ومكحول والقاسم بن عبد الرحمن ويزيد بن أبي مالك ويعيني بن جابر والأوزاعي وبه قال إسحاق وابو عبيدة وقال أبو عبيدة والناس اليوم على هذا «قال أحاديث وكان سعيد بن المسيب ومالك بن أنس يقولان « لا نفل من الخمس » . فكيف خفي عليهما هذا مع علمهما .

قال ابن قدامة : « وقال أبو ثور وإنما النفل قبل الخمس ، واحتج من ذهب إلى هذا بحديث ابن عمر الذي أوردهناه » .

قال ابن قدامة^(٤) :

ولنا ما روى معن بن يزيد السلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا نفل إلا بعد الخمس» رواه أبو داود وابن عبد البر وهذا صريح وحديث حبيب بن سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفل الرابع بعد الخمس والثالث بعد الخامس» وحديث جرير قال له عمر «ولك الثالث بعد الخمس» ولأن النبي صلى الله

(١) : مالك بن اوس بن الحدثان مختلف في صحبه ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا ذكره ابن سعد في طبقة من ادرك النبي صلى الله عليه وسلم ورأه ولم يحفظ عنه شيئاً قال ويقولون انه ركب الخيل في الجاهلية قال وكان قدماً ولكن تأخر اسلامه وقال البخاري قال بعضهم له صحة ولا تصح وقال ابو حاتم وابن معين لا تصح له صحة .

(٢) : ذكر ابن حجر في الفتح ٦ / ٢٤١ ثم قال « وظاهره اتفاق الصحابة على ذلك » .

(٣) : المغني ٩ / ٢١٥ .

(٤) : المغني ٩ / ٢١٦ .

عليه وسلم نفل الثالث ولا يتصور إخراجه من الخمس^(١) ولأن الله تعالى قال (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن الله خمسه) يقتضي أن يكون الخمس خارجاً من الغنيمة كلها»^(٢).

يقول ابن قدامة: «وأما حديث ابن عمر—بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش قبل نجد واتبعت سرية من الجيش فكان سهمنا الجيش الثاني عشر بعيراً ونفل أهل السرية بعيراً بعيراً فكانت سهمناهم ثلاثة عشر بعيراً» فهذا يمكن أن يكون نفلهم من أربعة أخاس الغنيمة دون بقية الجيش كما ينفل السرايا ويتبع حل الخبر على هذا لأنه لو أعطى جميع الجيش لم يكن ذلك نفلاً وكان قد قسم لهم أكثر من أربعة الأخاس وهو خلاف الآية والأخبار».

أقول الحديث رواه البخاري^(٣) بعنوان باب السرية التي قبل نجد عن ابن عمر رضي الله عنها قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية قبل نجد فكنت فيها فبلغت سهمنا الثاني عشر بعيراً ونفلنا بعيراً بعيراً فرجعنا بثلاثة عشر بعيراً والظاهر في هذه الرواية أن أفراد السرية جميعاً كان نصيب كل منهم ثلاثة عشر بعيراً وليس في هذه الرواية ذكر لجيش انفصلت منه سرية يقول ابن حجر في شرح الحديث: قالوا: وكان أبو قتادة أميرها وكانوا خمسة وعشرين ويعكن أن نتصور الواقعة بأن أفراد السرية نفلهم أميرهم قبل أن يرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل أن تخمس الغنيمة ثم كان لهم بعد التخمس لكيل اثنا عشر بعيراً ويستأنس هذا بما جاء في بعض الروايات وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى أعطانا صاحبنا ولا عاب عليه ما صنع فكان لكل

(١): هذا رد على القائلين بأن النفل من الخمس.

(٢): يقول الشيخ الشنقيطي (٢/٣٩٨) والذي يسبق إلى الذهن أن مثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عمر بلفظ «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان ينفل بعض ما يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش، والخمس في ذلك واجب كله» يدل على أن ذلك التنفيل من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو ما دل عليه حديث حبيب بن مسلمة المتقدم، وهو الظاهر المتأذر خلافاً لما قاله ابن حجر في الفتح من أنه محتمل لكل الأقوال المذكورة. ويقول أبو عبيدة في (الاموال) والناس اليوم في المغم على هذا: أنه لا نفل من جلة الغنيمة حتى تخمس.

(٣): فتح الباري ٨/٥٦.

رجل منا ثلاثة عشر بغير أينفله (رواه أبو داود) ويكون معنى النفل ما اخذه كل فرد زائدا على سهمه الذي يستحقه وهذا هو الفهم الذي فهمه الذين قالوا بجواز التنفيل من أصل الغنيمة أي قبل تخفيتها ومنهم الخطابي كما ذكرنا .

على أن أبا عبيد يحتاج بالحديث نفسه على أن النفل من الخمس فهو يذكر الحديث ثم يقول (١) :

«فهذا النفل الذي ذكره بعد السهام ليس له وجه إلا أن يكون من الخمس وكذلك يقول القرطبي (٢)» فاحتاج بهذا من يقول : ان النفل اما يكون من جلة الخمس ، وببيانه أن هذه السرية لو تزلت على أن اهلها كانوا عشرة مثلاً أصابوا في غنيتهم مائة وخمسين أخرج منها خسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون قسمت على عشرة وجب للكل واحد اثنا عشر بغيرا ، اثنا عشر بغيرا ثم أعطى القوم من الخمس بغيرا بغيرا ، لأن خمس الشلايين لا يكون فيه عشرة أبعة ، فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد» .

أقول : وهذا الذي يذكره القرطبي دليل يذكره ابن حجر عن ابن المنير أنه واقع وأنه جاء في بعض الروايات أن عدد السرية عشرة يقول ابن حجر (٣) : قال ابن المنير «وقد جاء أنهم كانوا عشرة ، وانهم غنموا مائة وخمسين فخرج منها الخمس وهو ثلاثة وقسم عليهم البقية فحصل للكل واحد منهم اثنا عشر بغيرا ثم نفلوا بغيرا بغيرا فعلى هذا فقد نفلوا ثلث الخمس» وبحرص ابن حجر بعد إيراد هذا على نصر مذهب القائل بأن النفل من خمس الخمس فيقول : «قلت : إن ثبت هذا لم يكن فيه رد للاحتمال الأخير (يعني خمس الخمس) لأنه يحتمل أن يكون الذين نفلوا ستة من العشرة والله أعلم» أقول : وهذا من ركوب متن الشطط في سبيل نصرة المذهب .

وابن حجر قد نقل في الصفحة نفسها قبل أسطر قول ابن بطال بان حدیث ابن عمر يرد على القائلين بأن النفل من خمس الخمس . قال ابن بطال «لأنهم نفلوا نصف السادس وهو أكثر من خمس الخمس وهذا واضح» .

(١) : الاموال باب النفل من الخمس خاصة بعد ما يشير الى الامام ص ٣٢١

(٢) : الجامع لاحكام القرآن ٣٦٢ - ٣٦٣ / ٧ (٣) : فتح الباري ٢٤٠ / ٦

وقد أخذ الشيخ الشنقيطي بقول ابن بطال قال : « واعلم أن حديث عبد الله بن عمر المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية قبل نجد ... دليل واضح على بطلان قول من قال : « لاتنفيلي إلا من خمس الخمس » لأن الحديث صريح في أنه نفلهم نصف السادس ، ولا شك أن نصف السادس أكبر من خمس الخمس فكيف يصح تنفييل الأكبر من الأقل ، وهو واضح كما ترى وأما غير ذلك من الأقوال ، فالحديث محتمل له .

يعني أن الأقوال أربعة في النفل فهو إما من أصل الغنيمة أو من خمس الخمس أو من أربعة الأخاس والمحدث في رأي الشنقيطي يدل دلالة قطعية على نفي كون النفل من خمس الخمس للغنية كلها وهو محتمل لكونه من أصل الغنيمة قبل أن تخمس كاحتمال كونه من الغنيمة بعد أن خست أي من أربعة الأخاس كاحتمال كونه من الخمس ، ثم يرجع الشيخ أنه من أربعة الأخاس بدلالة أحاديث أخرى سبق ذكرها .

ولنا ملاحظة يسيرة على الحساب الذي أورده ابن بطال وأقره الشنقيطي عليه تتلخص فيما يلي :

إذا أخذنا بقول القائلين إن النفل من خمس الخمس فالغنيمة قد خمست قبل أي توزيع وكان سهم كل فرد من افرادها ١٢ بغيرا فإذا كان عددهم عشرة (نفرض هذا فرضًا لتسهيل الحساب) كان سهمانهم جمِيعاً ١٢٠ بغيرا وهذا $\frac{4}{5}$ الغنيمة فالغنيمة كلها (١٥٠) بغيرا والنفل من خمس الخمس كلها وهو هنا (٦) وقد فرضنا ان عدد أفراد السرية (١٠) فقد نفلت (١٠) ابعة وهذا العدد أكبر من خمس الخمس فكيف تعطى العشرة من الستة؟ ويلاحظ ان العشرة هي $\frac{1}{15}$ من الغنيمة كلها لا $\frac{1}{12}$ كما قال ابن بطال .

وقد أوضح هذا ابن المنير قال ابن حجر (١) :

« وقد زاده ابن المنير أيضًا حفاظاً فقال : لو فرضنا انهم كانوا مائة وكان قد حصل لهم ألف ومائتا بغيرا ويكون الخمس من الأصل ثلاثة عشرة بغير وخمسها ستون وقد نطق الحديث بأنهم نفلوا بغيرا ف تكون جملة ما نفلوا مائة بغير ، وإذا كان خمس الخمس ستين لم يف

(١) : ٩/٢٤٠ (فتح الباري) (٢) : ٢/٣٤٤ (٣) : ٤/١٣٢ (٤) : ٤/٢١٦

كله بغير بغير لكل من المائة وهكذا كيما فرضت العدد ويكون الحديث دليلا واضحا في الرد على من قالوا إن النفل من خمس الخمس قال الشيخ الشنقيطي^(١): «ومذهب أبي حنيفة أن للإمام قبل احراز الغنيمة أن ينفل الرابع أو الثالث أو أكثر أو أقل بعد الخمس وبعد احراز الغنيمة لا يجوز له التنفيل إلا من الخمس».

وجاء في كتاب الاختيار^(٢) (من كتب الحنفية): «ويجوز التنفيل قبل احراز الغنيمة وقبل ان تضع الحرب أوزارها فيقول الإمام: من قتل قتيلا فله سلبه أو من أصاب شيئا فله ربعه وبعد الاحراز ينفل من الخمس ...»

قال محمد: «وما روي أنه عليه الصلاة والسلام نفل بعد الاحراز إنما كان من الخمس أو من الصفي ، فغلط بقوم فظنوا أن النفل يجوز بعد احراز الغنيمة وما قاله محمد صحيح لأنه لا يجوز تصرف الإمام بعد الاحراز إلا في الخمس لما بينا ، ويجوز من الخمس لأنه لا حق للغافرين فيه».

قال صاحب المغني^(٣): «وكلام أحمد في أن النفل من أربعة الأحساء عام لعموم الخبر فيه ومحتمل أن يحمل على القسمين الأولين من النفل ، فاما القسم الثالث وهو أن يقول من جاء بشيء فله كذا أو من جاء بعشرة رؤوس فله رأس منها فيحتمل أن يستحق ذلك من الغنيمة كلها لأنه ينزل منزلة الجعل فأشبه السلب فإنه غير مخصوص ، ومحتمل في القسم الثاني وهو زراعة بعض الغافرين على سهمه لغناه أن يكون من خمس الخمس المعد للمصالح ، لأن عطية سلمة بن الأكوع سهم للفارس زرادة على سهمه إنما كانت من أربعة الأحساء والله أعلم».

ويقول ابن تيمية رحمه الله^(٤): وهذا النفل قال العلماء: إنه يكون الخمس لثلاثة يفضل بعض الغافرين على بعض وال الصحيح انه يجوز من أربعة الأحساء وإن كان فيه تفضيل بعضهم على بعض لمصلحة دينية لا هوى النفس كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول فقهاء الشام وأبي حنيفة واحمد وغيرهم.

الخلاصة رأي مالك أن النفل من الخمس وأصح الأقوال عن الشافعي أن الإمام لا

(١) : ٦ / ٢٤٠ (فتح الباري) (٢) : ٢ / ٣٤٤ (٣) : ٢ / ١٣٢ (٤) : ٤ / ٢١٦ (٥) : ٢٧١ / ٩

ينفل إلا من خمس الخمس ورأى الإمام أحد للإمام أن ينفل الرابع بعد الخامس في بدأه والثالث بعد الخامس في رجعته ومذهب أبي حنيفة أن للإمام قبل احراز الغنيمة أن ينفل الرابع أو الثالث أو أكثر وأقل بعد الخامس وبعد احراز الغنيمة لا يجوز له التنفيل إلا من الخامس .

ويرجع الشيخ الشنقيطي أن النفل من الغنيمة بعد إخراج الخامس فهو من أربعة الأحسان كما صحة ذلك ابن تيمية عليه رحمة الله أخذ بالظاهر المتبدلة من حديث ابن عمر في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامة الجيش وزاد مسلم والخامس في ذلك واجب كله .

والذى نميل إليه ما ذهب إليه الشنقيطي حفظه الله ان الغالب على فعله عليه الصلاة والسلام التنفيل من الغنيمة بعد إخراج الخامس منها وقد تسامح عليه الصلاة والسلام فنفل بعض السرايا من أصل الغنيمة قبل أن تخمس وذلك هو الظاهر المتبدلة في السريعة التي كان فيها ابن عمر رضي الله عنه التي بعثت قبل نجد ومنها أخذ الخطابي الحكم فيما يبدو فقال أكثر ما روی من الأخبار يدل على أن النفل من أصل الغنيمة ، على أنه قال «فيشبهه أن يكون الأمران معا جائزين» يعني من أصل الغنيمة ومن أربعة أحسانها «ولما كانت الروايات متضادة على أنه لا نفل إلا بعد الخامس كما تدل عليه الآية الكريمة «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن الله خمسه» كان الأحوط أن يقال أن التنفيل لا يكون إلا بعد الخامس وحملت رواية ابن عمر في سريته قبل نجد على أنها حالة استثنائية رضي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعل الأمير واقره وجاء في الرواية «وما حاسبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي اعطانا اميرنا» ولم نجد رواية أخرى فيها ذكرنا من الروايات تبيح اعطاء النفل من أصل الغنيمة قبل أن تخمس (١) ولعله يؤخذ من رواية ابن عمر أن للإمام أن يفعل ذلك إذا رأى فيه مصلحة كبرى وضرورة قصوى ، أما إن يعطي الإمام من الخامس زيادة لبعض المقاتلين فأي حرج في ذلك والخامس للإمام له أن يتصرف فيه ولا ينافي هذا أن الأصل في النفل أن يعطى من أربعة الأحسان ولكن لا

(١) : قال أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٢١) حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن منصور قال سألت إبراهيم عن الإمام يبعث السريعة قال إن شاء خمس وإن شاء نفلهم آية كله .

(٢) : كتاب الأموال ص ٣٢١

نقول لا نفل الا من الخمس ولا نقول ايضا « بعد احراز الغنيمة لا يجوز للامام التنفيذ الا من الخمس »

قال ابو عبيد ^(١) : واغا تكلمت العلما في الخمس واستجراوا صرفه عن الأصناف المسماة في الشريعة الى غيرهم ، اذا كان هذا خيرا للإسلام واهله واردا عليهم وكانت عامتهم الى ذلك الوجه أفقروهم اصلاح من ان يفرق في الأصناف الخمسة فعند ذلك تكون الرخصة في النفل من الخمس و يكون حكمه الى الامام لأن الناظر في مصلحتهم والقائم بأمرهم ، فاما على محاباة او ميل إلى هوى فلا .

وهكذا يرى ابو عبيد أن الخمس لتحقيق مصالح المسلمين فحيثا وجدت المصلحة كان هنالك سبيل صرفه . وتقدير المصلحة يرجع الى نظر ثاقب وميزان دقيق . وهذا تحقيق معنى قوله عليه الصلاة والسلام « ما لي مما افاء الله عليكم الا الخمس . والخمس مردود فيكم » وليس الخمس هنا خمس رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ولكنها الخمس الذي يخص بيت مال المسلمين .

ويتلخص من كل هذا أن التنفيذ أمره الى الامام يتصرف فيه بما يريده الله مما يستقيم به امر المسلمين ويصلح به حاكم فإذا وعد وفى بما وعد وان لم يعد ورأى ان يخص بعض المقاتلين بزيادة فله ان يفعل ذلك من اربعة اخاس الغنيمة او من خمس الخمس الذي جعله الله لله ولرسول .

في تربية الآيات الكريمة

النفوس الكريمة اذا اصابها مس الخطأ او ما يشبه الخطأ كان ذلك عاما في دفعها الى الخير ذلك ان النفوس التي ارهف احساسها وشحذ وجاذبها وما اعتبارها لذاتها في جانب الحق يؤهلها اياما شديدا ان يbedo منها في ساعة من ساعات انفعاها ما ينزل بها عن المستوى الرفيع الذي وضع نفتها فيه ومثل هذه النفوس لا تنسى خطأها أبداً ولكنها يؤرقها ويسهدها و يجعلها تتقلب على عتاب الضمير وتتلقى بنار حسابه وكل ذلك ينشئ لديها يقظة غريبة و يساعد بينها وبين الفتور الذي تشعر به النفوس عادة إذا رضيت عن سعيها .

(١) : قال ابو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٢١) حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن منصور قال سألت ابراهيم عن الامام يبعث السمية قال ان خمس وان شاء نقلهم اياده كلها .

(٢) : كتاب الأموال ص ٣٢١

ومن الأمثلة السامية التي توضح هذا المعنى الصحابي الجليل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، لقد قال كلمة وكانت كلمته موجهة الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وكان في الكلمة جرأة وصراحة نسي معها مقام رسول الله عليه صلوات الله ونسى معها انه بشر لا كسائر البشر ولكن بشر يوحى اليه ونسى معها أنه قائد أمين خبير يعلم من الأمور مالا يعلمه وما لا يجب أن يعلمه كل فرد من افراد جماعته .

لقد قال رسول الله عليه صلوات الله في غزوة بدر من لقي منكم العباس فلا يقتله والرسول لا يعرف محابة عليه الصلاة والسلام ولكن يقدرها ويضعها في موضعها .

كان العباس مسلماً ولكنـه كان يكتـم ايـمانـه فقد روـى ابو رافع مولـى رسولـهـ عليهـ صـلـواتـ اللهـ وـسـلامـهـ قالـ : كـنـتـ غـلامـاـ لـلـعـبـاسـ بـنـ عـبـدـ المـطـلـبـ وـكـانـ الـاسـلـامـ قدـ دـخـلـنـاـ أـهـلـ الـبـيـتـ فـأـسـلـمـ الـعـبـاسـ وـأـسـلـمـتـ أـمـ الـفـضـلـ وـأـسـلـمـتـ فـكـانـ الـعـبـاسـ يـهـابـ قـومـهـ وـيـكـرـهـ خـلـافـهـمـ فـكـانـ يـكـتـمـ إـسـلـامـهـ وـكـانـ ذـاـ مـاـ مـتـفـرـقـ فـيـ قـوـمـهـ فـخـرـجـ مـعـهـمـ إـلـىـ بـدـرـ وـهـوـ عـلـىـ ذـلـكـ (طـبـقـاتـ اـبـنـ سـعـدـ) (جـ ٤ـ صـ ١٠ـ) . فـلـمـ كـانـتـ الـمـرـكـةـ قـالـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ مـنـ لـقـيـ الـعـبـاسـ بـنـ عـبـدـ المـطـلـبـ عـمـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـلـاـ يـقـتـلـهـ فـإـنـاـ أـخـرـجـ مـسـتـكـرـهـ .

كـانـتـ كـلـمـةـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ اـسـتـثـنـاءـ وـكـلـ اـسـتـثـنـاءـ فـيـ المـيـزـانـ الـظـاهـرـ خـرـقـ لـقـاعـدـةـ الـعـدـالـةـ الـعـامـةـ التـيـ لـاـ تـعـرـفـ تـرـجـيـحاـ وـلـاـ تـعـرـفـ تـفـرـيـقاـ . وـمـاـ كـانـ اـصـحـابـ رـسـولـ اللهـ عـلـيـهـ صـلـواتـ اللهـ لـيـسـكـواـ أـسـنـتـهـمـ عـنـ حـقـ يـرـونـهـ وـقـلـوـهـمـ تـنـطـويـ عـلـىـ زـغـلـ اوـ دـخـلـ وـلـكـنـ الـذـيـ فـيـ قـلـوـهـمـ كـانـ يـبـدـوـ عـلـىـ السـنـتـهـمـ وـهـكـذـاـ كـانـ اـجـابـةـ اـبـيـ حـذـيفـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ لـرـسـولـ اللهـ اـجـابـةـ الـذـيـ لـاـ يـعـرـفـ نـفـاقـاـ وـلـاـ يـخـسـنـ مـدارـةـ وـلـاـ مـوارـبـةـ وـلـاـ يـخـفـيـ ماـ فـيـ نـفـسـهـ قـالـ : نـقـتـلـ آـبـاءـنـاـ وـابـنـاـنـاـ وـاخـوانـاـنـاـ وـعـشـائـرـنـاـ وـنـتـرـكـ الـعـبـاسـ ؟ـ وـالـلـهـ لـئـنـ لـقـيـتـهـ لـأـلـجـمـنـهـ بـالـسـيفـ فـوـالـلـهـ لـقـدـ نـافـقـ فـهـذاـ رـسـولـ اللهـ مـنـ حـدـةـ عمرـ وـكـلـمـ أـبـاـ حـذـيفـةـ الثـائـرـ بـمـاـ أـقـتـلـهـ وـنـدـمـ أـبـوـ حـذـيفـةـ عـلـىـ مـقـاتـلـهـ فـكـانـ يـقـولـ وـالـلـهـ مـاـ أـنـاـ بـآـمـنـ مـنـ تـلـكـ الـكـلـمـةـ الـتـيـ قـلـتـ يـوـمـئـذـ وـلـاـ أـزـالـ مـنـاـ خـائـفـاـ إـلـاـ أـنـ يـكـفـرـهـاـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ عـنـيـ بالـشـهـادـةـ فـقـتـلـ يـوـمـ الـيـمـامـةـ شـهـيدـاـ (طـبـقـاتـ اـبـنـ سـعـدـ) (جـ ٤ـ صـ ١١ـ) .

طلب أبو حذيفة الشهادة في كل مكان في أحد وفي حنين كما يثبت ثبات الراغبين

بالموت وفي المغازي كلها ، وفي الياءة انكشف المسلمون أول الأمر وخرج خالد من معسكره وصال بال المسلمين يا للأنصار والهاجر بن وثبت المسلمين واستشهد زيد بن الخطاب وحمل اللواء أبو حذيفة لواء المسلمين وصال في اخوانه « يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال » واستشهد أبو حذيفة وغلب المسلمين وقتل مسيلمة الكذاب .

لقد عاش أبو حذيفة وهو يقول ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا الا ان يكفرها الله عز وجل عنى بالشهادة حتى قتل يوم الياءة شهيدا .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه من الماذج المرهفة شديدة الاحساس قال ابن عباس : قلت لعمر : مصر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح ، وفعل بك وفعل ، فقال لوددت أنني أنجو منه لا أجر ولا وزر لما حضرته الوفاة قال : بالامارة تغبطوني ؟ فوالله لوددت أنني أنجو كفافا لا على ولا لي (طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٣٥١) .

ولما أسلم رضي الله عنه كان همه أن يكفر المواقف الشديدة التي وقفها في إيماء اصحاب رسول الله . اخرج ابن اسحاق عن ابن عمر رضي الله عنها قال لما أسلم عمر رضي الله عنه قال : أي قريش أثقل للحديث ؟ فقيل له جميع بن معمر الجمحي فغدا عليه ، قال عبد الله وعدوت أتبع أثره وانظر ما يفعل — وانا غلام اعقل كل ما رأيت — حتى جاءه فقال له : أعلمت ياجيل أنني أسلمت ودخلت في دين محمد صلى الله عليه وسلم قال فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعه انا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعاشر قريش وهم في أندائهم حول الكعبة ألا إن ابن الخطاب قد صبا قال يقول عمر من خلفه كذب ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله ، وشاروا اليه فما برحو يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم قال وطلع (أي أعيما) وقاموا على رأسه وهو يقول افعروا ما بدا لكم فأحلف بالله ان لو كنا ثلثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا قال فبيينا لهم على ذلك إذا أقبل شيخ من قريش عليه حلقة حيرة (ضرب من برود اليمن) وقيص موشى حتى وقف عليهم فقال ما شأنكم فقالوا : صبا عمر قال : فه رجل اختار لنفسه أمرا فما ذا تریدون أترونبني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا خلوا عن الرجل قال فوالله لكأنما كان ثوبا كشط عنه قال عبد الله فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة يا أبتي من الذي زجر القوم

عنك بعكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال ذاك أئن بنى العاص بن وائل السهمي . يقول ابن كثير في البداية (ج ٣ ص ٨٢) وهذا إسناد جيد قوي .

ومن أولئك الذين أرهف احساسهم فلا ينسون أيامهم الماضية وإن عفا الله عنها عكرمة بن أبي جهل :

وقف في اليرموك يقول : قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل موطن وأفر منكم اليوم ... ثم نادى من يبايعني على الموت فبأيده عمّه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور وابنه عمر بن عكرمة في أربعينات من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا أمام فسطاط خالد ، وكان عكرمة يواجه الأسنة والرماح حتى جرحت صدره ووجهه فقتل له اتق الله وارفق بنفسك فقال كنت أجاهد بنفسي عن الالات والعزم فأبذهها لها وأنا أستبقها الآن عن الله ورسوله لا والله لا افعل أبدا .

يقول الدكتور علي سامي النشار^(١) لقد كان في حياة عكرمة آية للناس آية الضمير المعدب المرهف فحين انكشفت له الحقائق العليا وأمن بالله أدرك بروحه التي تفيض إحساساً مقدار أخطائه فأراد أن يعي على آثارها ما استطاع فصلى وصام وأنفق وجاحد ثم بعث نهرًا من دمه ودم قومه كالأتي (السيل) ونام آخر الأمر مطمئناً طمأنينة الشهداء والصديقين . هكذا كان يخطيء أصحاب رسول الله وهكذا كانت خطيباتهم تأتي بالمعجزات وهكذا كانت خطيبة أصحاب رسول الله حين تنازعوا على غنائم بدر إن كان هنالك خطيئة .

قيمة التجارب في حياة الأمة

التجارب أثمن ما في الحياة لأنها تكون رصيد الفرد من الخبرة وذخيرته النفسية التي يقابل بها الشدائ드 وينازل بها الخطوب .

ومن الخير أن تتسلّون التجارب وتتنوع الحوادث ويتقلب الماء في أحضان النعيم تارة ويدوّق مرارة العنااء وشظف العيش تارة أخرى .

وتاريغ الأمة شبيه بتاريغ الفرد من حيث أن الأمة تقابل الساعات الخامسة

(١) : شهدا الاسلام

بالرصيد الذي تكون لديها في أيامها الماضية وخبراتها السابقة وكلما تعددت تجارب الأمة وتنوعت كان ذلك أدعى إلى صلابة عود أبنائها وقوتها شكيمتهم .

يوضح هذا المعنى أتم توضيح قوله تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس ولعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ولم يمحص الله الذين آمنوا ويتحقق الكافرين » .

ولقد تنوّعت التجارب التي مرت بها الأمة الناشئة في عاصمة الدولة التي انشأها محمد بن عبد الله عليه صلوات الله : مفريق المهاجرين بتجربة ترك الديار وهجر الأوطان وخروج الواحد منهم عن داره وما له في سبيل اللحاق برسول الله في دار هجرته ومفريق الأنصار باستقبال إخوانهم ومشاطيرتهم ديارهم وأموالهم واشترك هؤلاء وهؤلاء طعم الأخوة والتعاون في الصبر على اليساء والألواء .

ولم يمر عام وبعض عام على الجماعة الناشئة حتى مرت بتجربة حاسمة في يوم عظيم سماء القرآن الكريم يوم الفرقان وفي ذلك اليوم عرف المؤمنون نصر الله ومعونته معرفة لم يسبق لها مثيل من قبل وغابت الفتنة الكثيرة وبعد عام آخر مرت الجماعة بتجربة من نوع آخر وكانت التجربة الثانية تجربة شديدة مريرة فوت المسلمين فيها النصر بعد أن أدركوا النصر ووقعوا في شدائد تتقطع فيها الأعنق وينوء بحملها الأبطال وخرجوا وقد صهرت التجربة نفوسهم بأثر عميق وعظة بالغة ، وتتابعت الدروس وتنوعت التجارب وانقضت عشر سنوات بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام ما تعادل في عمر الأمم بمئات السنين ولا ألاها ذلك أنها حقبة من الزمن لامعة مضيئة فدّة في عمر التاريخ لا يمكن أن يقاس بها المدى ولا يمكن أن تشبهها الأيام .

ولا نستطيع ان ندرك تلك العبر بكمالها ولا نستطيع ان نصل الى غاية شاؤها ولكننا نجد لتدركنا نفحة من نفحات معانها ، ولقد سجلت الآيات الكريمة هذه المعاني فامتزجت هذه الحياة التي قضاها اصحاب رسول الله عليه صلوات الله معاني الخلود إذ سجلت وبقيت آيات تتلى تتصل بسيرة محمد عليه صلوات الله وسلامه واصحاب محمد عليهم رضوان الله .

كانت التجربة الأولى التي مرت بها الصحابة الكرام تجربة النصر يدركه أصحاب بدر وهم قلة جياع عراة حفاة وكانت تجربة وطدت معاني الإيمان في القلوب وادرك المؤمنون معها إدراكا عميقاً قوة الحق وشدة وطأته وأيقنوا أن الله معهم وأن القوة بأيديهم باذن الله وإن المشركين منها عظم بأسمهم لا يقبل لهم من يؤيده الله بملائكته وجنته .

كل ذلك قد تم لثلاثمائة نفر يزيدون قليلاً لوزنوا بأهل الأرض جياعاً لرجحوا عليهم هؤلاء هم أصحاب بدر الذين هم خير أصحاب رسول الله جميعاً الذين قال فيهم رسول الله ما يدركك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر فقال أفعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وليس هؤلاء الثلاثمائة على درجة واحدة من الإيمان وليسوا على درجة واحدة من فهم الأمور .

قاعدة عامة في التربية القرآنية الحرص على سلامة الجماعة
ومن الطبيعي جداً أن يقع من بعضهم بعض هنات تنزل بهم عن المستوى الإيماني العالي الرفيع وتزول أفراد قلة يوتّر في مستوى الجماعة كلّه ذلك أن الجماعة كلها جسم واحد ، قلت مرة لطبيب انكليزي في إنكلترا إنكم تعالجون غير الانكليز المقيمين بين أظهركم مجاناً وتقدمون لهم العلاج مجاناً وتعنون بهم كما تعنون بالمواطنين تماماً فما حلّكم على ذلك ؟ قال : إننا نفعل ذلك لنحفظ أنفسنا وابناءنا .

كانت كلمة ذات وقع عميق في نفسي ، لقد كان الإسلام أحقر من هؤلاء بعثات المرات منذ ١٤ قرناً على سلامة الجماعة وحفظها من الأفراد الذين يمكن أن يهبطوا بمستوى الجماعة ولو هبوطاً يسيراً .

كانت تربية هؤلاء تربية تجمع بين القوة والحزم والبراعة التامة والأسلوب الهدى الرصين الرفيق الحكيم وكان الغرض من هذه التربية شحن النفوس جميعاً بشحنة إيمانية وجدانية ينجدب فيها الضعف في الجو الذي ملئت أرجاؤه بالمعانوي السامي وعقب فيه شذى الإيمان الرفيع فإذا بالجميع يحملون وجداناً واحداً ويشعرون شعوراً واحداً ، وإذا بالضعف يسرّع الركب تغشيه موجة الإيمان الضافية .

لا يخاطب القرآن الكريم فرداً من المؤمنين بخطيئته أو ضعفه ولكنَّه يخاطب المؤمنين جمِيعاً حين تقع الهمزة من فرد أو جماعة يسيرة وهذا أسلوب من أروع الأساليب وأبلغها في التربية وأحكامها ، وفي هذا الأسلوب إشارة واضحة إلى أنَّ الجماعة جسم واحد وكون الجماعة جسماً واحداً له نتيجتان هامتان متقابلتان : فلدى وجود خلية واحدة مريضة إما أنْ يغفل الجسم عن الخلية المريضة فإذا عرضها يمتد إلى جاراتها ويُسري ويستفحِل أمره وإما أن يكون الجسم يقطا يقطا يقظة تامة حساًساً أشد الحساسية يدرك مرض الخلية فيمدُّها بالحال بالاسعاف والأعوان فتبرأ وتتحق بالركب .

حين تقول الآيات الكريمة يسألونك فليس المعنى أنَّ السؤال وقع من الأصحاب الثلاثمائة ولكنَّ الغالب أنَّ السائل واحد يمثل نفسه أو يمثل جماعة يسيرة وحين تقول الآيات الكريمة يجادلونك فالأمر كذلك وقد صرحت هنا الآيات أنَّ الذين جادلوا كانوا فريقاً من المؤمنين قال تعالى : « كُمَا أَخْرَجْتَ رَبَّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارُهُونَ يَجَادِلُوكُمْ فِي الْحَقِّ » إلى آخر الآية الكريمة .

وكانَت التجربة الأولى التي مر بها أصحاب رسول الله عليه صلوٰات الله وعليهم رضوان الله تجربة النصر يدركه أصحاب بدر وهم قلة وهم كما وصفهم القرآن ولقد نصركم الله بيدِّر وأنتم أذلة .

ولقد تنزلت سورة الأنفال أو سورة بدر على أثر غزوة بدر تربى أصحاب رسول الله عليه صلوٰات الله وسلامه التربية التي يحتاجها موقف النصر، والتربية في هذا الموقف تختلف عن التربية في موقف أخرى كأحد وحنين والأحزاب ذلك أنَّ كلَّ مشهد من هذه المشاهد كان له طابعه وكانت له ميزاته .

وهناك ملاحظتان عامتان تنطبقان على المشاهد جميعها الأولى ما سبق أن ذكرناه من أنَّ القرآن الكريم لا يخاطب فرداً من المؤمنين بخطيئته أو ضعفه لكنه يوجه الخطاب إلى الجماعة كلها وهي نظرة في منتهى السمو في الناحية الاجتماعية تؤكد وحدة الجماعة وكتلتها وتماسكها .

قال تعالى « وَيَوْمَ حَنِينٍ أَذْعَجَبَكُمْ كُثُرَتُكُمْ » وجه الخطاب للجماعة كلها وقال

تعالى في أحد « حتى اذا فشلت وتنازعت في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون »
وقال تعالى في تبوك : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله
اثاقلم الى الأرض » وفي هذه الآيات كان الذين أعتبرتهم الكثرة نفري سير والذين فشلوا
وتنازعوا كذلك والذين اثاقلوا الى الأرض فريق من المؤمنين بدليل قوله تعالى (من بعد
ما كاد يزدغ قلوب فريق منهم) .

التربية عملية ميدانية :

والملحوظة الثانية ان التربية القرآنية كانت تربية علمية في ميدان الجهاد لم تنزل
الآيات والأصحاب في قاعة محاضرات يستمعون كما يستمع شبابنا وقلوهم لاهية يحتل
سويداءها شغلها ومهامها خارج القاعات ، ولم تكن تنزل الآيات الكريمة والأصحاب
في خلواتهم مشغولون بجهاد نفوسهم وتربيتها تربية سلبية انعزالية ولكن الآيات الكريمة
تنزلت وقلوهم منصورة بحوادث المعركة وهي معركة موت واستشهاد ونصر وغلبة وبيع
للأنفس في سبيل الله .

ان ساعة في مثل هذه المواقف تعد عشرات السنين ومئات السنين في موقف
آخر لا يطل فيها شبح الموت ولا يخيم سلطانه .

إن التربية الحديثة تنادي بال التربية العملية ولكنها هذه التربية التي تتحدث عنها
ليست تربية عملية فحسب ولكنها تربية والنفوس فيها قد بلغت ذروتها في بذلك أقصى
طاقاتها وأكبر استعداداتها .

ولقد انحرفت هذه الروح الأولى بعد القرون الأولى التي هي خير القرون وفت لدى
المسلمين مساعداً ورياحاً داخلاً زيف كبير ومازجها انحراف غير يسير وفارقته
المعاني الأولى التي رُبِّيَ فيها أصحاب رسول الله على حمل الرسالة وبث الدعوة والتأسيسي
برسول الله عليه صلوات الله .

إن التربية الحقيقة هي تربية الجهاد في ميادين القتال ومنذ فارقت الأمة هذه
التربية ووضعت عنها معانٍ آخر فارقت الهدى الصحيح وفارقت قوتها وعزتها .

وبعد الملاحظتين السابقتين نقول : بدأ السورة الكريمة التي نزلت على اثر غزوة بدر بالعتاب وانتزعت المسلمين جميعاً من المستوى العادي الى مستوى إيماني عالٍ سامي رفيع وكل ذلك لمهمة عالية يقوم هؤلاء الأصحاب و يقدمونها للإنسانية ويصرّبون مثلاً خالداً لكل من أراد أن يلحق بهم من بعدهم ، كان له طابعه وكانت له ميزاته .

ان التربية في بدر كانت تربية للجماعة حين يصيّبها النصر ويمكن ان نلاحظ بأن الغرض هنا الحفاظ على النصر (اولاً) وصون الجماعة من غواص الظفر (ثانياً) والاستفادة من موقف النصر (ثالثاً) لدفع الجماعة دفعاً قوياً الى نصر يليه نصر من بعده نصر .

غواص النصر

أما غواص النصر فالاغترار بالقوة وبطر النعمة والاغترار يؤدي الى الركون والاستسلام وقتور الغزائم وكل هذا يؤدي الى ضياع الجماعة ضياعاً تاماً وإنْ نصراً كهذا النصر الذي يؤدي الى فتور العزائم خير منه الف مرة ضياع النصر .

ان المنتصرين في الحرب من شأنهم أن يملؤوا الدنيا عجيجاً وضجيجاً ومن شأن هولاء أن يكون نصرهم كاذباً سريع الذهاب .

والآيات الكريمة بعد بدر لا تذكر شجاعة المؤمنين ولا تصف إقدامهم ولا تشيد بموافقهم بل لكياني بالآيات بعد أحد تذكر عن بعض المؤمنين ما لم تذكره الآيات الكريمة بعد بدر وهذا يوحى بأن ما تم من البطولات في أحد لم يتم مثله في بدر . قال تعالى في سورة آل عمران في الآيات التي نزلت على اثر غزوة أحد : « ولا تخسِنَ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند رحمة يرزقون فرحة بما آتاهم الله من فضلهم ويستبشرُون بالذين لم يلتحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم الفرح للذين أحسنوا منهم واتقوا اجر عظيم »

وهذه الآيات الكريمة تذكر بأولئك الذين باعوا أنفسهم وهو محيطون برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو المؤمنين ان يرجعوا اليه ليرأب الصدع وليعيد الى الصف وحدته ول الجمع شمل الجماعة الممزقة : الرسول ثابت ثبات الجبال وهؤلاء الأبطال من حوله يفتّونه بصدورهم ونحوهم ويتساقطون حوله بعد أن يأتوا بما لا قبل للناس به وبثبات

هؤلاء صدت هجمات المشركين في أحد وكتب الله السلام لأصحاب محمد عليه الصلة والسلام .

لم تذكر الآيات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدر ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم وهنالك نقاط أرسلت الآيات أضواءها عليها وبينت نواحي الضعف فيها بياناً جلياً قوياً بتصوير ما في النفوس ووصفه وصفاً دقيقاً رائعاً تشاهد العين فيه الحركات والخلجات ، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليتمس المسافة بيته وبين درجة الإيمان التي يهفو قلبه للوصول إليها .

ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم ويشعر الذوق السليم هنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب ولكنه بتصوير ما في النفوس تصويراً يوقن معه العادي من الناس أنه ما كان المؤمن صحيحاً بالإيمان إن يتصرف بها ولذلك اقترن الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصور الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أى إسفاف «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون»

ما ذكرت الآيات عتاباً ولكنها ذكرت واقعاً وكان ذكر الواقع أبلغ من كل عتاب .
قال تعالى : «يسألونك عن الأنفال» وفحوى الخطاب ما كان لهم أن يسألوا هذا السؤال .
وقال تعالى : «كما أخرجتك ربك من بيتك بالحق وإن فر يقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهو ينظرون»

وهذا وصف بالغ الغاية في تصوير الجزع والرعب صورة أناس يساقون إلى الموت سوقة لا مفر منه وهم يرون الموت بأم عيدهم .

وقال تعالى : «وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم (١)» وهذا تصوير لضعف في النفوس .

أليس عجياً أن يغلب ثلاثة رجال على ضعفٍ وقلةٍ في الزاد والعتاد والأهبة ألف رجل هم من أشد الرجال قوة ومراساً ثم لا يذكر عملهم بشيء، وإن ذكر فيذكر فضل الله

(١) : والشوكة القوة وتطلق على كل حديد من السلاح .

يقول تعالى: « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وهذه الآية الكريمة تستل من المؤمنين كل رؤية للنفس وكل نزعة تريد أن تستعلي وتملا الدنيا بقوها « فعلت وفعلت » وهكذا يقدم المؤمن نفسه ودمه ويقدم أخاه وابنه ثم يتظاون خاسعاً لا يشمخ بأنفه ولا يسمح لنفسه بأن تشعر بالاستعلاء في الأرض أو كبر على الناس وهذه هي الإنسانية بأسمى معاناتها وليس هذا لأحد إلا للمؤمن .

دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أي شعور بالاستعلاء وصرفت عن أنفسهم كل معنى من معاني الغرور وبسطت أمامهم نفوسهم أو نفوس فريق منهم وما بينها وبين الإيمان الصحيح من درجات وإذا جاء ذكر الثناء مصورا بصورة المن والفضل بما انعم الله ليس ثناء مستقلا ، الثناء عليهم إن الله من عليهم فاستجاب دعاءهم ونزل عليهم الماء ليطهرهم وأنزل الملائكة لتشيّهم ، وجع بينهم وبين عدوهم لأمر كبير بده الله وقدره .

« وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » .

« اذ تستغشون ربكم فاستجاب لكم »
« وما جعله الله إلا بشري ولنظمن به قلوبكم »
« اذ يغشياكم النعاص آمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويدهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام »
« اذ يوحى ربكم الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا »
ثناء عن طريق الاشارة

في الآيات ثناء بأن الله جل شأنه قد اختار هذه الصفة لأمر عظيم فليس بدعاً أن تغلب المشركين وإن كثروا عددهم ، وليس هذه كل مهمتها ولكنها أعظم من ذلك بكثير مهمتها الدنيا وأسرها والناس جميعاً ، وكل هذا لا بد له من تربية قوية جداً تجلب في الآيات الكريمة بعتاب لتنزل بعض المؤمنين عن مرتبة الإيمان الشاملة .

وثناء عن طريق الاشارة لا بتصريح العبارة بل هو في الواقع بيان لـ « الله وفضله جل شأنه وحسن تدبيره وعظيم لطفه وعنايته بهم ، واعقاب ذلك كله نداءات متواتلة ودفع

عظيم يحدوهم الى السير بعيدا في مراقي لا يصعد اليها الا الخيار من اصطفى الله .

والامر الثاني وحدة الجماعة وقوه تمسكها وولاية افرادها بعضهم بعض .

وقد قدمت الآيات الكريمة هذا الأمر وهو وحدة الجماعة ومهدت به لذكر الأمر الأول وكان أول ما طولب به الأفراد تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وقد طولبوا بهذا كله إن كانوا يحملون رسالة الإيمان فرسالة الإيمان تستلزم هذه المعاني استلزمها ضروريًا . قوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » سؤال لا يمكن أن يحيط المؤمن عنه إلا بالايحاب اذ ليس من السهل ان يتخلى المؤمن عن إيمانه واذا أجاب فلا بد من ان يحمل اعباء هذا الإيمان .

بدئت السورة الكريمة بالدعوة الى إصلاح ذات البين دعوة صريحة حاسمة وختمت السورة الكريمة بولاية المؤمنين بعضهم بعض : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آتوا ونصروا أولئك بعضهم اولياء بعض » والأية الكريمة في ختام السورة تقرر واقعا وفي تقرير هذا الواقع ابلغ اسلوب في فرضه والمطالبة بالتزامه ذلك ان تقرير هذا الواقع يدل على ان حل رسالة في الجماعة متوقف على هذه الولاية فإن وجدت وجد الإيمان وإن عدلت تعرضت هذه الرسالة لتصدع كبير .

اما الموضوع الأول وهو حل الرسالة فقد عالجته الآيات الكريمة بعد الدعوة الى التقوى واصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله وقد قرنت الآيات الكريمة بين الموضوعين وربطت بين السياقين وجعلت احدهما شبيها بالآخر إذ جاءت كاف التشبيه في الوسط تعلن مساواة احدهما للآخر قال تعالى « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لکارهون » . ثم انطلقت الآيات الكريمة في بناء حل الرسالة في نفوس الأصحاب بناء راسخا كاملا .

يقول الشيخ شلتوت في تفسيره : « بدأت السورة بموضوع الأطفال واختلافهم في قسمتها وسؤالهم عنها فساقت في ذلك أربع آيات عالجت بها نفوس المؤمنين وتطهيرها من الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع الى المادة » الى ان يقول : « ولأهمية هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السورة وان كان اختلافهم في قسمة الأطفال

متاخرًا في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدر وقتال الأعداء وقد عرفنا من سنته
القرآن في ذكر القصص والواقع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها ...»

على أن في موضوعنا هذا فائدة أخرى للبدء بمسألة الأطفال وهي المسارعة من أول الأمر بنتائج النصر الذي كفله الله للمؤمنين وليس من تربية النفوس أن نبدأ الكلام معها بما يدل على الاضطراب والفزع والتردد أمام وسائل العزة والشرف متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة فجاء البدء بالحديث عن الأطفال أشبه بما يقولون من «براعة المطلع» التي تشوق السامع وتدفعه إلى التحليل بالأوصاف المذكورة للمؤمنين حتى يفوزوا بالنصر والغلب .

ولا كذلك إذا بدأنا بعلاج تناقلهم في الخروج إلى الغزوة وانظر كيف يكون وقع المطلع إذا جاء على هذا الوجه «كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهو يتظرون» .

ونافق الشيخ رحمه الله على ما ذكر من عدم اهتمام القرآن بالترتيب الزمني والتربية الحديثة تعرف هذا الموضوع ولا تعطي الأهمية الكبرى في وضع المناهج وترتيبها للترتيب المنطقي ولكنها ترى اتباع ترتيب حيوي وذلك بالبدء من نقطة تحتل مركز الانتباه وتسيطر على اهتمام الأفراد وتوجه تفكيرهم .

وليس من عجب أن تهتمي التربية الحديثة بعد قرون متطاولة إلى بعض أمور يسيرة في التوجيه ووسائل التربية سار على نهجها القرآن في عصور لم تكن تعرف ثقافة ولا علمًا ، على أن الفارق ما يزال كبيراً جداً لقد استعمل القرآن الوسائل الصحيحة لأشرف الغايات وأجلها وتربية هؤلاء منها دقت أساليبها ليست إلا خدمة مبادئ وصفوها من ديمقراطية أو اشتراكية وغيرها لا تنطوي إلا على دمار البشرية .

كانت النقطة الهامة التي كانت موضوع الأخذ والرد في المعسكر الإسلامي كيف توزع الغنائم بين المقاتلين أيعطي الشبان ما وعدهم رسول الله ألم يسو بينهم وبين الشيخ ومن الطبيعي أن أفراد المعسكر جميعاً شاركوا في الاهتمام في الموضوع وإن كانت المناقشة دائرة بين قلة من الأفراد .

ومن هنا انطلقت الآيات الكريمة . فالموضوع كان موضوع الساعة بعد الموقعة والى جانب كونه موضوع الساعة كان من الأهمية بمكان ذلك أنه يهدد الجماعة وهدد الظفر الذي أصابته الجماعة ولذا كان حر يأ بأن ينال قسطه من الاهتمام وينجع مركز البحث وأول نقاطه ، وقد عالجته الآيات الكريمة معالجة قوية حاسمة ثم انتقلت الى الموضوع الثاني فأفاضت في معالجته .

كانت معالجة الغنائم سريعة ولكنها كانت بمنتهى القوة والخزم إذ أوضحت أن الموضوع موضوع إيمان فيما استمساك بالآيمان وإداء لشروطه وما اهمال وضياع لا يرضى بها المؤمن بحال ، ثم كانت معالجة ما وقع للمؤمنين من تردد في مقالة الموت واستجابة الله وللرسول وكانت معالجة ضافية تنوّعت فيها الأساليب وتعددت الأدلة وعرضت فيها خفايا النفوس وخليجات القلوب والأوضاع المختلفة والاحوال المتباينة حال المسلمين من قبل وحال المشركين مع رسول الله ومع المؤمنين وذكر ما امتن الله به على المؤمنين من اسباب النصر ثم نودي المؤمنون نداءات قوية متزلة من عل ألا يفروا من الموت اذا لاقوا الموت ، وبين الموضوعين جزء مشترك والتوجيه فيها مشترك والنداء واحد هو اليمان بالله ورسوله فهو يؤدي الى طاعة الله ورسوله والاستجابة لله ورسوله ، وهو يؤدي الى عدم تعلق العبد بالدنيا فـا عند الله خير وأبقى ولن يضيع الله تبارك اسماؤه عبداً يعمل في سبيله لن يضيعه في الدنيا ولا في الآخرة ، وعدم الخوف من الموت لأن تقديم المؤمن نفسه في سبيله تعالى اعظم شرف له وهكذا يدور البحث حول الجهاد بالنفس والمال وتقديم الأموال والأنفس وقد بدأت الآيات بتربية الجهاد بالأموال وثبتت بتربية الجهاد بالأنفس .

كان موضوع الغنائم بعد انتهاء المعركة موضوع الساعة ومن طبيعة النفوس بعد الظفر الذي لم تكن تعلم به والغلبة على العدو التي لم تكن تتوقع من طبيعة النفوس ان تدركها نشوة الظفر وان يكون هذه النشوة شيء من الأثر باعتراضاها بما صنعت واعجابها بما قدمت ولعل من آثار ذلك ونتائجها ما وقع بين الأصحاب من سؤال ونقاش .

ولهذا لتجربة يمر بها الأصحاب رضوان الله عليهم لابد من الاستفادة منها كان الذي حصل أثراً من آثار غريرة الحرص وغريرة الاستعلاء وكانت العوامل المساعدة له من نوعين احدهما الحاجة الملحة التي كانت تضع ثقلها على الأصحاب جميعاً وثانيهما اعتزاز الفرد بما قدم من بلاء حسن .

وعلى الآيات الكريمة ان تصرف هذه الغرائز عن وجهتها وان تصعد بها فتبدها برغباتها رغبات اسمى منها .

الآيات الكريمة تذكر هذه النفوس بiamانها بالله ربه وهنا تذوب الرغبات وتضمحل النزعات وتتضاءل الدنيا ويصغر الاعتزاز بكل شيء سوى الاعتزاز بما عند الله .

الأنفال الله ، والرسول ، يضعها حيث شاء ويزعها كيف يشاء فأريحوا قلوبكم من العناء في التفكير فيها ، ووجهوا همكم لأمر أعلى وأكبر ، وجهوا همكم إلى بناء الجماعة التي تنتسبون إليها ليكون بناء قوياً متماسكاً يواجه الدهور ويواجه الناس جميعاً إن تفكيركم وحده بالأطفال تنزل عن مرتبة الإيمان الرفيعة التي يجب أن تتبوأوها (فاقتوا الله) واعلموا أن مثل هذا التفكير يعرض بنيان جاعتكم بشيء من التصدع (فاقتوا الله) وانزعوا عن مثل هذا التفكير (واصلحوا ذات بينكم) .

وماذا فعلت هذه الآيات في قلوب أصحاب رسول الله ؟ لقد انتزعت بلا ريب كل حرص وكل خلاف وسمت بالقلوب الكريمة إلى أمر أجل وأعلى .

وكان من بعد هذه الآيات الكريمة وصف لما تم في المعركة من كراهية فريق من المؤمنين للقتال ، واستغاثة واستجابة وإمداد بالملائكة ونصر وكان من بعد ذلك نداءات من عند الله موجهة إلى الذين قبلوا الإسلام ديناً وحملوا راية الإيمان ودعاة الإيمان وكانت نداءات متكررة كل نداء فيها يصعد الجبال .

ترى ماذا فعلت هذه النداءات في قلوب الأصحاب الكرام ؟ كانت نتيجة هذه التربية ان هانت الدنيا وهانت الأموال وهانت النفوس وعز الإيمان وعزت العقيدة وارتفعت القلوب وتآخي المؤمنون .

التقوى جام الخير كله
قال تعالى «فاقتوا الله»

كان أول ما دعي إليه الأصحاب رضوان الله عليهم بعد أن اعلموا بأن الانفال الله والرسول تقوى الله والتقوى جام الخير كله وهي وصية الله في الأولين والآخرين والأمر بها شأن عام على ألسنة جميع الرسل وموجبات تقوى الله والخوف منه عامة في جميع الأمم

وبذلك التقت الرسل او لهم مع آخرهم على قوله تعالى أفلأ تنقوش ، فاتقوا الله واطيعون .

ومعنى اتقاء الله تعالى اتقاء عذابه وعقابه واما تضاد التقوى الى الله تعالى تعظيمها لأمر عذابه وعقابه .

ودفع عذاب الله باجتناب ما نهى واتباع ما أمر وذلك يحصل بالخوف من العذاب ومن المعدب يقول السيد رشيد رضا : « ان العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه عقاب في الدنيا وعداب في الآخرة وكل منها يتقدى بتجنب أسبابه وهي نوعان : مخالفه دين الله وشرعه ، ومخالفه سنته في نظام خلقه الى ان يقول : وذلك مبين في كتاب الله وسنته رسوله صلى الله عليه وسلم وافضل ما يستعان به على فهم الكتاب والسنة واتباعها سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء الأمصار .

شأن المؤمن ان يتقي الله حق تقائه

يقول ابن كثير عند قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقائه » قال ابن ابي حاتم حدثنا محمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن عن سفيان وشعبة عن زيد اليمامي عن مرة عن عبد الله بن مسعود (اتقوا الله حق تقائه قال ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر) .

يقول ابن كثير وهذا اسناد صحيح موقف (١)

يقول ابن كثير وقد روی الحديث ابن مردویة (٢) من حديث يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سفيان الثوري عن زيد عن عبد الله قال : قال رسول الله (١) : اما رجال استناده فهم محمد بن سنان الباهلي و هو ثقة ثبت (خ د ق ت) و شعبة بن الحجاج الحافظ المتقن كان الثوري يقول فيه امير المؤمنين في الحديث (ع)

وزيد اليمامي ثقة عابد (ع) ومرة بن شرا حيل الهمданی هو الذى يقال له مرة الطيب لصلاحه وهو ثقة عابد (ع) وهو الذى يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول ابن كثیر وقد تابع مرتاً عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود وعمرو بن ميمون الأودی مشهور ثقة عابد (ع) . جاء في تفسیر ابن کثیر حدثنا عبد الرحمن بن سفيان وهذا خطأ وصوابه عبد الرحمن وهو ابن مهدی عن سفيان وهو الثوري

(٢) : الحافظ الثبت العلامة صاحب التفسير والتاريخ وعمل المستخرج على صحيح البخاري وكان فيما

صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويدرك
فلا ينسى » (٣)

قال ابن كثير: ورواه الحاكم في مستدركه (٤) من حديث مسعود عن زيد عن مرة
عن ابن مسعود مرفوعاً فذكره ثم قال صحيح (٥) على شرط الشيدين ولم يخرجاه كذا قال
« والأظهر أنه موقوف والله أعلم » (٦).

= بمعرفة هذا الشأن بصيراً بالرجال طوبيل الرابع مليح التصانيف - ٣٢٣ - ٤١٠

(٣) وهذا الاستناد أسناد صحيح أيضاً فيونس ثقة م س ق عبد الله بن وهب صاحب مالك فقيه ثقة
حافظ عابد (ع) مدار السندي على زبيد عن مرة أيضاً

(٤) في كتاب التفسير ٢٩٤ / ١٢

(٥) ووافقه الذهبي

(٦) وأقول: قد وافق الذهبي الحاكم في تصحیح الحديث وأنه على شرط الشيدين وأما قول ابن كثیر
«الأظهر أنه موقوف» فالذی یبدو ان الذی حمله على ذلك ان مدار الحديث في كل روایاته على مرأة بن
شراحیل فهو الذی رواه عن عبد الله بن مسعود واکثر الرواۃ عنه وقد ذکرهم ابن جریر الطبری قد روا
الحديث موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضی الله عنه.

والفرق بعيد بين أن يكون الحديث من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام فهو من مشكاة النبوة
وعليها حينئذ أن نأخذ به على أنه شرع من عند الله معصوم من الخطأ وبين أن يكون من كلام الصحابي
 فهو فهم للصحابي رضي الله عنه لكلام النبوة ومعانی النبوة وإذا ثبت أن قوله من فهم الصحابي ورأيه
واجتهاده فليس الأخذ به واجباً وليس العصمة له من الخطأ ثابتة، وكان الإمام أحمد رحمه الله إذا وجد
لبعض الصحابة فتوى لا يعرف له مخالف فيها لم يعدها إلى غيرها فإذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما
كان أقربها إلى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم . يقول ابن القيم في أعلام الموقعين (ج ١ ص ٨٠).
قال الشافعي رحمه الله في رسالته البغدادية التي رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني عن الصحابة
رضوان الله عليهم .

أدوا علينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله
صلى الله عليه وسلم عاماً وخاصة وعزاً وارشاداً وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهناً ، وهم فوقنا في كل علم
واجتهاد وورع وعقل وأمراً استدرك به علم واستنبط به وآراؤهم لنا أحد وأولى بنا من رأينا عند
أنفسنا....

أقول: الذي یبدو ان الذی حل ابن كثیر على قوله الأظهر وقف الحديث السابق على عبد الله بن
مسعود رضي الله عنه أن اکثر الرواۃ رروا الحديث عن مرأة بن شراحیل موقوفاً على عبد الله بن مسعود

وقال القرطبي :

روى البخاري عن مرة عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر وقال ابن عباس هو الا يعصى طرفة عين ، وذكر المفسرون انه لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل « فاتقوا الله ما استطعتم » فنسخت هذه الآية ، عن قتادة والربيع وابن زيد يقول القرطبي : وقيل ان قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » بيان لهذه الآية والمعنى فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم يقول القرطبي وهذا أصوب لأن النسخ اما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى .

وقال ابن الجوزي ^(١) قال ابن عقيل ليست منسوبة لأن قوله ما استطعتم بيان لحق تقاته وأنه يحسب الطاقة فن سمى بيان المراد نسخا فقد اخطأ ، وهذا في تحقيق الفقهاء تفسير محمل وبيان مشكل . وذلك ان القوم ظنوا ان ذلك تكليف ما لا يطاق فأزال الله إشكالهم وبين أنه جل شأنه لم يرد بقوله تعالى (حق تقاته) تكليف ما ليس في الطاقة وقال ابن الجوزي في « عمدة العالم الراسخ والناسخ » في الآية قولان : أحد هما أنها منسوبة والى هذا ذهب الربيع بن انس وابن زيد ومقاتل بن سليمان ومن نصر هذا القول قال : حق تقاته هو القيام له جل شأنه بجميع ما يستحقه من طاعته واجتناب معصيته قال وهذا امر يعجز الخلاائق فكيف بالواحد فوجب ان تكون منسوبة وان يعلق الأمر بالاستطاعة .

والقول الثاني انها محكمة ومن نصر هذا القول قال حق تقاته هو اجتناب ما نهى عنه وامتناع ما امر به ولم ينه عن شيء ولا امر بشيء الا وهو داخل تحت الطاقة فقد فهم الأولون من الآية تكليف ما لا يطاق فحكموا بالنسخ ، وقد رد عليهم قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

ويقول ابن جرير الطبرى اختلف اهل التأويل في هذه الآية : اهي منسوبة ام
رضي الله عنه إلا الشورى عند ابن مردويه ومسمرا عند الحاكم فقد روى الحديث كلاما عن زيد عن مرة عن عبد الله مرفوعا إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه والشورى ومسمرا ثقنان لا يتوقع منها الوهم وقد روى الحديث مرفوعا فال الأولى قبول روایتها وذلك هو مذهب المحدثين
(١) : انظر دليل الفالحين ١/٢٤١

لا ؟ فقال بعضهم هي محكمة غير منسخة وعزا ذلك بأسناده إلى ابن عباس وطاوس .

وقال آخرون هي منسخة نسخها قوله تعالى «فاتقوا الله ما استطعتم»

وعزا هذا القول بأسناده إلى قتادة ثم الربيع بن انس ثم زيد ولم يقدم في ذلك رأيا . ويقول الشيخ احمد محمد شاكر رحمه الله في تعليقه :

ترك ابو جعفر رحمه الله ترجيح احد القولين على الآخر وكان حقا عليه ان يبينه وقد بينه ابو جعفر النحاس ^(١) في الناسخ والمنسخ (٨٩ ، ٨٨) قال بعد ان ساق الأثر الذي جاء فيه عن عبد الله (اتقوا الله حق تقاته) قال «ان يطاع فلا يعصى ويدرك فلا ينسى ويشكر فلا يكفر» وبعد رواية قول قتادة في النسخ قال ابو جعفر : محال ان يقال هذا ناسخ ولا منسخ الا على حيلة وذلك ان معنى نسخ الشيء إزالته والمحيء بضده فحال ان يقال «اتقوا الله» منسوخ ولا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم مما فيه بيان الآية كما قرأ على احمد بن محمد بن الحجاج عن يحيى بن سليمان قال حدثنا ابو الأحوص قال حدثنا ابو اسحاق عن عمرو بن ميمون عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معاذ اتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت الله رسوله اعلم . قال ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ^(٢) أفلأ ترى انه محال ان يقع في هذا نسخ ...

قال ابو جعفر فكل ما ذكر في الآية واجب على المسلمين ان يستعملوه ، ولا يقع فيه نسخ ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم «ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا» وكذا على المسلمين كما قال ابن مسعود «ان تطعوا الله فلا تعصوه ، وتذكريوه فلا تنسوه وان تشكريوه فلا تكفروه ، وان تجاهد فيه حق جهاده»

واما قول قتادة مع محله من العلم انها نسخت فيجوز ان يكون معناه نزلت (فاتقوا الله ما استطعتم) بنسخه (اتقوا الله حق تقاته) وانها مثلها لأنها لا يكلف احدا الا طاقته .

(١) : (٥٣٨—٠٠) احمد بن محمد بن اسماعيل مفسر اديب له تفسير القرآن ، اعراب القرآن ، ناسخ القرآن ومنسخه

(٢) : عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حارف قال لي يا معاذ اتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قلت الله رسوله اعلم قال حق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله الا يعذب من لا يشرك به شيئا قلت يا رسول الله افلأ ابشر الناس قال لا تبشرهم فتكلوا . اخرجاه في الصحيحين .

قال القرطبي :

« وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته لم تنسخ ولكن حق تقاته ان يجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم وتقوموا بالقسط ولو على انفسكم وابنائكم ».»

من صفات المتقين الإيمان بالغيب

كان اول ما دعى اليه اصحاب رسول الله في التربية القرآنية بعد سؤالهم عن الأنفال « تقوى الله ». وخير تعریف للمتقين ما جاء في كتاب الله فقد قال تعالى : « هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب »

وقال تعالى « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »

فن صفات المتقين انهم يؤمنون بالغيب ومن صفاتهم انهم اذا ألم بهم طائف من الشيطان ليحملهم بوسوسته على معصية او لينزع بينهم لايقاع الخصومة والتفرقة تذكروا ان ذلك من عدوهم الشيطان واغواهه وتذكروا ما امر الله به في هذه الحال من الاستعاذه بالله والالتجاء اليه وتذكروا ايضا ما امر الله به وما نهى عنه وتذكروا وعد الله ووعيده ما وعد به المتقين وما توعده به العاصين وتذكروا عقابه جل شأنه وجزيل ثوابه .

يتذكر العبد المؤمن فإذا هو مبصرأى ذو بصيرة وعلم يربأ بنفسه ان يكون فريسة للشيطان أو يقع في بعض أحابيله ، وان الشيطان انا تأخذ وسوسته الغافلين عن انفسهم الذين لا يحاسبونها على خواطرها الغافلين عن ربهم لا يراقبونه في اعمالهم .

يقول السيد رشيد رضا في تفسيره الآية الكريمة :

« ولا شيء اقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب ومراقبته جل شأنه في السر والجهر ، واذا وجد الشيطان بالغفلة مدخلًا الى قلب المؤمن المتقى لا يلبث ان يشعر به لأنّه غريب عن نفسه ومتى شعر ذكر فأبصر فخنس الشيطان وابتعد عنه وان اصاب منه غرة قبل تذكرة تاب من قريب ».»

وهكذا وصف الله جل شأنه المتقين بأنهم يتذكرون والتعبير بذلك الفجائيه يفيد سرعة رجوعهم الى الحق والى الخير وسرعة ادراكهم للموقف وما يحيط به وشعورهم بأنهم اشرفوا

على حافة الانزلاق ، وهذا الادراك للموقف يغير وضع المؤمن في الحال وتنقلب النفس التي كان الشيطان آخذًا باغوائها وترى من المحرم لها إلى نفس يقطة تلوم صاحبها على ما كان منها وتنظر إلى الأمر الذي اغريت به فتراه على حقيقته أسود كرهاً وتراه سبباً في شقائصها فتسرع إلى تحببه لتجومن الشر ولتنصرف بكل عزيمتها إلى الخير.

هذا التذكرة الذي وصفته الآية الكريمة ليس أمراً يسيراً وليس بمقدور النفوس جيئاً إذا تصدى الشيطان لاغوائها فأصنعت اليه ان تعني امرها وتتذكرة رها ، فهناك نفوس شريرة عاتية لا ترى أن تتذكرة أبداً بل هي تسخر من يذكرها وما تذكرة وهذه هي النفوس الكافرة الفاجرة وهي شر من الدواب والبهائم وهنالك نفوس كنفوس الأطفال لا تملك أن تدفع عنها سلطان الشهوة المسيطر عليها ومثل هذه النفوس لا تتذكرة وحدها أبداً وهي بحاجة إلى من يذكرها ويروضها ويدرها .

وهنالك النفوس المؤمنة الوعية المدركة التي مرت بها التجارب وحنكتها الدروس والمواعظ هذه تكون سرعة التذكرة سرعة الفيء إلى طاعة الله ورسوله وتفاوت هذه النفوس في سرعة رجوعها إلى الحق وفي نقاط الضعف لديها في بعضها مثلاً سرعة الفيء إذا دعنته داعية إلى الحرص على المال ولا يتذكرة بالسرعة نفسها إذا دعنته داعية شهوة جنسية وبعضها يتذكرة في هذه وفي تلك ولكنه ينسى تمام النسيان إذا غضب أو مستكرامته ولا بد للمؤمن من أن يكون له بصيرة ينظر فيها إلى نفسه وإلى اخطائه وعيوبه نظرة الباحث الناقد المحصن المنصف ولا بد له من معالجة نفسه بأنواع العلاج ، وتجربة الألم وخز الضمير.

ومن كل هذا يتبين أن الموضوع يحتاج إلى دربه وإلى خبرة فقد يقع من الشاب المؤمن أن يتذرع عليه في أول أمره غض بصره وصرفه عن النظر إلى محرم ولكنه لا يزال إذا كان مؤمناً ، يؤذيه حاله ذلك ويؤله ، ولا يزال يبحث عن الأسباب التي توقعه في هذا المحرم حتى يستطيع أن يتغلب على الأمر المشكل تغلباً تاماً ، وكثيراً ما يحتاج الشيطان بمحيلة يسوع فيها للمرء الوقوع في المنكر كأن يقول له انت تنظر إلى هذه الفتاة لأن لك رغبة في خطبتها وفي مثل هذه الأحوال كثيراً ما ينجح الشيطان في إغوائه فينقله من فتاة إلى فتاة وهنا يحتاج الموقف إلى النظر الحصيف والرأي السديد وإن يقول المرء لنفسه هذا اسلوب

ملتو والحزم ان تترك الطرق الملتوية وتطلب الحجه البيضاء والجاده الواضحة المستقيمة .

كل هذا يدل على أن التقوى ليست كما يظن الناس مظهر خاشع وسلوك متواضع ولكنها خبرة ودرية ورياضة طويلة يسير بها العقل الحصيف الناقد ويقترن بها الوجدان النقي والارادة الحاسمة .

هناك مواطن يتتبّس فيها الأمر على المتدين أهي حلال أم حرام وهنالك مواطن يظنها الظان أنها وسائل إلى الخير وهي محمرة والقاعدة المشهورة «الوسيلة تبرر الغاية» قاعدة خاطئة تزل فيها الأقدام وتخدع المرء عن نفسه وقد قال عليه الصلاة والسلام (من اتقى الشبهات فقد استبراً لدینه) . وهنا يحتاج المرء إلى عقل حصيف ووجدان نقي وارادة نافذة فإذا تمت للمرء هذه كلها تمت له التقوى .

وهكذا تنصّص تقوى المرء لنظره القاصر وضعف تقادره للأمور وكثيراً ما يكون هذا النظر القاصر بسبب غلبة الهوى و يكون العقل في هذه الحال مسخراً للهوى يدللي بالحجج التي يميلها الهوى و يكون عاجزاً عن رؤية الحق أو على الأصح يكون عاجزاً عن إظهار الحق لأن سيطرة الهوى غالبة ومعنى ذلك أن وجدان هذا الإنسان قد اعتراه خلل واحتلت فطنته النقيّة التي شأنها أن تميز الخير من الشر .

وقد يكون نقص التقوى لضعف الارادة وفشل العزيمة وهذه مردّها أيضاً إلى غلبة الرغبات وسلط الهوى .

وكل ما سبق يحتاج إلى دراية ورياضة فالوجدان تزيده التربية وضوها ونقاء وتزيد يده قدرة على التمييز بين الخير والشر وتزيد يده قدرة على التعليق بالخير والانصراف عن الشر وهذه التربية التي تربى هذا الوجدان لا يتم لها ذلك إلا بتربيّة العقل وتدرّبّيه على ادراك خفايا الأمور ودقائقها وكوامّها وكل ذلك يتم معه تربية الارادة .

وهكذا يظل المؤمن في علاج نفسه وجهاً لرغباته واهوائه حتى ينتهي به الأمر إلى أن تصبح التقوى مغروسة في نفسه وتتصبّع خلقاً من اخلاقه وسجية من سجايّاه ، وهنا يدرك ثمرة تقواه في أيامه كلها وهنا يرهف احساسه ويسمو وجدانه فيصبح سريع الادراك لمواطن الخير ولمواطن الشر خبيراً كل الخبرة بالتمييز بينها ويصبح طبعه الخير وهواء

مع الخير وكراهيته للشر ونفوره منه و يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

هذا المعنى جاء في قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا و يکفر عنكم سیئاتكم و يغفر لكم والله ذو الفضل العظيم »

قال ابن كثير: قال ابن عباس والسدى ومجاہد وعکرمة والضحاك وقناة ومقاتل بن حسیان فرقانا مخرجا زاد مجاهد في الدنيا والآخرة وفي رواية عن ابن عباس (فرقانا) نجاة وفي رواية عنه نصرا . وقال محمد بن اسحاق و (فرقانا) اى فصلا بين الحق والباطل .

يقول ابن كثير: وهذا التفسير من ابن اسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله فان من اتقى الله بفعل اوامره وترك زواجره وفق لمعارفه الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من امور الدنيا وسعادته يوم القيمة وتکفير ذنوبها وهو محوها ، وغفرها سترها عن الناس .

وسبيلاً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى :
« يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يوئکم كفلين من رحمه يجعل لكم نورا تمثون به و يغفر لكم والله غفور رحيم »

الکفل : الحظ والتثنية إما على حقيقتها او هي كنایة عن المضاعفة .
والنور هو ما يبصر من عمي الجهالة والضلاله ويكشف الحق لقادمه .

ثمرة التقوى

هذه ثمرة التقوى و نتيجتها في النفوس ملكة راسخة في النفس تستطيع بها الفصل بين الحق والباطل وتوفيق من الله لمعرفة الحق من الباطل ونور يبصرها بأوصاف الجاهلية وينفذها من عمي الجهالة والضلاله ويكشف لها الحق .

هذه ثمرة التقوى رؤية الحق حقا ورؤيه الباطل باطلا ، وقد يحسب الناس ان ذلك امر يسير ومن ابصر ما عليه المسلمين اليوم من اعمال الجاهلية وهم مستهينون بها يحسبون أنها لا تضر العقيدة ولا تخالف الدين الصحيح ، من رأى ما عليه المسلمون من عدم تمييز بين الحق والباطل عرف قيمة هذا المعنى وجليل خطره .

لا يزال العبد يتقي و يروض نفسه على التقوى حتى يصل الى ثمرة التقوى وهي نور
يميز فيه بين الحق والباطل و يرى فيه الحق حقاً والباطل باطلًا .

وال المسلمين اليوم أصبح الحق الذي بأيديهم مما نزل الله شبيها بالباطل بأعين الناس
لعدم ادراكهم لحقائقه و مراميه وعدم تمييزهم بين صحيحه و زيفه .

التفوى هي ادراك دقيق ورأي حصيف و وجدان نقى يميز بين الخير والشر وارادة خيرة
تلتزم جانب الحق و تعمل في سبيل الخير .

أمر المؤمنون بعد موقعة بدر بأن يتقوا الله وجعل ذلك مهدًا للأمر بالصلاح ذات الدين
وأمر المؤمنون في آل عمران وقد نزلت في السنة الثالثة من الهجرة بأن يتقوا الله حق تقاته
وان يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا .

وأمر المؤمنون في سورة الحج بأن يجاهدوا في الله حق جهاده قال تعالى : « وجاهدوا
في الله حق جهاده هو اجتباككم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيك ابراهيم
هو سماكم المسلمين من قبل » .

وكلمة (حق الجهد) و (حق التقا) اصلها جهاداً حقاً وتقاة حقاً وقد أضيف الحق
إلى الجهد للمبالغة وليدل التركيب على القيام بالجهاد بكل شروطه ومستلزماته على
وجه التمام والكمال بقدر الطاقة ، ومثل كلمة حق (كل) و (جد) فيقال انت عالم كل
عالم وجد عالم وحق عالم وكلها تفيد انه يجتمع فيه من الخلال ما تفرق في الكل وأن ما
سواه باطل أو هزل .

وهكذا يأمرنا جل شأنه ان نبذل جهودنا ونستفرغ وسعنا في العمل في سبيله في
الجهاد والتقوى (١) ، والإيمان والجهاد والتقوى تلتقي هذه كلها في صعيد واحد فقد روى
علي بن ابي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ان تجاهدوا في
الله حق جهاده ولا تأخذوا في الله لومة لائم ، وتقوموا بالقسط ولو على انفسكم وآباءكم
روى هذا الأثر ابن جرير الطبراني ورواه أبو جعفر النحاس ورواية علي بن ابي طلحة
عن ابن عباس من اجود الطرق .

(١) : غرض التربية أن تصل بالفرد إلى نتيجة يمكن الحصول عليها وأكبر ثمرة يمكن أن يقدمها ولا
يتحقق ذلك إلا بالاعتدال وليس الغرض من أن يستفرع المرء جهده أن يمحف نفسه وينبه قواه ولكن
الغرض أن يستخرج بالدأب والتنظيم خيراً ما عنده وأكمل ما عنه

وابن عباس في هذا يبين ان حق التقاة هي الجهد في الله حق الجهد ومن ذلك الصدع بالحق والدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون خشية ظلم ظالم أو بطش جائر.

أمرنا الآيات الكريمة ان نستخرج طاقاتنا الدفينة وقوانا الكامنة لتبذل في سبيل الله ومن عجب ان يذهب بعض المفسرين من المتقدمين أو المتأخرین الى أن كلا الآيتين منسوخ بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم ولقد نقلنا قول القرطبي من قبل في ذلك .

وفي قوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) يقول القرطبي قال ابن عطية : قال مقاتل وهذه الآية منسوبة بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) .

لأنسخ في الآيتين

يقول القرطبي هنا ولا حاجة الى تقدیر النسخ فان هذا هو المراد أول الحكم لأن حق جهاده ما ارتفع عنه الحرج يقول القرطبي وقال ابو جعفر النحاس وهذا مما لا يجوز ان يقع فيه نسخ لأنه واجب على الانسان .

ونحن مع ابي جعفر النحاس بان مثل قوله تعالى (فاتقوا الله حق تقاته) وقوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) لا يجوز ان يقع فيه نسخ لأنه كما قال ابو جعفر من حق الله على عباده وهو مثل قوله عليه الصلاة والسلام أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .

إن حقه تعالى أن نعبده وأن نجاهد في سبيله وان نبذل في كل ذلك غاية وسعنا وليس شيء من ذلك فوق حدود الطاقة وليس شيء من ذلك بالغ حد الحرج .

يرى ابو جعفر النحاس أن قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) هي كقوله تعالى (فاتقوا الله حق تقاته) وقد نزلت الآية الأولى بنسخها وهي مثلها بنسختها لا بنسخها .

ونحن نأخذ هنا ايضا بقول النحاس بأن الآيتين تؤديان غرضان واحداً ومعنى واحداً فقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم أي ما أطقم وبلغ اليه جهداكم وطاقةكم وقال القاسي أي جهداكم ووسعكم أي ابذلو فيها استطاعتكم .

نقول حق الله تباركت اسماؤه ان نجاهد في سبيله ونبذل في ذلك اقصى طاقتنا

ونتقيقه ونبذل في تقواه غاية وسعنا وهذا شأن المؤمن الذي آثر جانب الله جل شأنه على كل شيء سواه وانا نشاهد ان إنساناً يتبع إنساناً ويفرق في حبه واتباعه فيلقى بنفسه في المهالك في سبيله ويعمر إنسان بموضع أو بحث علمي ويستغرق فيه فينسى نفسه وينسى متعه ويعيش لبحثه ويصبح ذلك همه الذي يشغله وتتصبح تلك سعادته وتتضاءل الأمور جيئا الى جانب همه ، والمؤمن تعلقه بالله ووجهته الى الله وهو حين يقوى ايمانه وتهيمن عقيدته على قلبه تهون الدنيا في نظره ويهون المال ويهون الولد وتهون نفسه عليه في سبيل خالقه ، وهنا تمحي العقبات وان كانت كاجبال ، وهنا تتعلق طاقات المؤمن فيقدم من الأعمال ما لا يستطيع أن يقوم به عشرة وعشرون بل مائة من الرجال ، ان استطاعة هذا الانسان مرنة ، وانه في الساعة التي يقول فيها هنا ينتهي جهدي ربما دخل في الموضوع جديد فاذا الجهد غض والنشاط جديد ، توتر نفسي وانفعال حركي في سبيل حمل الرسالة (رب اشرح لي صدري) .

وإذا غلبت العقيدة على القلب اصبح المؤمن انسانا آخر واصبح لا يقف في وجهه شيء .

تشمر التقوى طاعة الله وذكر الله وشكر الله ويصبح التقى طائعا لا يعصي، ذاكرا لا ينسى ، شاكرا لا يكفر وتشمر التقوى الجهاد في سبيل الله فيجاهد المتقي في الله حق جهاده ولا تأخذه في الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه وآبائه وابنائه وتشمر التقوى التذكرة عند الإشراف على خطيبة والنظر في الأمور نظرة مبصرة وذلك يؤدي الى الإقلاع عن الخطأ والرجوع الى مرضاة الله واكتبر ثمارتها نور يقذف في قلب المتقي يميز به الحق من الباطل ويرى به الخير من الشر .

وهكذا تدخل التقوى في مجالات الحياة كلها في حالة وجود الفرد وحده او مع اهله وبنيه وفي حالة وجوده في عمله وقيامه بواجباته واتصاله باخوانه وفي انصافه من نفسه وفي سعيه لوحدة الجماعة التي يعيش في كنفها .

ولقد كان ما وقع بعد موقعة بدر من مطالبة الشبان بما وعدهم رسول الله عليه صلوات الله ومعارضة بعض الشيوخ لذلك ، كان ما وقع مما يمكن ان يهدد الجماعة الناشئة الظافرة ولذلك بادرت الآية الكريمة الى تذكير المؤمنين بتقوى الله ، ولقد سمع المؤمنون الكثير عن

تقوى الله سمعوا كل ما سبق ذكره ، ففاؤوا الى امر الله والى طاعة الله . كان الأمر الأول تقوى الله وكان الثاني اصلاح ذات بينهم وكان الثالث اطاعة الله وقد رأينا أن طاعة الله ثمرة من ثمرات التقوى واصلاح ذات البين ثمرة لكل من التقوى والإطاعة ، فكان الغرض الأساسي من الآيات الكريمة هولفت المؤمنين إلى مكانة جمع الكلمة ووحدة الجماعة باصلاح ذات بينها .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

كان الهدف هذه القلوب التي تنازعـت على الأنفال هو الهدف بتقوى الله . ان التقوى زمام هذه القلوب الذي يمكن ان تقاد منه طائعة ذلة في يسر وفي هوا ... وهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب الى اصلاح ذات بينها : فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وهذا الزمام يقودها الى طاعة الله ورسوله .

«واطیعوا الله ورسوله» «ان كنتم مؤمنین» :

ويقول ايضاً : «فلا بد لليمان من صورة عملية واقعية يتجلـى فيها ليثبت وجوده ويترجم عن حقيقته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الإيمان باللـئني ولا بالتحـلي ولكن ما وقـر في القلب وصدقـه العمل» . انتهى قوله

والتحـلي هو التـزيـن بالقول والمعنى ان الإيمـان ليس بالقول الذي تـظـهـرـه بـلـسانـك فحسب ولكن يجب ان تتبعـه معرفـة القـلـب ^(۱) .

واصلاح ذات البين معناه اصلاح الأحوال التي بين افراد الجماعة واصرـحـها السـيـرـهاـ على ما يحب الله ويرضاـهـ من وفاق وتعاون ومواسـاةـ وحبـ وإـشـارـوكـلـ ذلك يستلزم الإـعراضـ عن الأـهـوـاءـ والأـغـارـضـ والـشـهـوـاتـ الفـرـديـةـ .

وذات البين هي الحال والصلة التي بينـكـم تربطـ بعضـكمـ بعضـ وهي رابـطةـ الاسلام

(۱) : جاءـ فيـ فـيـضـ الـقـدـيرـ الـحـدـيثـ يـقـولـ العـلـائـيـ فـيـ حـدـيـثـ مـنـكـرـ تـفـرـدـ بـهـ عـبـدـ السـلـامـ بـنـ صـالـحـ الـعـابـدـ قـالـ قـالـ النـسـائـيـ عـنـهـ مـتـرـوكـ وـقـالـ اـبـنـ عـلـىـ جـمـعـهـ ضـعـفـهـ يـقـولـ العـلـائـيـ لـقـدـ رـوـيـ مـعـناـهـ بـسـنـدـ جـيـدـ عـنـ الـحـسـنـ مـنـ قـوـلـهـ وـهـوـ صـحـيـحـ . أـ هـ ، فـالـحـدـيـثـ لـيـسـ مـنـ حـدـيـثـ رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ صـلـوـاتـ اللـهـ وـلـكـهـ مـنـ قـوـلـ الـحـسـنـ الـبـصـرـىـ .

والبين يطلق في اللغة على الاتصال والافتراق وكل ما بين طرفين كما قال تعالى «لقد تقطع بينكم^(١)» وهذه الرابطة تسمى ذات البين .

وقد امرنا باصلاح ذات البين في كتاب الله وفي سنة رسوله فهو واجب شرعاً يتوافق عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها .

وقد امر الله باصلاح ذات البين في مواطن كثيرة في الأسرة بين الزوجين قال تعالى «وان تحفتم شقاق بينها فابعثوا حكماً من أهلها وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان علياً خيراً» .

وامر جل شأنه باصلاح ذات البين في الجماعة المؤمنة اذا وقع نزاع بين طائفتين فيها وبين جل شأنه انه لابد من فض النزاع ولو ادى الأمر الى قتال الفئة الباغية قال الله تعالى : «وان طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينها فإن بعثت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تغىء الى امر الله فان فاعلت فأصلحوا بينها بالعدل واقسّطوا ان الله يحب المحسنين اما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» .

ومن العوامل الهامة في اصلاح ذات البين اليوم تربية الأبناء تربية اسلامية صحيحة لينشئوا على الامان والتقوى فهذا العامل الأساسي في جمع القلوب وربطها والتأليف بينها ، لقد علم الباحثون الاجتماعيون انه لا شيء يؤلف بين القلوب مثل العقيدة والامان بالله ، فلقد وصفوا العقيدة بأن صاحبها لا يهدأ ولا يعرف استقرارا حتى يؤمن الناس جميعاً بعقيدته قال تعالى : «لو انفقتم ما في الأرض جميعاً ما ألتفت بين قلوبهم ولكن الله ألم بهم» .

وما ألم بهم إلا عبادة الله وحده . المؤسف جداً أن معاني الاسلام اليوم في البلاد الاسلامية كلها ذاوية باهتة والدعوات الدخيلة المعادية القائمة على عبادة غير الله يجد دعاتها مرتعها خصباً في الديار الاسلامية لأن حراسها غافلون ، ويستل إبناء الاسلام من

(١) : قال صاحب اللسان البين في كلام العرب جاء على وجهين : يكون البين الفرق و يكون الوصل وهو من الأضداد ، وفي التنزيل العزيز لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم تزعمون قرئ بينكم بالرفع والتنصب فالرفع على الفعل اي تقطع وصلكم والتنصب على الحرف يريد ما بينكم . قال ابن سيده : من قرأ بالتنصب احتمل احدهما أن يكون الفاعل مضمراً اي لقد تقطع الأمر او العقد او الود بينكم .

دعوة الاسلام ويصبحون معادين لتعاليه مناوئين لمبادئه وتصدح وحدة الأمة ويتمزق شملها .

وعد الله القائمين بالإصلاح بالأجر العظيم ، قال تعالى : « لا خير في كثير من خواهم الا من امر بصدقه او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

وسكوت الأمة عن الاصلاح وهي قادرة عليه اشد اثنا واعظم ذنبا من ذنب المفسدين انفسهم فيما يجره على الأمة من ويلات ولذلك قيل بحق « الساكت عن الحق شيطان اخرس » .

وقوله تعالى « ان كنتم مؤمنين » معناه ان كنتم مؤمنين امتنعوا الأوامر الثلاثة لأن الامان يقتضي ذلك كله و يستلزم فلا بد من تقوى ولا بد من طاعة ولا بد من اصلاح ذات البين .

فإن وقع بعد الذي سبق في نفس سائل ألاميان هذا السلطان على النفوس قيل له : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياتهم زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون .

فقوله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » جملة مستأنفة جيء بها لبيان حال المؤمنين الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى « إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » كالدليل بالنسبة للدعوى أما الدعوى فهي أن من مستلزمات الامان التقوى والطاعة والصلاح والدليل على ذلك ان المؤمن اذا ذكر الله ، وذكر عظمته التي لا تخدع وقدرته التي تعجز المعقول عن إدراك مدى سلطانها اقشعرت جلدته ووجل قلبه وفاضت عيناه خوفا ورهبا وخشية وخشوعا وحبا ورجاء وكان من شأنه أنه أسرع ما يكون في طاعة الله والاستجابة اليه ، وهذا الوصف في الآية التالية إنما مساو للوصف الأول يعني ان الذي يوجل قلبه اذا ذكر الله هو متقد مطيع مصلح بالضرورة وبالأولى .

والذى نميل الى الأخذ به أن درجة وجل القلوب عند ذكر الله لا يبلغها الا القلة من

المؤمنين وهكذا ارتقت الآيات القرآنية درجة بعد درجة ومن هؤلاء الذين توجل قلوبهم الذين ذكرهم عليه صلوات الله بقوله فيمن يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله وجاء فيه وعين حرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ولفظ الصالحين ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ^(١) وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام عينان لا تمسمها النار ابدا عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله ^(٢) .

والستقى درجات وفي اعلاها ما روي عن انس ان يطاع الله فلا يعصى ويدرك فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وهذه تستلزم ما روي عن ابن عباس ان يجاهد العبد في الله حق جهاده وألا يخشى في الحق لومة لائم وان يقسط من نفسه وآبائه وابنائه .

والإيمان درجات ايضا واعلاها ما ذكر الله جل شأنه من وجل القلوب عند ذكره وما تلا ذلك من الصفات التي جاءت في الآية الكريمة واعلى درجات الإيمان تلتقي بأعلى درجات التقوى والذي دفع اليه اصحاب رسول الله عليه صلوات الله هذه المنازل الرفيعة فهم الرعيل الأول وهم القدوة للمؤمنين وهم الحجة على من يأتي بعدهم وهم السابقون الى حل هذه الدعوة والسير بها الى الدنيا بأسرها والى الناس جميعا .

وان على من يريد حل الدعوة واقتفاء اثر الرسل الکرام والتأسي بأصحاب رسول الله عليه صلوات الله ان يتطلع الى هذه الدرجات ويجدها لبلوغها .

وهذه الدرجة التي ذكر الله بها اصحاب رسوله في المناسبة الطيبة في ميدان الجهاد والمؤمنون قد سخوا بأرواحهم وباعوا نفوسهم وما تزال افئتهم منصهرة بأهوال المعركة وقد شهدت معونة الله ولطفه ونصره ، المؤمنون في هذه الحال وقلوبهم متفتحة لما يأتي من عند الله وصدورهم منشحة ترقب وهي الله في هذه الحال تننزل الآيات فتأمر بالتقى وتأمر بالطاعة وتأمر باصلاح ذات البين وتنديرهم بأن درجات الإيمان عالية رفيعة وتقول لهم لا يستحق اسم المؤمن الا الذي يوجل قلبه لذكر الله .

انها ل التربية عظيمة وانه لإعداد إلى أمر عظيم .

(١) الحديث اورده البهبي في الأسماء عن أبي هريرة ورمز السيطي لحنته في جامعه الصغير .

(٢) رواه النسائي والضياء المقدسي عن انس رضي الله عنه وعزاه الهشمي لأبي يعلى وقال المنذري رجاله ثقات .

دعت الآيات الكريمة اصحاب رسول الله الى درجة رفيعة من الامان جاءت في كتاب الله في مناسبة اخرى في سورة الحج عند قوله تعالى « وبشر المحبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون » .

والمحبتون المتواضعون الخاشعون المطمئنون بأمر الله عز وجل الذين يخافون معصيته ويحذرون مخالفته الذين توجل قلوبهم عند ذكره جل شأنه لقوة اليقين في قلوبهم وغلبة مراقبة الله عليهم حتى كأنهم بين يديه جل شأنه يصدق عليهم وصف رسول الله عليه صلوات الله أنهم يعبدون الله كأنهم يرونها .

ولفظة الإخبار مأخوذة من طمأنينة الأرض قال في اللسان وقال ابن الأعرابي الخبر ما اطمأن من الأرض واتسع^(١) والمحبتون الذين سكنت جوارهم واطمأن قلوبهم ولم يزدهم عزة الغلبة ولم تسکرهم نشوة الظفر ولكنهم في الأحوال التي يبطر فيها الناس وتغرهם كبر ياؤهم يذكرون الله فتتطامن نفوسهم فان كانوا في عزة وغلبة تواضعوا لله ولم يظلموا احدا من عباد الله وان كانوا في شدة وعسر ذكروا الله وذكروا لطفه وعونه فاطمأن قلوبهم وسكتت نفوسهم .

والوجل هو استشعار الخوف كما قال الراغب في مفرداته ومعنى استشعار الخوف الشعور به بالفعل فالوجل على هذا أخص من الخوف لأن الخوف توقع أمر مؤلم قد يقع بالفعل وقد لا يقع وقد يصبحه الشعور بالألم والفنع وقد يفارقه لاحتمال عدم وقوعه أو للاعتقاد ببعد أجله .

وسبب الوجل الخوف من العاقبة المجهولة وقد يكون من الاجلال المهابة وهكذا يكون ذكر الله هو ذكر القلب لعظمته جل جلاله وسلطانه أو تذكر وعده ووعيده ومحاسبته لخلقه وإدانتهم وغير ذلك من صفاته وافعاله جل شأنه .

وأفضل ما يورث الخشية ترتيل القرآن بتدبر وامعان قال تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاسعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نصرها للناس لعلهم يتذكرون » .

(١) قال تعالى فتحت له قلوبهم فسره ثعلب بأنه التواضع ، وفي الحديث : واجعلني لك محبباً أي خاسعاً مطيناً وفي حديث ابن عباس فيجعلها محببة منبية .

وقال تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقتصر منه جلود الذين يخشون رهم ثم تلين جلودهم وقلوهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد» .

وقال تعالى : «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرضاً من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين» .
وليس سبب الوجل الخوف من العقاب فحسب بل قد يكون الوجل من عظمة الله وعظم سلطانه .

يقول السيد رشيد رضا : «قد يقول المؤمن في صلاة التهجد في خلوته (الله أكبر) مستحضرًا المعنى كبر يائاه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده فن خص الذكر هنا بالوعيد فقد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون إلا من خوف العذاب وكأنه لم يذق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبر يائاه وعزه سلطانه وغير ذلك من معانٍ اسمائه وصفاته ولم يقرأ قوله تعالى «إنما يخشى الله من عباده العلماء» ولم يعلم أن من عباد الله من يخضع قلبه ويفيض دمعه لذكر اسماء الله في آخر سورة الحشر «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ... الخ» ولا يجد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء .

وقال صاحب هداية الباري في حال اوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله تعالى وفي حال اوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه .

اخراج الحكيم الترمذى وابن جرير وابو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن ام الدرداء قالت إنما الوجل في القلب كاحتراف سعفة^(١) يasher بن حوشب ، اما تجده له قشعريرة؟ قلت بلى قالت فادع الله عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك .

واخراج الحكيم الترمذى عن ثابت البناى قال قال فلان اني لأعلم متى يستجاب لي . قالوا ومن اين لك؟ قال اذا اقشعر جلدي ووجل قلبي وفاضت عيني فذلك حين يستجاب لي^(٢) .

(١) السعفة : ورق جريد النخل اذا يبس .

(٢) وثابت بن البناى ثقة عابد روى له اصحاب الكتب الستة وهو من التابعين .

واخرج الحكيم الترمذى ايضا عن عائشة قالت ما الوجل في قلب المؤمن الا كضرمة السعفة فإذا وجل احدكم فليدع عند ذلك^(١) واخرج ابن ابي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ عن السدي في الآية قال : هو الرجل يرید ان يظلم أو يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيوجل قلبه .

وذكر ابن جرير اسنادا من طريق علي^(٢) (اي علي بن ابي طلحة) عن ابن عباس قوله تعالى «اما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم قال : «المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند اداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون اذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة اموالهم . فاخبر الله سبحانه انهم ليسوا مؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : «اما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فأدوا فرائضه . « وادا تلقيت عليهم آياته زادتهم ايمانا » يقول تصديقا — « وعلى ربهم يتوكلون » يقول لا يرجون غيره .

(١) يلفت النظر ان الرواية الأولى التي ذكرناها عن ام الدرداء جاء في نهايتها قالت فادع الله عندها فان الدعاء يستجاب عند ذلك ويروها ابن جرير بعينها عن ابي الدرداء وفي نهايتها : اذا وجدت ذلك في القلب فادع الله فان الدعاء يذهب بذلك وكذلك رواية ابن كثير عن ام الدرداء . والاسناد الذي يذكره ابن جرير لم يعلق عليه الشيخ احمد محمد شاكر وقد اورد الزمخشري الأثر ايضا عن ام الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة اما تجده له قشعريرة قال بلى قالت فادع الله فان الدعاء يذهب ولم يعلق عليه ابن حجر بشيء ايضا في تخريجه .

وفي الاسناد شهر بن حوشب وقد قال فيه ابن حجر صدوق كثیر الارسال والأوهام روى له البخاري في الادب المفرد ولم يخرج له في صحيحه وروى له مسلم واصحاب الكتب الأربع ، وهذا الوصف الذي ذكره ابن حجر هو نوع من الجرح يضعف الحديث الذي يرويه اذا تفرد به ، وجميع الذين ذكرنا اوردوا الحديث من طريق شهر بن حوشب عن ام الدرداء او ابي الدرداء .

(٢) وعلى بن ابي طلحة هو الذي يروي عن ابن عباس يقول بشأنه ابن حجر في التقریب ارسل عن ابن عباس ولم يره وهو صدوق يخاطئ روى له مسلم وابوداود والنثائی وابن ماجة .

ويقول السیوطی في الاتقان : ورد عن ابن عباس في التفسیر مالا يخصی كثرة بروایات وطرق مختلفة فن جيدها طرق علي بن ابي طلحة الهاشمي عنه قال احمد بن حنبل « بمصر صحفة في التفسير رواها علي بن ابي طلحة ، لورحل رجل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا » استدله جعفر النحاس . ويقول صاحب مناهل العرفان : قال ابن حجر : وهذه النسخة كانت عند ابي صالح كاتب الليث رواها عن معاوية ابن ابي صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس وقد اعتمد عليها البخاري في

قال تعالى « انا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .

بحث المفسرون لم يجاز وصف القلوب ههنا بالوجل ووصفت بالطمأنينة في قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » اذ جعلت الآية الأولى وجل القلوب عند ذكر الله وجعلت الآية الثانية ذكر الله سببا في طمأنينة القلوب . واجابوا بأن الطمأنينة عند ذكر نعمة جل شأنه والوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه واجابوا بأن الطمأنينة عند ذكر الوعيد والوجل عند ذكر الوعيد واجابوا بأن القلوب تطمئن لمعرفة توحيده ووعده ووعيده فعند ذلك توجل لأوامره ونواهيه خوف التقصير في الواجبات والإقدام على المعاصي .

وقال السيد رشيد رضا ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعيد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى في الأنفس والأفاق اطمئنان للقلوب بالآيمان بالله تعالى والثقة بما عنده .

وقال الألوسي: والاطمئنان المذكور في قوله سبحانه وتعالى (الا بذكر الله تطمئن القلوب) لا ينافي الوجل والخوف لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهو يجتمع الخوف .

صحيحه كثيرا فيما يعلق عن ابن عباس يقول ابن حجر: وقال قوم : لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير واما اخذه عن مجاهد او سعيد بن جبير ثم قال ابن حجر بعد ان عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك باهـ .

ويقول ابن حجر في تهذيب التهذيب :

نقل البخاري من تفسيره (اي تفسير علي بن ابي طلحة) رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيء كثيرا في التراجم وغيرها ولكن لا يسميه يقول قال ابن عباس او يذكر عن ابن عباس . اهـ ويعکن ان نقول من ذكر البخاري هذه الروايات في صحيحه وذكرها معلقة دون ذكر اسنادها كاملا ان اسنادها ليس على شرطه فلا يذكره وما ذكره بصيغة الجزم كان يقول قال ابن عباس فهو صحيح عنده ولوم يكن على شرطه والذي في سنته ضعف او انقطاع لا يجزم به .

يقول ابن حجر في هدى الساري : واما يورد البخاري ما يورد من الموقفات من فتاوى الصحابة ومن تفسيرهم لكثير من الآيات على طريق الاستثناء والتفوية لما يختاره من المذاهب مع المسائل التي فيها الخلاف بين الأئمة .

وهكذا علق قوم الطمأنينة بذكر النعم والوجل بذكر العقاب وعلقها آخرون بذكر وعده جل شأنه وجعلوا الوجل لذكر وعيده وقال فريق ثالث الطمأنينة بمعرفة توحيده ووعده وعيده والوجل في خوف التقصير في ما يجب له جل شأنه .

والرأي الثالث يختلف عن سابقيه ويتفق مع رأي السيد رشيد رضا والآلوي إذ يجعل صفاته جل شأنه كلها مداعاة للطمأنينة وخوف التقصير سببا في الوجل وقد جعل الرأيان الأولان بعض صفاتهم جل شأنه سببا في الطمأنينة وبعضها سببا في الوجل والذي يبدو ان صفات الله جل شأنه كلها مما يحمل العبد على الطمأنينة ولكن الخوف كل الخوف من تقصيره هو في حق سيده ولذا كان القول الثالث أجمع مع عدم منافاته لسابقيه ذلك ان للإنسان حالات كثيرة تختلف من آن لآخر ومن شخص لاخر فقد يكون ذكر المن والنعيم واللطف بالإنسان جنينا ثم رضياعا ثم غلاما ثم يافعا قد يكون ذلك سببا في هدوء نفسه وطمأنينة قلبه كما ذكر الله جل شأنه موسى عليه السلام حين قال له (اذهب الى فرعون انه طغى) ذكره جل شأنه كيف نجاه من قرعون بالقائه في اليم وهو رضيع لا يقوى أن يدفع عن نفسه أذى بعوضة وليس اليم وسيلة للنجاة وكانت نجاته على يد عدوه فرعون نفسه وربى في بيته ليس في هذا ما يغير العقول ويطمئن القلوب ؟

قال تعالى : ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى امك ما يوحى ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له والقيت عليك محنة مني ولتصنع على عيني اذ تمشي احتجك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى امك كي تقرعينها ولا تحزن .

كل هذا ليطمئن موسى عليه صلوات الله ان الذي حفظه من فرعون حين كان رضياعا لا حول له ولا طول الذي اصطنه لنفسه جل شأنه قين بأن ينصره على فرعون حين يرسله اليه ليحطّم كبر ياءه ويدّه بجبروته .

وهكذا كان تذكر من الله وسابع إنعامه وخفي لطفه كل ذلك باعث للطمأنينة العميقه في النفوس

تذكر نعم الله وسابق فضله عظيم لطفه في ساعات الاخطار يتنزل بالسکينة ويدّه بالخوف من المهالك .

ولكن تذكر نعم الله نفسها وعظم هنّه في حالة الشعور بالتقدير أو الامر يزيد في ألم المرء وحرسته على ما فرط في جنب الله .

والغالب في تذكر وعد الله ان يكون سببا للطمأنينة ولكنه قد يكون في كثير من الأحوال بالنسبة لكتيرين سببا لأشد انواع الوجل اذ يجد المرء نفسه بعيدا عن الصفات التي ذكرت بشأن الذين وعدهم الله .

وهكذا كانت حالة الطمأنينة والرجاء او الخوف والاشفاق نتيجة لحالة المرء النفسية ونظرته إلى نفسه وإلى خالقه جل شأنه .

وموقف هذا الإنسان في ضآنته وصغر شأنه في جانب الله جل شأنه مع ما أنعم عليه من رأي وعقل وما أودع فيه من قوة وحكمة كل ذلك يجعله في خشية من الله ووجل منه مقتربين بأمل ورجاء وأمن وسكون .

الخوف والرجاء مقتربان

والمؤمن لا يخلو قلبه من الأمرين معا وإن غالب أحدهما حيناً و غالب الآخر حيناً آخر ..

وان الخوف من الله والوجل من عقابه واستشعار عظمته جل شأنه كل ذلك يؤدي بال نهاية الى الطمأنينة الى رحمته والرضا بقضائه وتقويض الأمر اليه .

وهذا الوجل من الله عند الإشراف على ذنب أو الإقدام على خالفة أو الشعور بالتقدير في جانب الله وعند تذكر المرء نعم الله وما تقلب فيه من لطف الله وحسن تدبيره وتقديره مما يزيده ألماً لتقديره وشعورها بتعظيمه جل شأنه وكل ذلك منها امتد ينتهي لدى المؤمن إلى برد الراحة وطمأنينة اليقين .

إن العامل الأساسي في خشية الله الشعور بعظمته الله فكلما ازداد المرء معرفة بدقة صنعه جل شأنه في خلقه وازداد معرفة بعجائب تدبيره ازداد تعظيمها له وخشية له وازداد في الوقت نفسه ثقة به جل شأنه وطمأنينة وأسلم نفسه اليه ووجه وجهه إليه وفرض أمره إليه .

والرسول عليه الصلاة والسلام أشد الناس خشية الله وأشدهم تقوى له وأكملهم معرفة

بربه جل شأنه وأعظم الناس ثقة به وطمأنينة إليه جل شأنه وخشيته عليه صلوات الله لربه موازية تمام الموازاة لشنته به تباركت أسماؤه ، ومن هنا يمكن أن نقول أن أشد الناس وجلا من الله وهيبة منهم أشدهم طمأنينة إلى رحته وثقة بعفوه ورحمته والمنافق بعيد من خشية الله بعيد من الثقة به والطمأنينة إليه .

فبين الصفتين تلازم ويمكن أن تعتبر إحداهن مقاييس للأخرى

ويلاحظ أيضاً أن طمأنينة المؤمن حين يفرغ الناس ووجله حين يطمئنون إلى غفلتهم وانصرافهم إلى هوهم ودنياهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « لو تعلمون ما أعلم لبكيركم كثيراً ولضحكتم قليلاً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى لا تدرؤن تنجون أو لا تنجون » (١) .

خشية الله والوحول منه مصدرهما معرفة الله واستشعار عظمته جل شأنه والطمأنينة إليه معرفته تبارك أسماؤه والثقة بسعة رحته وعمق فضله وكل الوصفين منشؤهما الإيمان بالله ومعرفة توحيده ولا يمكن أن يتصرف العبد المؤمن بأحد هما دون الآخر محال ذلك فإذا فقد العبد الرجاء بالله وانقطع أمله به فذلك جهل بالله جل شأنه وبصفاته وذلك من ظن السوء بالله سبحانه قال تعالى « إنَّمَا لَا يَئِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » ومن اغتر بعمله ورضي عن نفسه وأمن مكر الله كان ذلك غاية الجهل بالله وبصفاته قال تعالى « فَأَمْنَوْا مَكْرَهُ اللَّهِ فَلَا يُؤْمِنُ مَكْرَهُ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » قال الزمخشري : فعلى العاقل أن يكون في خوف من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة .

وعن الربيع بن خيثم (٤) أن ابنته قالت مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام قال يا بنتاه إن أباك يخاف البيات . أراد قوله (إن يأثيرهم بأسباب بيانتها) اهـ وهذا يذكر

(١) : الصعدات بضمتين جمع صعيد كطريق وزنا ومعنى تجأرون ترتفعون أصواتكم بالاستغاثة الحديث رواه الطبراني والحاكم في الرقاق عن أبي الدرداء قال الحاكم صحيح واقره الذهبي وقال الهيثمي رواه الطبراني من طريق ابنة أبي الدرداء عن أبيها ولم اعرفها وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٢) الربيع بن خيثم ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب : قال ابن حبان في الثقات اخباره في الزهد والعبادة أشهر من أن يحتاج إلى الأغرار في ذكره . وروى أحد في الزهد عن ابن مسعود أنه كان يقول للربيع والله لوراك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك وذكر هذا القول المزري وزاد وما رأيتك إلا ذكرت المحبتين . نقل ابن جريرا أنه شهد مع علي صفين . وقال الشعبي كان الربيع أشد أصحاب ابن مسعود ورعا .

بقوله تعالى تجافى جنوبهم عن المضاجع كأن شيئاً يقضها و يؤلمها فتباعد بين صاحبها وبين النوم .

وقال الحسن البصري المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

والأصل في الخوف من الله كما ذكرنا شعور العبد بتقصيره البالغ في حق سيده ، وهذا التقصير لا يستطيع عد أن يدعى أنه حال منه وهذا هو الابتلاء الذي خلقت الحياة من أجله فإذا ظن عبد أن الله لن يعذبه فنشأ ذلك كبره واغتراره بنفسه وعدم رؤية النقص الذي ركب فيه وهذا من عظام الأمور ولذا كان الأمان من مكر الله كبيرة عند الشافعية وهو الاسترسال في المعاصي اتكالاً على عفو الله .

وقال الحنفية إنه كفر كالجحود لقوله تعالى (إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون . يوسف : ٨٧) (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . الأعراف : ٩٩)

وقد جاء في تفسير القاسمي : من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنبه فينبغي أن يكون كل منها كافراً عند الشافعية أيضاً ويحمل عليه نص القرآن .

ويلاحظ في تركيب الآيتين الكريمتين افتراق وتمايز يؤدي إلى اختلاف في المعنى لا يفوت إدراكه مبتدئاً مثلـي ففي آية الأنفال قال تعالى « اذا ذكر الله » وفي آية الرعد « الا بذكر الله » وقد جاء ذكر الله في الأولى مبيناً للمجهول يوحـي بأن ذكر الله مصدره غير الذي وقع منه الوجل والغالب في هذا أن يكون الذي أصابه الوجل عند ذكر الله في شيء من الغفلة والنسيان قبله وذلك لانشغال القلب بأمر من أمور الدنيا أو المعاش أو المصالح واستغراقه في ذلك ، وفي تلك الحال جاءه النذير فذكره أخـ بالله وهذا هو الغالب أو طرأ على قلبه طارـ أفقـه من استغراقه وذكره بالله وهنا حين يشعر ببعده من الله وغفلته عنه جـ شأنـه يستيقظ ضميره و يتتبـه فـ وادـه فيوجـ قلـبه فإذا اغـرـ ورـقتـ عـيناـه واستغرـقـ قـلـبه بتـذكرـ اللهـ عـادـتـ إـلـيـهـ السـكـينةـ وـالـطـمـأنـيـةـ .

أما قوله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فهو يدل على أن ذكر الله جـ شأنـه سبـبـ

في الطمأنينة فإذا وقع الذكر وسيطر على القلب فلا بد من طمأنينة كان الذاكر في آية الأنفال مجھولاً وهو على الغالب إنسان آخر ذكر بالله فلما ذكر الغافل وجل قلبه أول الأمر ثم هيم ذكر الله وخشيته على قلبه وهذا لک تنزل السكينة وتعود الطمأنينة .

وعلى هذا فذكر الله اصل في الطمأنينة إذا تم في النفس تمت والخشية والطمأنينة امران متلازمان لا يخلو منها المؤمن .

قال تعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ» وقال تعالى الذين آمنوا وطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب .

هذا الإنسان في الكون الكبير الذي يملأ نفس المتأمل دهشة وإكباراً الذي تحيط به العجائب وتكتنفه المجاهيل إما أن يرى نفسه ذرة من ذراته خاضعاً لأنظمته مسيراً بالقدرة العظيمة التي تدبّره مرتبطاً بجزئياته وأجزاءه وبجميعه خاضعاً لللة المدبر الذي خلقه وأبدعه وعلم مبدأه وغايته وقدر نهايته ومصيره وإنما أن يرى نفسه وحيداً فريداً لا ارادة فوق إرادته ولا قدرة تนาزع قدرته لا يعلم لهذا الكون مبدأ ولا يعرف له مصيرها ويرى أنه خرج من العدم وسار في فلك هذا العالم دورة محدودة وسيعود إلى الفناء وإلى العدم .

هذا الإنسان الثاني إنسان ناشز عن فطرة الإنسان وما جبل عليه الإنسان قد غلت عليه شقوته ولعبت به أهواؤه وتسليط عليه شيطانه ، ومثل هذا الإنسان لا يعرف طمأنينة ولذلك لا يجد مخلصاً لنفسه إلا بأن يلقى نفسه في أحضان شهواته تصرفه كما تشاء فقد يعيش خليعاً ماجنا وقد يعيث في الأرض فساداً وهو على أي حال حاقد مفتاط جائز فإذا عصفت به نكبة أو ألمت به كارثة لم يجد في نفسه ذرة من إيمان يقابل بها الشدائـد او يصمـد بها للكوارث بل ينهار ويتداعى وتساقط أركانه ولا يجد له مخلصاً إلا في الانتحار والموت .

هذه الطمأنينة عند الشدائـد والسكينة عند النوازل لا يعرفها إلا المؤمنون قال تعالى «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَإِذْهَ بِجَنَودٍ لَمْ تَرُوهَا» وقال تعالى «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» والسكينة هي السكون والطمأنينة قال ابن عباس كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في البقرة وهي قوله تعالى «فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ» .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

«وليس أشقى على وجه الارض من يحرمون طمأنينة الآمن الى الله ليس أشقى من ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه وترتبط ما حوله في الله خالق الكون . ليس أشقى من يعيش لا يدرى لم جاء ولم يذهب ؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة ؟ ليس أشقى من يسير في الارض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الحقيقة بينه وبين كل شيء في هذا الوجود ليس أشقى في الحياة من يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاء ، عليه أن يكافع وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله مطمئنا إلى حاه ، منها أöttى من القوة والشبات والصلابة والاعتداد ... ففي الحياة لحظات تعصف بها كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله : «الا بذكر الله تطمئن القلوب» . ١٤-

والله جل جلاله الذي تطمئن القلوب لذكره هو الذي تخشع القلوب لعظمته وتوجل لذكره وهو الذي يُخْشى ويرجى وهو الذي يرعب جانبه ويؤمل بره وفضله .

وهكذا تلتقي الآيات الكريمتان وتعانقان وتكملاً أحداهن الأخرى ، أحداهن تمثل المؤمن في حالة غلبة الطمأنينة على قلبه وفي ظننا أن الأولى تنتهي إلى الثانية كما ذكرنا من غير أن يخلو القلب من خشية وريبة .

يقول القرطبي : في قوله تعالى «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» هذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب . والوجل الفزع من عذاب الله فلا تناقض .

وقد جمع الله بين المعنين في قوله : «الله نزل احسن الحديث كتاباً متشارها مثاني تتشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله» . أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين الى الله وإن كانوا يخالفون الله ، فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سلطنته وعقوبته ويستطرد القرطبي هنا فيذكر حال الذين يزعمون أنهم يذكرون الله وهم يرقصون و يصرخون يقول : لا كما يفعله جهال العوام والمبتعدة الطغام (اردال

الناس) من الزعiq والزئير فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم ان ذلك وَجْدٌ وحضور : لم تبلغ ان تساوي حال الرسول ولا حال اصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم بجلاله ومع ذلك فكانت حا لهم عند الموضع الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله ولذلك وصف الله احوال اهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال « اذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين فهذا وصف حا لهم وحكاية مقاهم ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طر يقتهم . روى مسلم بن مالك ان الناس سألا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه في المسألة ^(١) فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلوني لا تسألوني عن شيء الا بيته لكم ما دمت في مقامي هذا فلما سمع ذلك القوم أرموا (سكتوا) ورهبوا ان يكون بين يدي امر قد حضر قال أنس فجعلت التفت بينا وشمالا فإذا كل انسان لاف ^٢ رأسه في ثوبه يبكي وذكر الحديث .

وروى الترمذى وصححه عن العرباض بن سار ية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بلية زرفت منها العيون ووجلت منها القلوب (الحديث) ولم يقل زعننا ولا رقصنا ولا زفنا ^(٣) ولا قنا .
زيادة الامان

قال تعالى « اذا تلقيت عليهم آياته زادتهم ايمانا »
المراد بالآيات المتزلة على خاتم الانبياء عليه صلوات الله وسلامه ، ومعنى زادتهم ايمانا أي يقينا في الاذعان وقوه في الاطمئنان وسعة في العرفان ، ونشاطا في الاعمال قال هذا السيد رشيد رضا في تفسيره وهذا القول مبني على اعتقاده بأن الامان اعتقاد بالجنان وقرار باللسان وعمل بالأركان وقد عرفه بعد ذكر ما سبق فقال ويطلق الامان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه .

ومن باب الآية الكريمة قوله تعالى : « ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذكان سجدا ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعد ربنا لفعلا ويخرون للأذكان ي يكون ويزيدهم خشوعا » .

والذين اوتوا العلم هم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد

(١) : أي كثروا عليه ، واحفى في السؤال والخف كلما معنى اللغ .

(٢) : رقصنا واصدنا الدفع الشديد والضرب بالرجل كما يفعل الراقص .

آمنوا به وصدقوه ، وثبت عندهم انه النبي العربي الموعود في كتبهم فاذا تلي عليهم خروا سجدا وسبحوا لله تعظيا لأمره ولا نجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد في قوله «إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَفَعُولاً» .

وهو لاء الذين اتوا العلم حين سمعوا آيات الله تتلى خروا مرتين خروا في المرة الأولى ساجدين وفي المرة الثانية باكين .

وروى الترمذى والنسائى عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلتج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الصرع ولا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم ^(١) .

(١) رواه الترمذى قال حدثنا هشاد اخبرنا عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى عن محمد بن عبد الرحمن عن عيسى بن طلحة عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلتج النار....

وعبد الرحمن بن عبد الله المسعودى قال بثأنه ابن حجر في التcriب صدوق اختلط قبل موته وضابطه ان من سمع منه ببعداد وبعد الاختلاط وبقية رجاله ثقات وعبد الله بن المبارك ثقة ثبت فقيه عالم جواد مجاهد جمعت فيه خصال الخير من المستبعد جدا ان يروى عن عبد الرحمن في حال اختلاطه وقد قال الترمذى هذا حديث صحيح وللحديث شواهد يقول الترمذى وفي الباب عن ابى ريحانة وابن عباس اما حديث ابى ريحانة فقد اخرجه احمد مرفوعا : حرمت النار على عين دمعت او بكت من خشية الله وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله وذكر عينا ثالثة وآخر جه النسائي والحاكم وقال الحاكم صحيح الاسناد واقره الذهبي وقال على شرط مسلم .

ورواه البهقى عن ابى ريحانة رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأوفى بنا على شرف (مكان عال) فأصابنا برد شديد حتى كان احدنا يخفر الحفيث ثم يدخل فيه وينظر عليه بمحفته (ترسه) فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من الناس قال الا رجل يحرست الليلة ادعوله بدعا يصيبح به فضلا فقام رجل من الانصار فقال انا يارسول الله قد عاليه قال ابو ريحانة رضي الله عنه قلت انا قد عالي بداعه هودون ما دعا به للأنصارى ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت النار على عين دمعت من خشية الله حرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله قال ونسبت الثالثة قال ابو شريح (احد رواة الحديث) وسمعت بعد انه قال حرمت النار على عين غضت عن محارم الله او عين فقتلت في سبيل الله .

يقول القاسمي : وقد عد الامام الغزالى في الاحياء من آداب ظاهر التلاوة البكاء
قال البكاء مستحب في القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا
فان لم تبكون فتباكوا ^(١) .

وقال ابن عباس رضي الله عنها اذا قرأتم سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكون فان لم
تبك عين احدكم فليبك قلبه وانما طريق تكفل البكاء ان يحضر قلبه الحزن ، فمن الحزن
ينشأ البكاء ، ووجه احضار الحزن ان يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم
يتأمل تقصيره في اوامره وزواجه فيحزن لا حالة ويكيي فان لم يحضره حزن وبكاء كما
يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فان ذلك اعظم المصائب .

واما حديث ابن عباس فقد رواه الترمذى في فضائل الجihad قال حدثنا نصر بن علي الجهمي قال
حدثنا بشر بن عمر قال حدثنا شعيب بن رزيق ابوشيبة قال حدثنا عطاء الخرساني عن عطاء بن ابي
رباح عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسها النار عين بكث
من خشية الله وعين باتت تخرس فى سبيل الله وشعيب بن رزيق ابوشيبة صدوق يخاطىء وعطاء
الخرساني صدوق يهم كثيرا ويرسل ويدلس لم يصح ان البخارى اخرج له كذا في التقويم . والحديث
صحيح بكثرة روایاته وشهادته الصحيحة ومن شواهدة ما جاء في حديث السبعه الذين يظلمهم الله في
ذلك يوم لا ظل الا ظله ومنهم رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه والحادي ث رواه الشیخان البخاری ومسلم
ومالک واحد والنثاني .

(١) اخرجه ابن ماجه ، باب في حسن الصوت بالقرآن : قال حدثنا عبد الله بن احمد بن بشير بن ذكوان
الدمشقي قال حدثنا الوليد بن مسلم قال حدثنا ابورافع عن ابن ابي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب
قال قدم علينا سعد بن ابي وقاص وقد كف بصره فسلمت عليه فقال من انت فأخبرته فقال مرحبا بابن
اخي بلغني انك حسن الصوت بالقرآن . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا القرآن نزل
بحزن فإذا قرأتوه فابكوا فان لم تبكون فتاباكوا وتغنو به فلن يتنفس به فليس منا .

قال في الزوائد في استاده ابورافع اسمه اسماعيل بن رافع وهو ضعيف متروك .

والحادي ث رواه البيهقي ايضا بالسند المتقدم وذكر فيه اسماعيل بن رافع وقد قال فيه ابن حجر ضعيف
الحفظ وروى له البخاري في الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه وفي تهذيب التهذيب قال احمد ضعيف
وقال ابن معين ضعيف وفي رواية عن احمد منكر الحديث وقال الدارقطنى والنثاني وابن خراش
متروك .

فالحادي ث على هذا ضعيف بسبب ابي رافع وقد قال العراقي فيه ما يلي : حديث اتلوا القرآن وابكوا
فان لم تبكون فتاباكوا رواه ابن ماجه من حديث سعد بن ابي وقاص باستاد جيد .

وروى البيهقي من طريق الأعمش عن ابراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأ على فقلت أقرأ وعليك انزل؟ قال اني احب ان اسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت الى هذه الآية (فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال حسبك الان فالتفت اليه فإذا عيناه تذرفان . الحديث متفق عليه .

وروى ابن كثير في تفسيره عن الامام أحمد قال حدثنا محمد بن فضيل قال حدثني فليت العامری عن جسرة العامریة عن أبي ذر رضي الله عنه قال صلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقرأ آية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) فلما أصبح قلت يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت ترکع بها وتسجد بها قال إني سألت ربی عزوجل الشفاعة لأمتی فأعطانيها وهي نائلة ان شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً^(١) .

ونقل القاسمي في تفسيره رواية الامام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عزوجل على لسان ابراهيم (رب اتهن اصللن كثيرا من الناس فن تبني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وقول عيسى (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) فرفع يديه وقال : اللهم امي امي وبكى فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب الى محمد ، وربك اعلم ، فاسأله ما يبيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسألته فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، وهو اعلم فقال الله يا جبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك في امتك ولا نسوؤك .

ونخت هذه الاحاديث بالدعاء التالي^(١) : عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اصاب احدا قط هم ولا حزن فقال : « اللهم اني عبدك وابن عبيدك وابن امتك ناصيتي بيده ماض في حكمك عدل في قضاؤك اسألك بكل اسم هو

(١) الحديث بدرجة الحسن لرجائه محمد بن فضيل صدوق عارف رمي بالتشيع روى له اصحاب الكتاب الستة جميعا وفليت صدوق روى له ابو داود والنمساني وجسرة العامرية قال ابن حجر اتها مقبولة وقد روى لها ابو داود والنمساني وابن ماجه . وقد روى الحديث النسائي ايضا .

(٢) يقول الميسمى (١٨٦ / ١٠) رواه احمد وابو يعلى والطبراني والبزار الا انه قال وذهب غمي مكان همي ، ورجال احمد وابي يعلى رجال الصحيح غير ابى سلمة الجهنى وقد وثقه ابن حبان . =

لَكَ سَمِيتَ بِهِ نَفْسُكَ أَوْ انْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي
عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ إِنْ تَجْعَلُ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِيْ وَنُورَ صَدْرِيْ وَجَلَاءَ حَزْنِيْ وَذَهَابَ هُمَّيْ «
إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُمَّهُ وَابْدَلَهُ مَكَانَ حَزْنِهِ فَرْجًا قَالُوا يَارَسُولَ اللَّهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ
هُوَلَاءَ الْكَلْمَاتِ قَالَ أَجْلَ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمُهُنَّ .

قال تعالى : « وَإِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا »
قول القرطبي في زيادة الإيمان

قال ابن جرير عن ابن عباس زادتهم إيمانا يقول تصدقنا وقال ابن كثير كما قال ابن
جرير وقال القرطبي كما قالا أى تصدقنا فان إيمان هذه الساعة زيادة على إيمان امس
فن صدق ثانيا وثالثا فهو زاده تصديق بالنسبة الى ما تقدم والى هنا اعتبر القرطبي
الزيادة في الإيمان هي زيادة في التصديق وهو الاعتماد الذي استقر في النفس وانعقد
عليه القلب ثم يورد معنى آخر يراعي فيه جانبا آخر قال : وقيل هو زاده انتشار الصدر
بكثرة الآيات والأدلة وكأنه يريد ان يذهب في هذا القول الى أن زاده الإيمان ليست
في اصل الإيمان ولكنها في ثمرة من ثمراته وهي انتشار الصدر ويقول وقد مضى هذا
المعنى في آل عمران .

وفي سورة آل عمران عند قوله تعالى « الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ جَعَلُوا لَكُمْ
فَإِخْشُوهُمْ فَزَادُوهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ » يقول فزادهم قول الناس إيمانا
أى تصدقنا ويقينا في دينهم واقامة على نصرتهم ، قوة وجرأة واستعدادا .

يقول : فزيادة الإيمان على هذا هي في الأفعال . وقد اختلف العلماء في زيادة
الإيمان ونقصانه على أقوال ، والعقيدة في هذا على ان نفس الإيمان الذي هو تاج واحد
وتصديق واحد بشيء ما إنما هو معنى فرد ، لا يدخل معه زيادة اذا حصل ولا يبقى منه
== وابو سلمة الجهنمي قال فيه ابن حجر في تعجيل المتفقة مجھول قاله الحسيني وقال مرة لا يدرى من هو
وهو كلام الذهبي في الميزان وذكره ابن حيان في الثقات واخرج حدیثه في صحيحه .

والحديث قد ذكره الترمذى في كتاب الأذكار (ص ١١٣) يقول رويانا في كتاب ابن السنى عن
ابي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصابه هم او حزن فليدع
بهذه الكلمات يقول أنا عبدك ... الحديث فقال رجل من القوم يارسول الله ان المغبون لمن غبن هؤلاء
الكلمات فقال رجل فتوطن وعلموهن فإنه من قالهن الناس ما فيهن اذهب الله تعالى حزنه وأطال فرحة .

شيء اذا زال . فلم يبق الا ان تكون الز يادة والنقصان في متعلقاته دون ذاته .

وهكذا يذهب القرطبي مذهب الذين ينفون الز يادة عن اصل الاعياد .

ثم يذكر أقوال العلماء في موضوع ز يادة الاعياد ملخصه في أربعة : اولها انه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه والثاني ان الاعياد عرض والعرض لا يثبت زمانين والثالث أن ز يادة الاعياد ونقضه إنما هو عن طريق الأدلة والرابع الز يادة في الاعياد إنما هي بنزول الفرائض والأخبار في مدة النبي صلى الله عليه وسلم وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر .

ويستدل القرطبي للقول الأول بأن كثيراً من العلماء يوّقون اسم الاعياد على الطاعات لقوله صلى الله عليه وسلم الاعياد بعض وسبعون بابا فأعلاها قول لا إله إلا الله وادناها إماتة الأذى عن الطريق اخرجه الترمذى وزاد مسلم «والحياء شعبة من الاعياد» .

اما القول الثاني الذي يعرضه القرطبي فالز يادة فيه في اصل الاعياد ذلك لأن الاعياد عرض^(١) ، والعرض لا يثبت زمانين . اه بل مختلف من زمان الى زمان في انسان واحد وهو مختلف ايضا من انسان الى انسان .

يقول القرطبي : فهو (يعني الاعياد) للنبي صلى الله عليه وسلم وللصلحاء متعاقب فيزید باعتبار توالى امثاله على قلب المؤمن وباعتبار دوام حضوره وينقص بتواتي الغفلات . أشار الى هذا ابو المعالي^(٢) ويستدل القرطبي بحديث فى صحيح مسلم يقول : وهذا المعنى موجود فى حديث الشفاعة حديث ابى سعيد الخدري اخرجه مسلم .

والحادي ثواب طويل في كتاب الاعياد (رقم ٣٠٢ ص ١٦٧ تحقيق فؤاد عبد الباقي)

(١) العرض ما يوجد في حامله وهو الجوهر ويزول عنه من غير فساد حامله ومنه ما لا يزول عنه .

(٢) ابو المعالي ٤١٩ - ٤٧٨ عبد الملك بن ابى محمد عبد الله بن يوسف الجوني امام الحرميين يقول الحموى اشهر من علم في رأسه نار سمع الحديث من ابى بكر احمد بن محمد بن الحارث الأصفهانى ، وكان قليل الرواية معرضا عن الحديث وصنف تصانيف المشهورة نحو نهاية المطلب في مذهب الشافعى والشامل في اصول الدين والارشاد وغير ذلك . مات بنى ابور سنة ٤٧٨ ويقول الزركلى اعلم المتأخرین من اصحاب الشافعى .

والحديث في وصف يوم الحساب وفيه ان المؤمنين حين يخلصون من النار يأخذون بالشفاعة لاخوانهم من المؤمنين فيخرجون من النار بأمر الله من في قلبه مثقال ذرة من خير ولفظ ما جاء في الحديث ما يلي :

« حتى اذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من احد بأشد مناشدة الله في استقصاء الحق ، من المؤمنين الله يوم القيمة لاخوانهم الذين في النار . يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم : اخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد اخذت النار الى نصف ساقيه والى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها احد من امرتنا به فيقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها احدا من امرتنا ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها احدا ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا .

ويستدل الامام البخاري عليه رحمة الله على زيادة الایمان ونقصانه بالمعنى الذي سبق في صحيحه بالآيات القرآنية ثم بالحديث التالي يرويه عن انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار من قال لا الا الله وفي قلبه وزن برة من خير فيخرج من النار من قال لا الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير . قال ابو عبد الله قال أبا حمزة حدثنا انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ايمان مكان من خير (ص ١٨ ج ١) .

والقول الثالث - زيادة الایمان لزيادة الأدلة قال القرطبي ذهب قوم من العلماء الى ان زيادة الایمان ونقصانها هو من طريق الأدلة فتزيد الأدلة عند واحد فيقال في ذلك انها زيادة في الایمان وهذا المعنى فضل الأنبياء على الخلق فانهم علموا من وجوه كثيرة اكثر من الوجوه التي علمه الخلق بها ، وهذا المعنى لا يختلف عن المعنى الثاني كثيرا فهو زاد في الدليل وفي المعرفة يتبعها زيادة في الأصل .

والقول الرابع يتعلق بزيادة الفرائض في زمن نزولها في عصر النبي عليه الصلاة والسلام وزيادة المعرفة بها لمن جهلها أولا بعد عصره عليه صلوات الله وسلامه .

قول السيد رشيد رضا في زيادة اليمان

ويقول السيد رشيد رضا في تفسيره :

«وفيه رواه الإمام البخاري ومسلم في صحيحها شواهد صريحة في زيادة اليمان من أهله أحاديث أقل اليمان المنجني في الآخرة وحديث اليمان بضعة وسبعين شعبة اعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وادناها لعامة الأذى عن الطريق» .

ولهذا الحديث حمل بعض الناس زيادة اليمان على زيادة العمل اللازم له ، وبعضهم على زيادة ما يتعلّق به اليمان ، يقول : والحق أن اليمان القلبي يزيد وينقص أيضاً فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مؤمناً بإحياء الله للموتى لما دعا ربّه أن يرى كيف يحييها (قال ألم تؤمن؟ قال بلـى ولكن ليطمئن قلبي) فقام الطمأنينة في اليمان يزيد على ما فوقه من اليمان المطلق قوة وكمالاً .

ويروى عن على (رضي الله عنه) انه قال : لو كشف الحجاب ما ازدلت يقيناً ، وهذا أقوى من اليمان بالبرهان يقول : والعلم التفصيلي في اليمان أقوى وأكمل من العلم الاجمالي فمن آمن بأن الله تعالى علماً بمحيطاً بالمعلومات وحكمة قام بها نظام الأرض والسماءات ورحمة وسعت جموع المخلوقات وكان علمه بهن إجمالياً لسؤاله أن يبين لك شواهدك في الخلق لعجزك عنها لا يوزن إيمانه بيمان ذي العلم التفصيلي بسن الله في الكائنات وعجائب صنعه فيها على النحو الذي جرى عليه العلامة الحق ابن القيم في كتابه تفصيل النشأتين والإمام أبو حامد في كتاب التفكير من الأحياء وقد اتسعت معارف البشر بهذه الأسرار والسنن فعرفوا منها مالم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من القرون الخالية .

ومن كلام العلماء في ذلك قول الواحدي عن عامة أهل العلم : إن من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد وقال الكرخي أن نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة لفرق الميز بين يقين الأنبياء وارباب المكاففات ويقين أحد الأمة .

قال السيد رشيد رضا : وضرب الغزالى مثلاً لتفاوت قوة اليمان وسائر أنواع العلم من يرى شبح إنسان في السدفة (والسدفة في لغة بني تميم الظلمة والسدفة في لغة قيس الضوء وحکى الجوهري عن الأصممي : السدفة والسدفة في لغة نجد الظلمة وفي لغة

غيرهم الضوء وهو من الأضداد . وقال عمارة السدفة ظلمة فيها ضوء من أول الليل وآخره ما بين الظلمة الى الشفق وما بين الفجر الى الصلاة قال الأزهرى والصحيح ما قال عمارة) ثم يراه بعد وضوح الإسفار على بعد فلا يميز صفاتة ثم يراه في نور الشمس بجانبه فهل يكون علمه به في كل هذه الأحوال واحدا ؟

يقول رشيد رضا :

وجملة القول ان زيادة اليمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات اخرى كقوله تعالى في سورة آل عمران في وصف الذين استجابوا لله والرسول إذا دعاهم الى القتال بعد ما اصابهم القرح في غزوة احد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » وفي معناه قوله تعالى في سورة الأحزاب (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسلينا) وفي معناه قوله تعالى في اول سورة الفتح : « هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » يقول السيد رشيد : وعليه جمهور السلف بل حتى الاجماع عليه الشافعى وأحمد وابو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره يقول رشيد رضا فمن العجب بعد هذا ان تنقل هفوة لبعض العلماء انكر فيها زيادة اليمان لشبهة نظرية وبجعل مذهبها يقلد صاحبه فيه تقليدا وتتوال الآيات والأحاديث لأجله تأويلا .

ابوحنيفه رحمه الله وز زيادة اليمان

ومن لطائف الأمور ان احد علماء السادة المتأخرین من بلغوا في العلم شأوا بعيدا هو الشيخ محمد انور الكشمیری المتوفی سنة ١٣٥٢ هـ صاحب كتاب فيض الباری على صحيح البخاری .

يكاد ينكر نسبة القول بنفي الزيادة والتقصان الى الامام ابی حنيفة رحمه الله . يقول في الكتاب الذي سبق ذكره (ج ١ ص ٥٩) : « واعلم ان نفي الزيادة والتقصان وان اشتهر عن الامام ابی حنيفة لكنی متعدد بشأنه لأنی لم اجد فيه نقلًا صحيحا صريحا ». .

واما ما نسب اليه في (الفقة الأكبر) فالمحدثون على انه ليس من تصنيفه ، بل من تصنيف تلميذه ابی مطیع البلخي وقد تكلم فيه الذهبی وقال انه جهمی . اقول (من

اتباع جهم بن صفوان وهو رأس الجهمية قال الذهبي الصال المبتدع هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شرا عظيماً ومن عقائد الجهمية أن الجنة والنار تفنيان ، وإن الإيمان هو المعرفة فقط دونسائر الطاعات وأنه لا فعل لأحد على الحقيقة إلا الله ، والأنسان مجرّد على أفعاله إلى آخر ضلالاته) .

أما أبو مطیع البلاخي فاسمـه الحكمـ بن عبدـ اللهـ ترجمـ لهـ الـ ذـهـبـيـ فـيـ مـيزـانـ الـ اـعـتـدـالـ وقال : كان بصيراً بالرأي علامـةـ كـبـيرـ الشـأـنـ ولـكـنـهـ وـاـوـفـيـ ضـبـطـ الأـثـرـ وـكـانـ ابنـ المـارـكـ يـعـظـمـهـ وـيـجـلـهـ لـدـيـنـهـ وـعـلـمـهـ قـالـ ابنـ معـينـ: لـيـسـ بـشـيـءـ وـقـالـ مـرـةـ ضـعـيفـ. وـقـالـ الـ بـخـارـيـ صـاحـبـ رـأـيـ وـقـالـ اـحـدـ لـأـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـرـوـىـ عـنـ شـيـءـ وـقـالـ اـبـوـ دـاـوـدـ تـرـكـواـ حـدـيـثـهـ وـكـانـ جـهـمـيـاـ وـقـالـ الـ عـقـيلـيـ حـدـثـاـ عـبـدـ اللهـ بـنـ اـحـدـ سـأـلـتـ اـبـيـ عـنـ اـبـيـ مـطـيـعـ الـ بـلـاخـيـ فـقـالـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـرـوـىـ عـنـ حـكـوـمـاـ حـدـيـثـاـ عـنـ اـنـهـ يـقـولـ جـنـةـ وـنـارـ خـلـقـتـاـ فـسـتـفـنـيـاـنـ وـهـذـاـ كـلـامـ جـهـمـ .

ويروي له الذهبي حديثاً عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة أن وفـدـ ثـقـيفـ سـأـلـواـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـنـ الـإـيمـانـ هـلـ يـزـيدـ اوـيـنـقـصـ فـقـالـ لـأـ ، زـيـادـهـ كـفـرـ وـنـقـصـانـهـ شـرـكـ (¹) .

(¹) يروي الذهبي هذا الحديث ليـرـيـناـ مـبـلـغـ نـكـارـةـ حـدـيـثـ الـ بـلـاخـيـ ، وـأـبـوـ المـهـزـمـ الـنـبـيـ جـاءـ ذـكـرـهـ هوـ صـاحـبـ اـبـيـ هـرـيـرـةـ قـالـ النـسـائـيـ مـتـرـوـكـ وـقـالـ مـسـلـمـ بـنـ اـبـرـاهـيمـ سـمعـتـ شـعـبـةـ يـقـولـ كـانـ اـبـوـ المـهـزـمـ مـطـرـوـحـاـ فـيـ مـسـجـدـ لـوـاعـطـاهـ اـنـسـاـنـ فـلـسـاـ حـدـثـهـ سـبـعـينـ حـدـيـثـاـ وـفـيـ روـاـيـةـ ثـانـيـةـ عـنـ شـعـبـةـ وـلـوـيـعـطـيـ درـهـاـ لـوـضـعـ حـدـيـثـاـ .

ويقول الشيخ الكشميري : وـنـقـلـ فـيـ شـرـحـ (ـعـقـيـدـةـ الـ طـحاـوـيـ) عـنـ طـرـيقـ اـبـيـ مـطـيـعـ الـ بـلـاخـيـ عـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ماـ معـناـهـ أـنـ الـإـيمـانـ لـاـ يـزـيدـ وـلـاـ يـنـقـصـ قـالـ اـبـنـ كـثـيرـ فـيـ اـسـنـادـهـ كـلـ رـجـالـهـ بـعـرـوـحـونـ ، وـرـأـيـتـ هـذـاـ حـدـيـثـ فـيـ الـمـيـزـانـ فـيـ تـرـجـمـةـ الـ بـلـاخـيـ فـأـسـقطـهـ الـ ذـهـبـيـ اـقـولـ لـفـظـةـ فـأـسـقطـهـ غـيرـ وـاضـحةـ وـلـكـنـيـ رـجـعـتـ إـلـىـ شـرـحـ الـ عـقـيـدـةـ الـ طـحاـوـيـةـ فـوـجـدـتـ حـدـيـثـ هـنـاكـ مـذـكـورـاـ بـسـنـدـ كـامـلـ عـنـ الـفـقـيـهـ اـبـيـ الـلـيـثـ السـمـرـقـنـدـيـ وـفـيـ حـدـيـثـ زـيـادـهـ غـيرـ مـذـكـورـهـ عـنـ الـ ذـهـبـيـ وـهـيـ الـإـيمـانـ مـكـلـ فـيـ الـ قـلـبـ زـيـادـهـ كـفـرـ وـنـقـصـانـهـ شـرـكـ وـجـلـةـ (ـالـإـيمـانـ مـكـلـ فـيـ الـ قـلـبـ)ـ هـيـ المـفـوـدـةـ فـيـ روـاـيـةـ الـمـيـزـانـ وـلـعـلـ هـذـاـ الـذـيـ يـعـنـيهـ الشـيـخـ الـكـشـمـيرـيـ بـقـولـهـ فـأـسـقطـهـ ايـ اـسـقطـهـ منهـ .

وـاقـولـ انـ ماـ اـسـقطـهـ الـ ذـهـبـيـ اـيـرـبـكـثـيرـ مـنـ نـقـلـ الشـيـخـ لـلـ حـدـيـثـ فـالـشـيـخـ الـ كـشـمـيرـيـ يـقـولـ نـقـلـ ماـ معـناـهـ أـنـ الـإـيمـانـ يـزـيدـ وـلـيـنـقـصـ وـلـفـظـ الـ حـدـيـثـ زـيـادـهـ كـفـرـ وـنـقـصـانـهـ شـرـكـ وـمـنـ الـأـمـانـةـ الـعـلـمـيـةـ وـمـنـ شـرـوطـ الـمـحـدـثـينـ فـيـمـ يـحـدـثـ بـالـعـنـيـ أـنـ يـكـوـنـ عـالـمـاـ بـاـ يـغـيـرـ الـعـنـيـ وـنـقـلـ الشـيـخـ يـخـفـفـ نـكـارـةـ الـ حـدـيـثـ وـقـدـ قـالـ عـنـ نـاصـرـ الدـيـنـ الـأـلـبـانـيـ مـوـضـعـ وـهـوـ عـلـىـ حـقـ فـيـ رـأـيـناـ .

وما سبق يتبيّن ان الشّيخ الكشميري كان متّساعاً في عزوّه التّهمة بالجهمية الى الذهبي ذلك ان الذهبي كما رأينا ذكر رأيه في اول الترجمة فقال كان بصيراً بالرأي علامة كبير الشأن ولكنه واه في ضبط الأثر وهذا رأي الشّيخ بعينه والذهبـي ينقل تهمته بالجهمية عن أبي داود ويؤيد ذلك قول عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه ثم يقول الكشميري : اقول ليس كما قال ولكنه ليس بمحاجة في باب الحديث لكونه غير ناقد .

وقد نفى الشّيخ نفياً قاطعاً بغير إيراد حجّة كون أبي مطيع جهيمياً اما الذهبـي فقد سرد اقوال أئمّة النّقد: البخاري وابن معين والنّسائي وأحمد وكان حرّياً بالشّيخ الكشميري ان يواجه هؤلاء في نقدّهم ويبين وجه الحق .

ثم يقول الشّيخ الكشميري :

وقد رأيت عدة نسخ للفقـه الأكـبر فوجـدتـها كلـها مـتـغـاـرـيـة وهـكـذـا «كتـابـ العالمـ والمـتـعـلـمـ» و«الـوـسيـطـينـ» الصـغـيرـ والـكـبـيرـ كلـها منـسـوـبـةـ إـلـىـ الـإـمـامـ والـصـوابـ إـنـاـ لـيـسـ لـهـ . واماـ الحـافـظـ ابنـ تـيـمـيـةـ رـحـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ فـانـهـ وـاـنـ نـسـبـ الزـيـادـةـ وـالـنـفـصـانـ إـلـىـ اـمـامـناـ رـحـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ لـكـنـ فـيـ طـبـعـهـ سـوـرـةـ وـحـدـةـ فـاـذـاـ عـطـفـ إـلـىـ جـانـبـ عـطـفـ وـلـاـ يـبـالـيـ وـاـذـاـ تـصـدـىـ إـلـىـ اـحـدـ تـصـدـىـ وـلـاـ يـحـاشـيـ ، وـلـاـ يـؤـمـنـ مـثـلـهـ مـنـ الـاـفـرـاطـ وـالـتـفـرـيـطـ فـاـلـتـرـدـدـ فـيـ نـقـلـهـ هـذـاـ وـاـنـ كـانـ حـافـظـاـ مـتـبـحـراـ .

اقول : يدع الشّيخ الكشميري نقل الامام ابن تيمية بعد ان شهد له بأنه حافظ متّبّح لأنّ في طبعه سورة وحدة وقد تبيّن للشّيخ الكشميري في النّهاية ان ما ذكره ابن تيمية حق .

يقول الشّيخ الكشميري : ولـاـ انـدـعـتـ النـقـولـ الصـحـيـحةـ عـنـ الـإـمـامـ كـدـتـ اـنـفـيـ عـنـهـ تلكـ النـسـبةـ غـيـرـ اـنـيـ رـأـيـتـ اـبـاـ عـمـرـ وـالـمـالـكـيـ (ـيـعـنـيـ اـبـنـ عـبـدـ الـبـرـ)ـ نـسـبـهـ فـيـ شـرـحـ المـوـطـأـ إـلـىـ شـيـخـ إـمـامـناـ حـادـ وـهـوـ مـنـ الـمـتـقـنـينـ الـمـتـشـبـتـينـ فـيـ بـابـ النـقـلـ ، فـلـاـ مـنـاصـ مـنـ تـسـلـيمـ تـلـكـ النـسـبةـ .

يقول الشّيخ الكشميري : ثم رأيت في طبقات الحنفـيـةـ تـحـتـ تـرـجـمـةـ اـبـرـاهـيمـ بنـ يـوسـفـ تـلـمـيـذـ اـبـيـ يـوسـفـ اـنـ اـبـرـاهـيمـ بنـ يـوسـفـ وـأـحـمـدـ بنـ عـمـرـانـ اـنـهـاـ كـانـاـ يـقـولـانـ بـزـ يـادـةـ الـإـيمـانـ

ونقصانه مع كونها من كبار الخنفية فهذا ايضاً كان يريبني^(١).

اما المحدثون فكلهم الى ان الامان يزيد وينقص واثبت شيء في هذا الباب عقيدة الطحاوي فانه كتب في اوله بأنه فيه عقائد الامام ابي حنيفة رحمه الله تعالى وأبي يوسف رحمه الله تعالى وأحسن شروحه شرح (القونوى) وهو حنفي المذهب تلميذ ابن كثير ويستفاد منه ان الامام رحمه الله تعالى اثنا نفى الزراوة والنقصان في مرتبة محفوظة كما سيأتي ولا ينفي مطلقاً.

وكيف كان فقد سلمت بالقول المذكور.

وبعد ان يسلم الشيخ بنسبة نفي الزراوة والنقصان الى الامام ابي حنيفة يأخذ في بيان مراده وتقريره الى الاذهان ويبدأ بالتسليم بأن الزراوة والنقصان في الامان بمعنى التصديق أمر ممكن وان لم يتكلم فيه السلف برأيه لأن السلف تكلموا في زراوة الامان دون تحليله بحث منطقي او جده المتكلمون من المتأخرین ولكنه يرجع عن هذا اعني عن كلامه عن السلف.

يحاول الشيخ الكشميري بيان مقصد الامام ابي حنيفة في قوله (الامان لا يزيد ولا ينقص) ويصف المراحل التي مر بها في بحثه اما المرحلة الأولى فهي الريب في نسبة هذا القول الى الامام ابي حنيفة والشك في ذلك ولقد انتهت هذه المرحلة بأنه لم يوجد مناصاً من التسلیم بنسبةها الى الامام.

وفي المرحلة الثانية يبين بأن الخلاف بين الامام ابي حنيفة وبين السلف ناشيء من اختلاف مفهوم الامان ، السلف ادخلوا في مفهوم الامان العمل وابو حنيفة لم يدخل الأعمال في الامان ومن هنا جاء الخلاف ومعنى الزراوة في نظره على هذا عند السلف هي الزراوة في الأعمال فكان مؤدي هذا الفهم ان السلف حين قالوا ان الامان يزيد وينقص لم يلحظوا اجزاء الامان يعني لم يلحظوا جزء التصديق وانما تكلموا عن الامان بجمعه .

يقول :والسلف اثنا اختلفوا في الامان نفسه لا في جزء منه بعد التحليل فن قال انه

(١) اقول لا ادرى اين مكان الريبة في هذا او مرتب في نسبة هذا القول الى اثنين من كبار الخنفية ام يرى ان قولهما يزيد امان يزيد ريبة في نسبة القول الى الامام ابي حنيفة ولعل الأول اقرب .

قول وعمل ذهب الى الزيادة والنقصان لأن العمل في الإيمان فن عمل عملاً صالحًا فقد تم إيمانه ومن نقص فيه انتقص إيمانه لا محالة ومن لم يدخل الأعمال في الإيمان بل جعله عبارة عن التصديق لم يلزم عليه ذلك فأصل النزاع في إدخال الأعمال في مسمى الإيمان وآخرتها عنه وإن الإيمان أمر أو أمور ولذا بوب البخاري فيما بعد «باب امور الإيمان».

وفي هذه المرحلة لا يحجم الشيخ الكشميري عن التصرّح بأن الإيمان بمعنى التصديق يزيد وينقص ويُرد على حجج الثقة ويلخص أدلةهم بدللين يردهما.

اما الدليل الأول الذي يرده فخلاصته ان التصديق ماهية فلوقلنا بالزيادة والنقصان لزمنا التشكيك في نفس الماهية والتشكيك في الماهية باطل.

يذكر الشيخ بأن الكمال بن الحمام جاؤه الى هذا الدليل والكشميري يرده من وجهين او هما انه استمداد من قواعد الفلاسفة وهو عار والوجه الثاني انه لا حرج في التشكيك في الماهية فدليلهم في نفسه باطل عند المحققين ويقول لوضع قولهم للزم عليه الا تكون الصلاة ايضاً ناقصة وزائدة مع ان زياتها ونقصانها لا ينكره احد.

والدليل الثاني قالوا لو جوز التشكيك في التصديق لزم اجتماع التصديق والشك معاً فلا يبقى التصديق منجياً فلا يكون إيماناً.

يقول: وهذا افحش من الأول ويفسر مثلاً بسواد الغراب وسود الشوب ويقول نقص سواد الغراب عن سواد الشوب لا يستلزم مجيء جزء من البياض في سواد الغراب لأن السواد عرض عريض وفيه مراتب لا يعودها عادٌ وينتقل بعد بحثه هذا الى التصديق ويقول: كذلك التصديق لا ينتفي الا بعد انتفاء جموع مراتبه ولا يلزم بانتفاء جزء منه ان يقوم مقامه جزء من الكفر فان الإيمان ايضاً عرض عريض.

وبعد ان ثبتت ان التصديق يعتريه النقص والزيادة يقول: على ان هذا البحث لم يجر لدى السلف بل هو بحث عقلي اوجده المتأخرون ويبيّن ما سبق ان ذكرنا ان بحث السلف في مجموع الإيمان لا في اجزائه ثم يرجع فيبيّن خطأه في هذا الفهم بعد زيادة النظر والتأمل. يقول: هكذا كنت اقيم تحقيق الاختلاف (يعني بأن من قال انه قول

وعمل ذهب الى الز يادة والنقصان ومن لم يدخل الاعمال في اليمان لم يلزمته ذلك) واليه ذهب اكث الشارحين . يقول ثم رأيت ز يادة في مقوله السلف انقلب منها المراد ففهمت حقيقة الحال وهي انهم قالوا اليمان يز يد بالطاعة وينقص بالمعصية بيان منه انهم قائلون بالزيادة والنقصان في التصديق الباطني لا في اليمان المركب .

وهنا دخل الشيخ الكشميري في مرحلته الأخيرة ففهمه السابق ليس صحيحا وقد وجدنا هذا الفهم لدى القرطي ونقلنا عنه انه يقول الز يادة والنقصان بالزيادة والنقصان في التصديق نفسه وهو قد اثبت لنا عقليا امكان ز يادة التصديق ونقصه فما معنى قول الامام ابي حنيفة ان اليمان لا يز يد ولا ينقص .

قال السلف : اليمان يز يد بالطاعة وينقص بالمعصية .

يقول الشيخ الكشميري : ان عبارتهم هذه تدل على ان الاعمال داخلة في ازيداد اليمان ونقصانه وسبب له وان لها سراية وتأثيرا في غاء التصديق واليمان لا انها اجزاء ، فليس الاخلاع عندهم بالعمل كقطع الغصن من الشجرة بل كعدم سقيها بالماء فلا بد من أن تيبس .

بعد كل هذا ما هو موقف الامام ابي حنيفة في ز يادة اليمان ونقصه ؟
بعد ذكر ما سبق وبعد التنبيه الذي اورده الشيخ من ان الاعمال كالماء بالنسبة للشجرة اذا انقطع عنها كان سببا في موتها فهي عامل اساسى في غاء اليمان وبقائه ، بعد ذكر هذا يقول : ثم الز يادة والنقصان بهذا المعنى أمر لا ينكره الامام فان الانفساح والانشراح زائد وناقص قطعا وهو المبحوث عنه في القرآن وعليه يحمل ما تلا المصنف (يعنى البخاري رحمه الله) من الآيات . اقول ولفظة الانفساح والانشراح تلقت النظر لقد اثبت الشيخ امكان الز يادة والنقصان في التصديق نفسه فأين يقع الانفساح والانشراح من التصديق أهون نفسه ام ثمرته ؟ يجيز بعد قليل بأنها من مراتب الكمال في التصديق .

يقول : وحاصل الخلاف على هذا التقدير أن الامام ابا حنيفة رحمه الله تعرض لأمر لم يتعرض له السلف فإنه تكلم في مرتبة محفوظة وهي التي يدور عليها أمر النجاة وليس بعدها الا الكفر .

ويقول : فالتصديق وإن زائداً أو ناقصاً باعتبار مراتب الكمال والانفساح والانسراح إلا أن هنالك مرتبة منه معينة ذكرها الكمال بن الهمام وسماها التصديق بمعنى انتفاء الشك لا تفاوت فيها لأنه لا تفاوت بين الانتفاء والانتفاء وإنما التفاوت في الانسراح والاستيلاء .

يستشهد الشيخ الكشميري على ما ذكر بقول الغزالى :

قال رحمه الله إن الإيمان قد يطلق على اليقين بمعنى انتفاء التقيض ولا تفاوت فيه وقد يطلق على استيلاء اليقين على القلب وجعله الجوارح تابعة له وهو الأكثر وهذا هو الذي فيه التفاوت واستشهد أيضاً بقول الطحاوى في عقيدته ، قال رحمه الله :

الإيمان واحد وأهله في أصله سواء ، والتفاضل في الخشية والتقوى ومخالفة الهوى
وملازمته التقوى ... الخ

يقول الكشميري : فجعل للإيمان أصلاً وجعل الناس كلهم فيه سواء وهو الذي لو انحط عنه الإيمان جاء الكفر مكانه ، وأبقى التفاضل في أمور تتعلق بالإيمان من الخشية وغيرها والإيمان بمعنى التقوى والخشية يزيد وينقص والناس يتفاضلون فيه .

وهكذا بين الكشميري أن كلام الإمام منصب على أصل الإيمان الذي لونقص عنه لانتهى إلى الكفر وهنا ترد عليه ايرادات كثيرة منها أن الشيخ نفسه رحمه الله قال إن الإمام أبا حنيفة تعرض لأمر لم يتعرض له السلف والذي يبدو لنا جلياً أن عدم التعرض له هو الأولى وإن يسعنا ما وسع السلف هو الأولى ذلك لأنه فتح لبحوث نظرية ومحادلات كلامية لا تأتي بظائف ولكنها تصرف المؤمنين عن واجبهم الأول وهو العمل والجهاد وإصلاح مجتمعهم وبناء أمتهم وحمل دعوتهم إلى الناس جميعاً ثم إن هذا البحث يفرق الجماعة ويكسر الوحدة ولذلك كان التزام ما فعله السلف والاكتفاء به هو الأولى ثم إن هذا البحث النظري ليس مما تدركه العقول ادراكاً تصل فيه إلى كنهه ويدولى جلياً أنه لا يخلو من أخطاء منها تعمق الباحث فيه ذلك أن حقيقة الإنسان مجهولة . ولقد نقل الشيخ عن الكمال بن الهمام وعن الغزالى بأنهما جعلا للإيمان أصلاً لا تفاوت فيه وهذا في نظري كلام يحسبه المنطق صواباً وهو في الواقع خطأ ، اذا كان الكمال يتفاوت عند الرجال فلأن الأصل يتفاوت أيضاً وما هو هذا الأصل أيمكن تحديده وقياسه هل يمكن

أن نقيس أصل الإيمان لدى أي إنسان ونحذف عنه الزوائد التي اضفت الى الأصل؟ .

هل الناس متساوون في هذا الأصل؟ أهذا الأصل كم أم كيف؟ هل أصل إيمان أبي بكر كأصل إيمان عامة الناس؟ هل يتأثر هذا الأصل بعقل الإنسان ومزاجه وعواطفه وميوله ورغباته وهذه كلها مختلفة متفاوتة من إنسان لآخر، إن من حكمة الله جل شأنه أن جعل في هذا الإنسان وفي المخلوقات جميعاً وحدة في افتراق وإفتراقاً في وحدة فالبشر كلهم يشترون بصفات البشرية ويفرق كل واحد عن الآخر بما يميزه عنه في كل صغيرة وكبيرة فلا يشبه لون لوناً ولا صوتاً ولا فهماً وكذلك لا يشبه إيماناً إيماناً ولا يشبه أصل إيمان أصل إيمان .

على أن هذا البحث بهذه الطريقة قد يكون غير مجده أيضاً والبحث السليم كما قال ابن تيمية رحمه الله : الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث اذا عرف تفسيرها من جهة النبوي صلى الله عليه وسلم لم يحتاج في ذلك الى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم .

حقيقة الإنسان مجهولة

يتسائل الباحثون المحدثون الذين قطعوا أشواطاً حسنة في معرفة سلوك هذا الإنسان سلوكه الظاهري وسلوكه النفسي يتساءلون كيف يفكر هذا الإنسان وكيف يحب وكيف يبغض وكيف يعتقد ويجدون أنفسهم عاجزين عن الإجابة عن هذه الأسئلة إجابة دقيقة عميقية ذلك أن كل ما توصلوا اليه شيء يسير جداً عن هذه الحوادث النفسية التي لا ينقطع الإنسان لحظة من المرور بعشرات منها عرفوا يسيراً عن مظاهر هذه الحوادث وبعض ارتباطاتها ولكنهم يجدون من العسير جداً أن يصلوا الى الحقيقة والى الأعمق ونجدهم ما يزالون يختلفون اختلافاً كبيراً في تفسير الحوادث النفسية بحسب المدارس التي ينتسبون اليها فهناك الماديون الذين ينفون وجود نفس في هذا الإنسان أو عقل له كيان خاص يتوتر في وجود المادى ويتأثر به بل هم يرون أنه ليس هناك شيء وراء هذا الجسم والآلة واعصابه وما الذي يسميه الناس نفساً أو عقلاً إلا أثر من آثار هذه الجسم المادي في نظر هؤلاء وهم لا يؤمنون بأن للإنسان فطرة أو استعداداً فطرياً يأتي إلى هذا العالم وهو مجهز به يحمله في ثنايا نفسه ولكنه يتعلم كل شيء بعد ولادته من بيته هذه النظرة المادية تغير نظرة أكثر الباحثين في علم النفس ذلك أنهم يرون أن الكيان النفسي غير الكيان

الجسمي وأن في هذا الإنسان استعدادات فطرية يحملها في تكوينه قبل أن يولد.

وكل هذا نرمي من ورائه إلى غرض هام جداً أن هذا الإنسان ما يزال مجهولاً ولم يستطع الباحثون بعد أن يعرفوا أبسط العمليات النفسية التي يقوم بها كيف يتذكر أو ينسى كيف يُسر أو يتالم وكيف يغضب أو يرضى وبيت القصيد كيف يعتقد، وهذا الموضوع أعظم الموضوعات التي عالجها الباحثون أهمية.

والحق أنه لما كان عنصر الحياة مجهولاً وحقيقة معنى الحياة مجهولة فكذلك كل ما يتصل بهذه الحياة ما يزال مجهولاً في حقيقته وجوهه، وإنما يعرف الباحثون مجرد الارتباطات الظاهرة.

دراسة الاعتقاد دراسة نفسية

وفي دراسة الاعتقاد دراسة نفسية نجد بعض الباحثين يبنون الاعتقاد على الحاجة والعمل فيقولون إن الأفكار التي تصدقها هي الأفكار الناجحة في حياتنا وعلى هذا فالعمل ميزان الاعتقاد بمعنى أن الأفعال التي تقوم بها إذا أدت إلى النجاح تمسكنا بها واعتقدنا صحتها. ويرى هؤلاء أن الاعتقاد يتغذى بالعمل وبالحياة وأن الإيمان الذي لا يعمل قد يكون صادقاً ولكنه لا يثبت أن يصاب بالفتور والموت ثم إن الاعتقاد لا يفارق مظاهره الخارجية أبداً.

هذه النظرية تؤيد قول السلف بأن الإيمان لا يمكن أن ينفصل عن العمل.
وهكذا ترى هذه النظرية النفسية أن الاعتقاد ليس إلا الظواهر الناجحة في الحياة التي هي مظهر للإعتقاد.

وقد نقدوها ناقدوها بأنها غالٍ في تقدير الأعمال وجعلتها هي الاعتقاد وحدها.

والنظرية الثانية ترى أن الاعتقاد مجرد من تأثير العقل تماماً وأنه قائم على ما لقنه وما رغب فيه بعض الناس يعتقد مذهبًا لما يرى فيه من تحقيق مصالحة وهكذا يرى هؤلاء أن إيمان أكثر الناس بالعقائد الموروثة مبني على التقليد والتلقين لا على اليقين ويرون أن العقل يسخر لما يريده الإنسان فلا يريده الإنسان ما يستيقن به ولكنه يستيقن ما يريده ونتائج هذه النظرية الريب لأن الاعتقاد في نظر هؤلاء لا يستند إلى أصول برهانية ثابتة.

والنظرية الثالثة يقول بها انصار المبدأ العقلي الذين يقولون ان الاعتقاد تابع للعقل وفي رأي هؤلاء أن العقل لا يستبدل بالبراهين الرغائب ولا يدع الأسباب العقلية للبواطن العاطفية و اذا حاولت الرغبات أن تنتصب حق العقل شعر الانسان أنه يكذب على نفسه .

أكبر دليل في نظر هؤلاء أن الذين يشكرون في النظرية العقلية هم إنما يحاربون العقل بالعقل نفسه .

وقد وجد الباحثون أن كل نظرية من النظريات السابقة لا تخلون من جانب من الصواب كما لا تخلو من خطأ والخطأ فيها كلها اعتبارها احوال النفس منفصلا بعضها عن بعض والواقع ليس كذلك إذ النفس وحدة متصلة وكل مترابط الأجزاء متداخل فالعقل لا ينفصل عن الانفعالات والوجدانات وهي لا تنفصل عنه والارادة محصلة لجميع القوى المتبعة عن الأفكار والعوطف .

وإذا كانت الفكرة قوة دافعة كما يقول اصحاب المذهب العقلي فالعواطف ايضا قوى محركة والعقل محتاج الى العمل ليتحقق المعاني التي لديه وهكذا كان الرأي الصواب أن العناصر الثلاثة تسهم في بناء كل عقيدة وهي الفكر والعاطفة والعقل والنفس بكل ما فيها تشارك في الاعتقاد وقد يكون بعض مظاهر النفس غلبة على المظاهر الأخرى ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص .

ثم إن الاعتقاد لابد له من اسباب اجتماعية أيضاً فلا يعيش المعتقد ولا ينمو إلا إذا هيأ له المجتمع أسباب الحياة والنمو .

وهكذا نجد هذا البحث النفسي السابق يلتقي تمام الالقاء مع رأى السلف في موضوع الاعتقاد فالاعتقاد ليس تصديقا فكرياً فحسب ولكنه يشمل النفس بكل ما فيها فهو أمر يجري في نفس المرء ولكن ما يجري في الداخل لا يمكن ان يترجمه السلوك وتدل عليه المظاهر .

المصطلحات الشرعية يحكم في معناها الشرع

ولكن منها بلغ تفكيرنا في الأمر فلن يصل الى كبد الحقيقة والرأي في مثل هذه

الموضوعات التي تولى الشرع بيانها وايضاً حفظها أن نلتزم ما جاء به الشرع لا نحيد عنه ولا
نحاول بحثه بعقولنا بحثاً بعيداً عما أتى به الشرع فلن تصل عقولنا في هذا المضمار إلى كنه
ولكن تدرك الأعمق ، وهذا الذي نبه إليه الإمام ابن تيمية عليه رحمة الله ووجه الانتظار
إليه فكان قوله نبراساً مضيئاً وفيصلاً حاسماً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله في كتاب الإيمان :
ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما
أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتاج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل
اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلة
والزكاة ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض
ولفظ المعروف في قوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) ونحو ذلك .

يقول عليه رحمة الله :

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق وصاروا يبنون
دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها إما في دلالة الألفاظ وأما في المعاني المعقولة
ولا يتأنلون بيان الله ورسوله . وكل مقدمة تخالف بيان الله ورسوله فانها تكون ضلالاً
ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير
استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكذلك ذكر في رسالته إلى عبد الرحمن
الجرجاني في الرد على المرجة .

وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك
سبيلاً ، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله ما
لا يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمته الله ورسوله .

قال تعالى في الشيطان : « إنا يأمركم بالسوء والفحشاء ، وان تقولوا على الله ما لا
تعلمون » وقال تعالى « الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله إلا الحق »
وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث « من قال في القرآن برأيه فليتبأ
مقعده من النار ». .

يقول شيخ الإسلام : « مثال ذلك أن المرجحة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله

أخذوا يتكلمون في مسمى الاعان والاسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها ، مثل أن يقولوا الایمان باللغة هو التصديق والرسول اما خاطب الناس بلغة العرب لا بغيرها فيكون مراده بالایمان التصديق ثم قالوا والتصديق اما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالاعمال ليست من الایمان .

فيقال لهم اسم الایمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث اكثر من ذكرسائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويفرق بين السعداء والأشقياء ، ومن يوالى ومن يعادى ، والدين كله تابع لهذا ، وكل مسلم يحتاج الى معرفة ذلك فأفيجوز أن يكون الرسول قد أهل هذا كله ووكله الى هاتين المقدمتين يعني بالمقدمتين الأولى الایمان هو التصديق والتصديق اما يكون بالقلب فالاعمال ليست من الایمان .

يقول ونقل معنى الایمان متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فان الایمان يحتاج الى معرفته جميع الأمة فينقلونه ، فلا يجوز أن يكون أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات » .

ينفي شيخ الاسلام أن يكون التصديق مرادفاً للایمان ويبين وجوه المفارقة بينهما . ويرى أن تفسير الایمان بالإقرار أقرب من تفسيره بالتصديق مع البون بين البون والإقرار ثم يذكر أن لفظ الایمان لا يستعمل الا في الخبر عن غائب وليس كذلك التصديق فلا يقال لمن اخبر عن مشاهدة قوله طلعت الشمس وغربت آمنا ولا آمنا له ، ولكن يقال صدقناه فان الایمان مشتق من الأمان فيستعمل في خبر يؤمن عليه الخبر كالأمر الغائب الذى يؤمن عليه الخبر .

ثم إن لفظة الایمان لا تقابل باللغة بالتكذيب اما لفظة التكذيب فيقابلها التصديق ولفظة الایمان يقابلها الكفر والكفر ليس تكذيباً فحسب وكذلك الایمان ليس تصديقاً فحسب .

الكفر قد يكون تكذيباً وقد يكون مخالفة ومعاداة وامتناعا بلا تكذيب والایمان على هذا ليس تصديقاً فحسب بل هو تصديق مع موافقة ومولاة وانقياد .

قولهم إن التصديق لا يكون الا بالقلب مردود

وبعد هذا التفرق بين الایمان والتصديق الذى هو غاية في الابداع يتنزل ابن تيمية

ويقول اذا فرض انه مراوف للتصديق فقولهم إن التصديق لا يكون الا بالقلب أو اللسان
عنه جواباً :

اوهما لا نسلم بأن التصديق خاص بالقلب واللسان بل التصديق يشمل الأفعال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي » وقال الحسن البصري : « ليس الإيمان بالتحلي ولا بالمعنى ولكن ما وقر في القلوب وصدقه الأفعال » .

وهكذا يثبت ابن تيمية عليه رحمة الله أن التصديق يكون في الجوارح ويكون في الأفعال وهو معنى لطيف ايضاً فالمؤمن تصدق جوارحه ايمانه ، يصدق ايمانه وجهه ولسانه ويده ورجله وسعيه .

وينقل هنا كلام سعيد بن جبیر بأن التصديق ان يعمل العبد بما صدق به من القرآن
والقصة جليلة نقلها بنصها :

روى محمد بن نصر بسانده ان عبد الملك بن مروان كتب الى سعيد بن جبیر يسأله عن هذه المسائل فأجابه عنها : سألت عن الإيمان فالإيمان هو التصديق أن يصدق العبد بالله وملائكته وما انزل من كتاب وما أرسل من رسول وبال يوم الآخر وسألت عن التصديق والتصديق أن يعمل العبد بما صدق به من القرآن ، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه عرف انه ذنب واستغفر الله وتائب منه ولم يصر عليه فذلك هو التصديق ، وتسأل عن الدين فالدين هو العبادة فما ان تجد رجلاً من أهل الدين ترك عبادة أهل دين ثم لا يدخل في دين آخر الا صار لا دين له ، وتسأل عن العبادة والعبادة هي الطاعة .

وينقل ابن تيمية رحمة الله قول معمربن الزهرى كنا نقول الاسلام بالاقرار والإيمان بالعمل والإيمان قول وعمل قرینان لا ينفع أحدهما إلا بالآخر .

وينقل قول الأوزاعى : كان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل :
العمل من الإيمان والإيمان من العمل .

يقول ابن تيمية هب ان الإيمان هو التصديق فهو تصديق مخصوص كما ان الصلاة دعاء مخصوص ، والحج قصد مخصوص والصيام امساك مخصوص وهذا التصديق له لوازم

وصارت لوازمه داخلة في مسماه عند إطلاق لفظه ، فان انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزم و يبقى النزاع لفظيا هل الایمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم .

أقول : أورد الامام ابن تيمية أدلة ثلاثة وسلك مسالك ثلاثة أولاً نفي فيها أن يكون الایمان هو التصديق وحده والثاني سلم تنزلا انه هو ولكن لم يسلم ان التصديق لا يكون الا بالقلب بل الجوارح تصدق والأعمال تصدق والثالث سلم أيضاً أن الایمان تصدق ولكن تصدق مخصوص له لوازمه من العمل وعلى الوجه الأخير الایمان يدل على العمل دلالة لزومية والوجهين الأولين تضمنية . وأدلة أدلة واضحة مقنعة لا سبيل إلى الطعن فيها .

وبعد هذا كله يقول عليه رحمة الله منصفا :

التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة نزاع لفظي ذلك أن القائلين بأن « الایمان قول » من الفقهاء كمحمد بن أبي سليمان وهو أول من قال ذلك ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متتفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد .

والایمان بدون العمل المفروض يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب كما تقوله الجماعة ويقولون ايضاً بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة .

فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنًا وظاهرًا بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وما تواتر عنه من أنهم من أهل الوعيد وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله فيها ولا يخلد منهم فيها أحد ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء ولكن الأقوال المنحرفة من يقول بتخليدتهم في النار كالخوارج والمعزلة وقول غلاة المرجئة : (ما نعلم أحداً منهم يدخل النار) .

بعد ان ثبت شيخ الاسلام ابن تيمية عليه رحمة الله بأدلة لا تدفع أن الایمان تصدق وقول وعمل ، عرض للمشكلة التالية وأوضح سبيل الخرج منها قال : إذا كان الایمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فتى ذهب بعض ذلك فهل يبطل الایمان ويلزم عليه تكفير أهل الذنوب كما تقول الخوارج أو تخليدتهم في النار وسلبهم اسم الایمان بالكلية كما تقول المعزلة ؟ .

ويقول عليه رحمة الله في الجواب : تخليد أهل الكبائر في النار هو قول لم يوافق الخوارج عليه أحد من أهل السنة ولقد اتفق الصحابة والتابعون لهم وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد من في قلبه مثقال ذرة من إيمان واتفقوا أيضاً على أن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته ، ففي الصحيحين عنه أنه قال : « لكلنبي دعوة مستجابة وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتى يوم القيمة » .

وينتقل بعد رد مذكرة الخوارج إلى الحديث عن أصل الموضوع وهو أن الإيمان إذا ذهب بغضه ذهب ، يقول : هذا منوع وقد تفرع عن هذا الأصل بدعستان متقابلتان إحداهن تقول إذا ذهب من الإيمان بغضه ذهب كلها لم يبق منه شيء فيخلد صاحبه في النار والفرقة المقابلة (المرجحة) تقول : لا تذهب الكبائر والمعاصي ولا ترك الواجبات الظاهرة بشيء من الإيمان إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء .

يقول ابن تيمية رحمة الله ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه كقوله « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

يقول رحمة الله وهذا كان أهل السنة والحديث على أن الإيمان يتفضل جمهورهم يقول يزيد وينقصون منهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك في إحدى الروايتين ومنهم من يقول كعبد الله بن المبارك وقد ثبت لفظ الز يادة والنقصان عن الصحابة يقول ابن تيمية ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة .

روى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الإيمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه .

وروى اسماعيل بن عياش بسنده عن أبي الدرداء قال : الإيمان يزيد وينقص .
وقال احمد بن حنبل حدثنا يزيد قال حدثنا جرير بن عshan قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء قال : إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ومن

فقه العبد أن يعلم أى زداد إيمانه أم ينقص؟ وان من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأيه.

وروى اسماعيل بن عياش بسنده إلى أبي هريرة قال الإيمان يزيد وينقص.

وروى احمد بن حنبل بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول لأصحابه هلموا نزد إيماناً فيذكرون الله عزوجل.

وقال أبو عبيدة في الغريب في حديث على أن الإيمان يبدو لحظة في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللحظة.

ويروي احمد بن حنبل بأسناده إلى ابن مسعود يقول في دعائه اللهم زدنا إيماناً وقييناً وفقهاً.

ويروى سفيان الثوري بأسناده إلى معاذ بن جبل يقول للرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله ، وروى أبو اليهان بأسناده أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنحن في مجلس ذكر، وصح عن عمر بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : الإنفاق من نفسه والإنفاق من إقتصار ، وبذل السلام للعالم .

قال ابن تيمية عليه رحمة الله :

وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازدادنا إيماناً .

وقال مالك بن دينار : الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً كالبقلة فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة وأماط عنه الدغل ^(١) وما يضعفه ويوهنه لاشك أن ينمو ويزداد ويسير له أصل وفروع ، وثمرة وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال ، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عزفنته ^(٢) أو صبي فذهب بها أو كثر عليها الدغل ^(٣) فأضعفها أو أهلكها أو أيسها كذلك الإيمان .

(١) الدغل الفساد مثل الدخل ، والدغل الشجر الكبير الملتئف وقيل هو اشتباك النبت وكثرة المراد هنا الفساد .

(٢) لفظة عزفنة وهي الأنسى من المعز والتلف فصيحة نزع الشعر وما يشبهه .

(٣) هنا اشتباك النبت وكثرة .

وقال خيثمة بن عبد الرحمن اليمان يسمن في الخصب ولهز في الجدب فخصبه العمل الصالح وجده الذنب والمعاصي وقيل لبعض السلف يزداد الإيمان وينقص ، قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال ، وينقص حتى يصير أمثال الهباء .

وفي حديث حذيفة الصحيح : « حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » .

وهذا الحديث في صحيح مسلم في باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ^(١) قال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثين قد رأيت أحدهما وانا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ^(٢) . ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ^(٣) ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثراها مثل الوكت ^(٤) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثراها مثل الجل ^(٥) كجمر دحرجه على رجلك فنفطره متبرا ^(٦) وليس فيه شيء ^(٧) ثم اخذ حصا فدحرجه على رجله) فيصبح الناس يتباينون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن فيبني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » .

والحديث الآخر رويه ابن تيمية وهو في صحيح مسلم ^(٨) ونصه كما يلي عن حذيفة قال كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتنة قال قوم خن سمعناه فقال : لعلكم تعانون فتنة الرجل في أهله وجاره قالوا أجل ^(٩) قال تلك

١/١٢٦

(٢) الأمانة هنا هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى أنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنا ونشقون منها وحلها الإنسان . والأمانة هي عين الإيمان فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف واغتنم ما يرد عليه منها وجد في إقامتها .

(٣) هو الأثر اليسير أو هو سواد يسير .

(٤) هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ويصير كالقبة فيه ماء قليل .

(٥) نفطرت يده من باب تعب اذا صار بين الجلد واللحم ماء ، ومتبرا مرتفعا ومنه المنبر لارتفاعه .

٤/٢٢١٨ - ١/١٢١

(٧) فتنة الرجل في أهله من باب قوله تعالى ألم أموالكم وأولادكم فتنة فقد يقع في الإفراط في شأنهم أو التغريط بما يلزم من القيام بحقوقهم وتعليمهم ، وكذا الشأن في الجار قد يقصر في حقه وأكثر هذه ذنوب تکفرها الحسناوات .

تکفرها الصلاة والصيام والصدقة ولكن ايکم سمع النبي صلی الله علیه وسلم یذكر
الفتن التي تموج موج البحر قال حذيفة فأسكت القوم فقلت أنا قال : أنت الله أبوك .

قال حذيفة : سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم يقول : تعرض الفتن على
القلوب كالحصیر عوداً فأی قلب أشربها ^(١) نکت فيه نکته سوداء ^(٢) وأی قلب
أنکرها ^(٣) نکت فيه نکته بيضاء . حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا ^(٤) .
فلا تضره فتنه مادامت السماوات والأرض والآخرأسود من بادا كالکوز مجخيا ^(٥) لا
يعرف معروفا ولا ينکر منکرا إلا ما أشرب من هوا .

قال حذيفة وحدثه أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر قال عمر أکسرأ لا أبا
لک ^(٦) فلو أنه فتح لعله كان يعاد قلت لا بل يكسر وحدثه أن ذلك الباب رجل يقتل
أويموت ، حدیثا ليس بالأغالیط ^(٧) .

يقول ابن تیمیة علیه رحمة الله :

وفي حديث السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية فانه من أعظم
الأدلة على زيادة الایمان ونقصانه لأنه وصفهم بقوة الایمان وزياسته في تلك الخصال
التي تدل على قوة ایمانهم وتوکھلهم على الله في امورهم كلها .

والحدیث یرویه مسلم ^(٨) عن عمران بن حصین باللفظ التالي :

قال عمران بن حصین قال نبی الله صلی الله علیه وسلم : «يدخل الجنة من امتی

(١) اى دخلت فيه دخولا تاما ومنه قوله تعالى : واشربوا في قلوبهم العجل .

(٢) كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نکت .

(٣) ردھا .

(٤) الصفا الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء .

(٥) مائلا منکوسا وقال القاضی عیاض قلب ونکس حتى لا يعلق به خیر ولا حکمة .

(٦) هذه کلمة تذکرها العرب للحث على الشيء معناها جد في هذا الأمر وشمر وتأهب تأهب من
ليس معاون .

(٧) قال شارح الحدیث : والحاصل ان الحال بين الفتنة والاسلام عمر رضي الله عنه وهو الباب فا دام
حيانا لا تدخله الفتنة فإذا مات دخلت الفتنة وكذا كان .

(٨) الإیمان ٣٧١

سبعون الفا بغير حساب قالوا ومن هم يا رسول الله قال: هم الذين لا يكتوون ولا يستردون
وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله ان يجعلني منهم قال: انت منهم قال فقام
رجل فقال يابنی الله ادع الله ان يجعلني منهم قال سبقك بها عكاشة .

والرواية الثانية عند مسلم عن عمران بن حصين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال: «يدخل الجنة من امتی سبعون الفا بغير حساب» قالوا من هم يا رسول الله قال: «هم
الذين لا يستردون ولا يتظيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون» .

أقول ومن الأخبار الجديرة بالتأمل التي تثبت تقلب قلب المؤمن بين إقبال وإعراض
وذكر وغفلة حديث حنظلة رضي الله عنه وهو أبو ربيع حنظلة بن الربيع الأسيدي أحد
كتاب رسول الله وقد خشي في حديثه النفاق على نفسه ، والحديث يرويه مسلم بسنده
عن حنظلة ؟ قل نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول ؟ قلت تكون عند رسول الله صلى
الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم عافستنا الأزواج والأولاد والضياعات نسينا كثيرا .

قال ابو بكر رضي الله عنه فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وابو بكر حتى دخلنا
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله عليه
وسلم: وما ذاك. قلت: يا رسول الله تكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأي العين فإذا
خرجنا من عندك عافستنا الأزواج والأولاد والضياعات نسينا كثيراً فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم والذي نفسني بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر
لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن ياحنظلة ساعة ثلاثة مرات .

وجاء في حديث أبي ذر « وعلى العاقل أن يكون له ساعات ساعة ينادي فيها ربه
و ساعة يحاسب فيها نفسه و ساعة يفكر فيها في صنع الله و ساعة يخلو فيها حاجته من مطعم
أو مشرب » .

ولقد كان لأصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في صحبتهم لرسول الله ما
يعرج بمنفوسهم الى الملا الاعلى وما يدفعهم الى حب الله وطاعته والجهاد في سبيله وذلك
هو سلطان الحق ودور النبوة وما يسرى في نفسه الكريمة الطاهرة عليه صلوات الله وسلامه

من صدق مع الله ينتقل إلى قلوبهم ويجري في نفوسهم قال أنس رضي الله عنه ما نفضنا
أيدينا من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا .

وبعد فإن الإيمان ليرق ويضعف في قلوب المؤمنين حتى يصبح كما هو اليوم في
قلوب الكثرة الكاثرة من المؤمنين تغلب عليه الشهوات وتسيطر عليه التزوات وتتلاعب به
الأهواء يصبح الإيمان أهون من الدنيا وأهون من متعها ومن لذائذها فلا يبالى المرء بآياته
في سبيل شهوة من شهواته وفي سبيل متعة من متعه ولا يبالى بالدين إذا انتقص وأصيب
من قبل أعداء الله ذلك أن هذا المؤمن قد رق إيمانه فلا يغضب للدين الله ولا يحزن ل الدين الله
ينطبق على أمثال هؤلاء قوله تعالى « ثم قست قلوبكم فهي كالحجارة أو أشد قسوة » .

وان الإيمان ليقوى وتشبت أركانه وتشتد دعائمه حتى يهيمن على القلب ويسطير على
الفؤاد فلا يبقى في القلب مكان لغير الإيمان ولا يبقى في الفؤاد حب لغير الله ولا انشغال
به ولا يبقى مكان لشهوة ولا لغريرة ولا لنزعة أن تستطر على الفؤاد أو تستأثر به بل تصبح
كل شهوة وكل غريرة وكل نزعة وكل استعداد لدى المرء وكل عادة وكل قدرة وكل
موهبة كل هذه تصبح جنودا طبيعة مسخرة للإيمان تخدم أغراضه وتسعى في مرضاته يصبح
المال في سبيل الإيمان وأغراضه ويصبح الولد في سبيل ذلك ويصبح الغضب في سبيل
الإيمان والرضا في سبيله والاستعلاء في الأرض إعلاء لكلمة الله والعز على أعداء الله
والذلة لأولياء الله .

« قل ان كان آباءكم وابناؤكم وآخوانكم وزواجهم وعشيرتكم واموال اقترفوها
وتجارة تخشون كсадها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجihad في سبيله
فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

ومثل هذا المؤمن له هم واحد يشهد في الليل ويجده في النهار وله وجهة واحدة
تقيمه وتقعده لا يشارك فيها شريك ولا ينافع منازع ومثل هذا المؤمن لو صب إيمانه على
الجبال لدكها ولو صب على الجلاميد الصم لفتها ولا يقف في وجه هذا المؤمن شيء ولا
تقوم أمامه عقبة .

وبعد فلم يكن من غرضنا استيفاء الحجج في الموضوع وإنما هو الاقتصار على بعض

وجهات النظر ونجد من تمام الفائدة ذكر الحديث الذي جاء فيه ما يجب أن يؤمن به العبد وقد اخر جاه في الصحيحين وهو: اليمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى^(١). وكأني من ينتصر للرأي القائل إن اليمان هو التصديق يجد في هذا الحديث ما يحقق غاية أمله فالحديث نص على أن اليمان أن تؤمن بالله وملائكته ... إلى آخر الحديث.

وقد اشرت إلى الجواب حين قلت غرض الحديث تبيان ما يجب على العبد أن يؤمن به فاليمان يتعلق بالله جل شأنه وبالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى وليس الحديث بياناً لحد اليمان ولذلك قال عليه الصلاة والسلام واليمان أن تؤمن فإذا كان اليمان قوله واقراراً وعملاً فعنى أن تؤمن بالله أن تقر له جل شأنه بقلبك وب Lansنك بالوجودانية ويلزم ذلك لزوماً ضروريّاً لا ينفك أن تلتزم امثال اوامره واجتناب نواهيه وتهب نفسك لطاعته وتقدم ما حباك من نفس ومال وولد في سبيله جل شأنه .

على أني أدع الحديث لشيخ الإسلام ابن تيمية فهو أطول باعاً وأعلى كعباً في فهم حديث رسول الله عليه صلوات الله وتبليله .

وهو عليه رحمة الله يدع الكلام لمحمد بن نصر المروزي فيقول عليه رحمة الله :

قال الإمام محمد بن نصر المروزي^(٢) في كتاب الصلاة اختلف الناس في تفسير

(١) الحديث نقله من صحيح البخاري ، وقد رواه عن أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فاتاه جبريل فقال ما اليمان قال اليمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الإسلام قال أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها باعلم من السائل وسأخبرك عن اشراطها اذا ولدت الأمة ربها اذا نطاول رعاة الأبل اليهم في البيان في حسن لا يعلمهم إلا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عنده علم الساعة ، الآية . ثم ادبر فقال دروه على فلم يروا شيئاً فقال هدا جبريل جاء يعلم الناس دينهم قال ابو عبد الله جعل ذلك كله من اليمان .

(٢) محمد بن نصر المروزي يقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ الإمام شيخ الإسلام أبو عبد الله المروزي الفقيه ولد سنة اثنين ومائتين ومات في المحرم سنة اربعين وتسعين ومائتين بسموفند وله اثنان وتسعون سنة وما ترك بعده مثله قال أبو بكر الصبغي : محمد بن نصر امام وما رأيت احسن صلاة منه لقد بلغني ان زبيوراً قعد على جبهته فسأل الدم على وجهه ولم يتحرك وقال ابن الأخرم لقد كنا نتعجب من حسن

الحديث جبرائيل هذا فقال طائفة من أصحابنا : قول النبي صلى الله عليه وسلم « الإيمان أن تؤمن بالله » وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور وقد وهمت المرجئة في تفسيره فتأولوه على غير تأويه قلة معرفة منهم بلسان العرب ، وغور كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي قد أعطى جوامع الكلم وفواتحه واختصر له الحديث اختصاراً . أما قوله « الإيمان أن تؤمن بالله » بأن توحده وتصدق به بالقلب واللسان وتخضع له ولا أمره بإعطائه العزم للأداء لما أمر مجانياً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة فإذا فعلت ذلك لزتم محاباه واجتبب مساقطة .

أقول فسر الإيمان عليه رحمة الله بالتصديق بالقلب واللسان ويلزم ذلك الخضوع للأمر ويلزم ذلك عقد النية عقداً جازماً على الالتزام بالأوامر واجتناب التواهي ويلزم ذلك القيام بالأعمال جهد الطاقة وبقدر دفع الإيمان وقوته فلا يمكن أن يكون تصديق بدون خضوع ولا خضوع بغير التزام ولا التزام بغير تنفيذ فالإيمان هو مجموع هذه كلها لأن العمل دليل على الإيمان ومقاييس له فمن لم ي عمل مثقال ذرة من خير ولم ينته عن مثقال ذرة من شر كان ذلك دليلاً على أنه ليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان ومن عمل وقصر كان ذلك دليلاً على وجود الإيمان لديه مع قصور فيه . ولقد نقلنا قول الحسن البصري الإيمان ما وقر في الصدر وصدقه العمل وهذا التعريف تعريف عملي واقعي والقول بأنه تصديق فقط نظري فلسي منطقي وهذا النزاع بين الآراء النظرية المنطقية والواقع العملي معروف مأثور ومن عجب أن الدراسات التربوية الحديثة توصلت في بحوثها إلى هذا الخلاف وأخذت توثر الجانب العملي وواقع الحياة وأصبحت تجافي الآراء النظرية وأخذت تشتق

صلاته وخشوعه يضع ذقنه على صدره وينصب كأنه خشبة .

وقال الزركلي صاحب الأعلام : كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة فن بعدهم في الأحكام ولد ببغداد ونشأ بنیابور ورحل رحلة طويلة استوطن بعدها بسمرقند وتوفي بها له كتب كثيرة منها (القسامة) قال أبو بكر الصيرفي : لوم يكن له غيره لكان من أفقه الناس (المسد - خ) في الحديث وكتاب ما خالف به أبو حنيفة علياً وابن مسعود إلى غير ذلك ونقل الذهبي عن ابن حزم كلامه التالية بشأن محمد بن نصر المروزي قال أبو محمد بن حزم : كان من أعلم الناس واجتهم للسنن وأضبطهم لها واذكرهم معانها وادراهم بصحتها وما اجمع عليه الناس مما اختلفوا فيه إلى أن قال : وما نعلم هذه الصفة بعد الصحابة ألم منها في محمد بن نصر المروزي ، فلوقال قائل ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه حديث إلا ما عند محمد بن نصر ما بعد عن الصدق .

نظر ياتها وقوانينها من الحياة وواقع الحياة فهي أصدق من أصحاب النظريات وافكارهم .

وأما قوله (وملائكته) بأن تؤمن بن سمي الله لك منهم في كتابه بأن الله ملائكة سواهم لا يعرف اسماءهم وعددهم الا الذي خلقهم .

واما قوله (وكتبه) بأن تؤمن بن سمي الله من كتبه في كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة ، وتومن بأن الله سوى ذلك كتاباً أنزلها على انبئائه لا يعرف اسماءها وعددها الا الذي أنزلها وتومن بالفرقان وایمانك به غير ایمانك بسائر الكتب . ايمانك بغيره من الكتب اقرارك به بالقلب واللسان وایمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه .

واما قوله : (ورسله) بأن تؤمن بما سمي الله في كتابه من رسليه وتومن بأن الله سواهم رسلا وانبياء لا يعلم اسماءهم الا الذي أرسلهم ، وتومن بمحمد صلى الله عليه وسلم وایمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه ودائماً على اتباع ما جاء به فإذا اتبعت ما جاء به أدت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات .

واما قوله (واليوم الآخر) بأن تؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار وبكل ما وصف الله به يوم القيمة .

واما قوله : وتومن بالقدر خيره وشره بأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل : لو كان كذلك لم يكن كذلك ولو لا كذلك وكذا لم يكن كذلك وكذا . قال : فهذا هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسليه واليوم الآخر .

وهكذا كان الإيمان بالكتب والرسل في نظر الإمام محمد بن نصر المروزي تصديقاً يتبعه العمل وإقراراً يلزمـه الاتـبعـ .

قال تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلـت قلوبـهمـ وإذا تـلـيتـ عليهمـ آياتـهـ زادـتـهمـ إيمـاناـ وـعـلـى رـهـمـ يـتـوكـلـونـ » .

أول صفات المؤمنين وجلـ القلوبـ عند ذـكر اللهـ تـبارـكـتـ اسمـاؤهـ وقدـ بيـناـ أنـ هـذاـ الـوـجـلـ لـعـظـمـةـ اللهـ تـقـشـعـرـ لـهـ الـجـلـودـ أـولـاـ ثمـ تـلـينـ الـجـلـودـ وـالـقـلـوبـ .

والصفة الثانية من صفات المؤمنين بعد وجل القلوب ثم طمأنيتها استقرار الامان ورسوخه وزيادته وغلوه عند سماع آيات الله المنزلة وأوامره الصادعة وكل هذا ينتهي الى الصفة الثالثة التوكل على الله وحده وتفويض الأمر اليه جل شأنه ثقة بعظيم لطفه وحسن تدبيره وجميل منه واحسانه .

والآية الكريمة تبين ان المؤمن يتوكّل على الله ولا يكل أمره الى احد سواه فالنصر بيده والملك اليه والتوفيق لأسباب النصر بحسن تدبيره جل شأنه .

الآية تفيد القصر، قصر التوكيل على الله وقد قدم الجار والمجرور ليفيد ان التوكل مقصور عليه مختص به .

والآية الكريمة تفيد بأن المؤمن يتمثل امر الله ويقدم على مرضاته فيقدم على الجهاد في سبيل الله وقد باع نفسه لا يخشى الموت لأن الأنفس بيد الله يقتصها إن شاء ويرسلها إن شاء وينفق ماله في سبيل الله لا يخشى الفقر على نفسه ولا على أهله وولده لأن الله تبارك أسماؤه هو الذي يقبض الأموال وهو الذي يبسطها ولا يخشى على ولده من بعده لأن رعاية الله أكبر من رعايته لنفسه ولولده .

وهكذا كانت صفة التوكل على الله مقترنة بروح المغامرة في سبيل الله موجهة الى تقوية العزائم وحفظ الهمم وتربيّة الشجاعة والاقدام الى جانب الرضا والطمأنينة ودفع الوهن عن القلوب وابعاد الجزع عن النفوس فالمؤمن لا يهين ولا يحزن ولا يضعف ولا يصيّب الهملا ولا الجزع لأن الله معه والله ناصره ومؤيده .

كان أصحاب رسول الله إذا اشتد الخطب وأحاطت بهم المكاره (قالوا حسنا الله ونعم الوكيل) ، وكانوا لا يخشنون تأليب الأحزاب ولا تكاثر الجموع قال تبارك أسماؤه بشأنهم : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسنا الله ونعم الوكيل » .

وكانوا يجهرون بهذا نفاق المنافقين ونحو المبطفين وقد رد الله على الذين كانوا يفرون بما يحتمل المسلمون من أذى في سبيل الله الذين وصفوا في كتاب الله بقوله « وإن تصبّك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون » رد الله على هؤلاء بقوله

تعالى : « قل لَن يصيّبنا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مُولَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيتوَكُلُّ الْمُؤْمِنُونَ » .

إنها الكلمة التي ترزل قلوب المنافقين وتثبت قلوب المؤمنين حتى تكون أشد ثباتاً من الجبال ذلك أن المصيبة من عند الله وكل ما يأتي من عنده جل شأنه هو الخير والرحمة لأنه المولى ولأنه النصير .

ربت الآيات الكريمة هذه المعاني في نفوس المؤمنين ليسروا في ميادين الجهاد غير هماليين ولا وجلين .

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لوتفتح عمل الشيطان » .

المؤمن القوي هو القوي في إيمانه القوي في توكله الذي ينطلق في امثال امر الله كما ينطلق السهم من الرمية لا يبالي بتخويف المغوفين وإرجاف المرجفين وتشبيط المعقدين فإن أصابه سوء أو حرق به اذى كان ساكن النفس مطمئن القواد لقد قدر الله وما شاء فعل وإن المؤمن لواشق بأن كل ما يأتي به قدر الحكيم هو الخير كله . روى مسلم في صحيحه عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته ضراء ^(١) شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء ^(٢) صبر فكان خيرا به » .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « ياغلام اني اعلمك كلمات : احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأله الله وإذا استعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمع على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . قال الترمذى حديث حسن .

(١) اي ما يسره .

(٢) اي ما يضره .

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن جابر رضي الله عنه انه غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل نجدة فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معهم فأدركهم القائلة في وادٍ كثیر العضاء^(۱) فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة^(۲) فعلق به سيفه وغنا نومة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال : إن هذا اخترط على سيفي^(۳) وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا^(۴) قال من يمنعك مني قلت «الله ثلثا» ولم يعاقبه وجلس .

وفي رواية قال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة فاخترطه (سله) فقال تخافني؟ قال لا . فقال فمن يمنعك مني قال : الله . وفي رواية أبي بكر الاسماعيلي في صحيحه فقال من يمنعك مني قال : الله فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فقال من يمنعك مني؟ فقال : كن خيراً آخذ فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فقال «ولكني أعاهدك ألا أقاتلنك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتي أصحابه فقال جئتم من عند خير الناس .

الانحراف عن المعنى الصحيح للتوكيل

ولقد انحرف المسلمون في معنى التوكيل باتجاهين فظن بعضهم أن ترك الأخذ بالأسباب من التوكيل وظن بعضهم أن ترك العمل في تغيير المنكر من الرضا بقضاء الله والتسليم له .

قال القرطبي : قال سهل : «من قال إن التوكيل يكون بترك الأسباب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله عز وجل يقول : «فكروا بما غنمتم حلالاً طيباً» فالغنية اكتساب وقال تعالى «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان» فهذا عمل .

(۱) الشجر الذي له شوك .

(۲) الشجرة من الطلح وهي العظام من شجر العضاء .

(۳) سله .

(۴) مسلول .

ثم يقول القرطبي : وقال غيره : والتوكيل على الله هو الثقة بالله والإيمان أن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لابد من الأسباب من مطعم ومشروب وتحرز من عدوه وإعداد لأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة ، لكنه لا يستحق اسم التوكيل مع الطمأنينة الى تلك الأسباب والالتفات اليها بالقلوب .

ويقول السيد رشيد في تفسيره : « واما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى في الخلق وتسمية ذلك توكل فهو جهل بالله وجهل بيته وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول ، ومثله كمثل من أمره ملكه أو مالكه بأن يعول في طعامه وشرابه وسائر حاجاته عليه ولا يطلب من غيره شيئاً وكان ذلك الملك او المالك قد أعد له ولأمثاله كل يوم مائدة لطعامهم وشرابهم فتقطع هو وامتنع عن الاختلاف الى المائدة مع أمثاله زاعماً أن هذا عصيان لأمر الملك في التعويل عليه وانتظر أن يرسل اليه طعاماً خاصاً - اي انه يطلب من ربه أن يبطل سننه في خلقه لأجله فما أعظم جهله وغوره .

وانحرف المسلمون بمعنى التوكيل في الأيام الأخيرة وظن ظانهم أن ترك الواجب الذي أمر الله به مثل محاربة المنكر من التوكيل على الله فكانوا بذلك في منتهي الجهل ورقة الإيمان ، وانك لتتجدد كثيرين من المسلمين يقولون في فساد حال المسلمين هذا أمر الله وهذا قضاة وهو يزعمون أنه لا حيلة تنفع أمام أمر الله ولا دواء ينفع بعد قضاء الله وبجهلون ويتجاهلون ان الله تبارك اسماؤه هو الذي امر بالعمل وهو الذي أمر جل شأنه بالجهاد في سبيله ودفع المنكر ومحاربة الشر فكيف يترك أمره وقد ورد في نصوص جليلة واضحة قاطعة ؟ ... إنها حيلة الشيطان . لقد دافع اصحاب رسول الله القدير بالقدر وأصلحوا الخطأ ودفعوا المنكر ، وأزالوا الشر ، بجهودهم وجهادهم .

روى البخاري عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو الجنة » فقال رجل من القوم : ألا تتكل يا رسول الله ؟ قال لا ، اعملوا فكل ميسراً لما خلق له ، وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : جاء سراقة فقال يا رسول الله أعمل فيها جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ قال فقim العمل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسراً لما خلق » ثم قرأ فأماماً من اعطي واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأماماً من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » فقال القوم بعضهم لبعض « فالجed إذن » .

وفي بعض روايات الحديث : فقال عمر فقيم العمل إذن فقال صلى الله عليه وسلم :
كل لا ينال إلا بالعمل . فقال عمر إذن نجتهد .

وهكذا أوضح رسول الله عليه صلوات الله هذه المسألة التي كثُر فيها المراء واشتد فيها
الأخذ والرد بقوله : وكل لا ينال إلا بالعمل . هذه سنة الله وكل من تنكب سنة الله
خاب وخسر .

الصفات الخمس ل التربية المؤمنين

سردت صفات المؤمنين في السورة الكريمة ل التربية المؤمنين مما بدا منهم أو من بعضهم
على الأصح من تفكير بشأن الأطفال بعد أن كتب الله لهم النصر وايدهم بالملائكة ورأوا
بأم اعينهم لطف الله بهم ورعايته جل شأنه لهم .

هذه الصفات خمس وهي الوجل عند ذكر الله وزيادة الاعيان عند تلاوة آيات الله
والتوكل على الله واقامة الصلاة والانفاق من مال الله .

ويمز في خاطر التأمل هذه الصفات تاماً يسيراً أن يسأل ما هو ارتباط هذه الصفات
بسؤال المؤمنين عن الأطفال . كان السؤال عن الأطفال فيه شيء من التنزل عن المرتبة
الإيمانية التي يجب أن يكون فيها خيار المؤمنين فإذا تفعل كل صفة من هذه الصفات
لتعميد المؤمنين إلى مكانتهم والسؤال الثاني إذا كانت هذه الصفات تربية للمؤمنين
أصحاب رسول الله عليه صلوات الله وقد سيقت لسبب خاص فهي في الوقت نفسه تربية
ل العامة المؤمنين وهي صفات للمؤمنين . والسؤال الثالث : ما هي مكانة هذه الصفات من
الإيمان وهي جامدة لكل شروطه ساردة لكل ميزاته أم هي مقتصرة على بعض هذه
الجوانب ؟ .

ولنبدأ بالاجابة عن السؤال الثالث . ولبحث هذا السؤال نستعرض استعراضاً مجملًا
بعض الآيات التي وصفت المؤمنين :
قال تعالى (النساء ١٦٢) : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما
أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر
أولئك سنؤتيم أجراً عظيماً » .

والآية الكريمة بشأن الراسخين في العلم من اهل الكتاب يؤمنون بما انزل الى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه مأنزلاً من قبله وقد شملت كل شعب الامان وذكرت الآية الكريمة الى جانب ذلك اقامة الصلاة وقد خصت هذه الصفة بما يميزها عن الصفات التي سبقتها والتي لحقتها ، فنصبت في اللفظ ليقدر القارئ واثنى على المقيمين الصلاة ، وذكرت الآية الكريمة ايتاء الزكاة والامان بالله واليوم الآخر.

وفي السورة الكريمة نفسها وصف الله المؤمنين بصفات ذيلت بقوله تعالى: اولئك هم المؤمنون حقا . كما وقع في الصفات التي نحن بصددها قال تعالى : « والذين آمنوا وهاجروا والذين آتوا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا » .

والآية الكريمة لم تذكر هنا صلاة ولا زكاة ولكنها ذكرت ايمانا وجهرا وجهادا وأيواء ونصراء .

وفي قوله تعالى : قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فإنهما غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلاتهم يحافظون اولئك هم الوارثون .

ذكرت الآيات الكريمة الصلاة مرتين مرة مقرونة بوصف الخشوع ومرة مقرونة بذكر المحافظة عليها وذكرت الزكاة وحفظ الفروج وذكرت حفظ الأمانة ومراعاة العهد وذكرت امراً لم يذكر الا في صفات عباد الرحمن قال تعالى في وصفهم (واذا مرروا باللغوم روا كراما) وقال تعالى في سورة المؤمنون (والذين هم عن اللغو معرضون) قال ابن كثير عن اللغو معرضون اي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قال بعضهم والمعاصي كما قاله آخرون وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى (واذا مرروا باللغوم روا كراما) قال قتادة أتاهم من امر الله ما وففهم عن ذلك ، وما أجدنا ان نحرض الحرص كله على هذا المعنى : كيف يجد اللغو سبيلا الى المؤمن الذي ملأ قلبه هم واحد وهو مرضاة الله وتبلیغ امره ؟ .

وقال تعالى في سورة « اما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله اذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوا ، ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » .

وفي الآية الكريمة نجد صفة هامة بعد الإيمان بالله ورسوله تتصل بالجماعة وقيادة الجماعة والتزام مشاركة الجماعة في أمورها الهامة سواء أكانت أموراً تنفيذية أو استشارية فليس لفرد من أفراد الجماعة المؤمنة أن يختلف عن اجتماعاتها الهامة إلا لعذر قاهر.

وقال تعالى في سورة الحجرات «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُ فَأَصْلَحُوهُ بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ» وهذا تذكر الآية صفة الأخوة وتنصر المؤمنين عليها فليس المؤمنون شيئاً آخر الا «أخوة في الإيمان» .

وقال تعالى في سورة الحجرات نفسها «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهُوهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» .

والآية الكريمة تبني الريب عن المؤمنين وتصفهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم ولدى التأمل في الآيات الكريمة يتبيّن بجلاء أن كل آية من الآيات إنما تذكر جانباً من جوانب الإيمان وصفة من صفاته وشرطها من شروطه ويتبّين بجلاء أن الإيمان بهذه المعاني كلها كما جاء في قول رسول الله عليه صلوات الله: الإيمان ببعض وسبعين شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماتة الأذى عن الطريق والحياة شعبة من الإيمان رواه مسلم وابو داود والن sai وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ويتبّين أن المؤمن لابد أن يجمع هذه المعاني كلها ليستكمل معاني الإيمان فان لم يكن ذلك كان هنالك نقص في إيمانه ، على أن كلاماً من الصفات المذكورة تؤدي إلى الصفات الأخرى بطريق اللزوم .

في آية الأنفال من أوصاف المؤمنين إيماناً حقاً (الوجل عند ذكر الله) وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله (والتوكل على الله) (واقامة الصلاة) والإإنفاق بما رزق الله وقد تلونا من صفاتهم في آيات أخرى ، (الإيمان بما انزل الى الرسول وما انزل من قبله) ، والهجرة والجهاد والإيماء والنصر (والالتزام الجماعة وعدم مفارقتها الا باذن قائلها) (والأخوة في الله وجسم مادة التقطيع بين افراد الجماعة) (وعدم الارتياض في ما انزل الله) (والخشوع في الصلاة والحافظة عليها) (وحفظ الفروج واداء الأمانة ورعاية العهد) وبعد هذا كله الإعراض عن اللغو وهو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال .

وليست هذه الصفات على كثرتها وأهيئها الا بعض صفات المؤمن فإذا أخل المؤمن بوحدة من هذه الصفات أو قصر فيها فهل يعتبر مارقا من الاسلام خارجا عن حظيرته؟ .

الجواب أن هذه الصفات على درجات .

قال ابن تيمية عليه رحمة الله : اتفق المسلمين على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر وأما الأعمال الأربع فاختلفوا في تكبير تاركها يقول ابن تيمية : ونحن إذا أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب فإنما نزد به المعاصي كالزنا والشرب ، وأما هذه المباني ففي تكبير تاركها نزاع مشهور وعن أحمد في ذلك نزاع : إحدى الرويات عنه أنه يكفر من ترك واحدة منها وهو اختيار أبي بكر وطائفة من أصحاب مالك كابن حبيب .

وعنه رواية ثانية : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط .

ورواية ثالثة : لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة اذا قاتل الإمام عليها .

ورابعة : لا يكفر إلا بترك الصلاة .

وخامسة : لا يكفر بترك شيء منه .

وهذه اقوال معروفة للسلف :

قال الحكيم بن عتبة^(١) من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر ومن ترك الزكاة متعمدا فقد كفر، ومن ترك الحجج متعمدا فقد كفر ومن ترك صوم رمضان متعمدا فقد كفر.

وقال سعيد بن جبير من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر بالله ومن ترك الزكاة متعمدا فقد كفر بالله ومن ترك صوم رمضان متعمدا فقد كفر بالله .

نقل ابن تيمية عليه رحمة الله أقوالاً خمسة في كفر من ترك شيئاً من الأركان الأربع ولكنها عليه رحمة الله يفتى بقتل تارك الصلاة :

فقد سُئل (في الفتاوى)^(٢) عنمن يؤمر بالصلاحة فيمتنع ماذا يجب عليه وماذا يجب

(١) : شيخ الكوفة - ثابعي ثقة فقيه صاحب سنة واتباع روى له السنه .

(٢) : ٥٠٠ / ٢٢

على الأمراء وولاة الأمر في حق من تحت أيديهم إذا تركوا الصلاة؟ .

فأجاب : الحمد لله من يمتنع عن الصلاة المفروضة فإنه يستحق العقوبة الغليظة باتفاق أئمة المسلمين بل يجب عند جهور الأئمة كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم أن يستتاب ، فان تاب ولا قتل . ثم يقول : ويجب على كل مطاع أن يأمر من يطيعه بالصلاوة حتى الصغار الذين لم يبلغوا الحلم قال النبي صلى الله عليه وسلم : مروهم بالصلاوة لسبع وأضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع .

ومن كان عنده صغير مملوك او يتييم او ولد فلم يأمره بالصلاحة فإنه يعاقب الكبير اذا لم يأمر الصغير ويعزز على ذلك الكبير تعزيراً بل يغتصب ا لأنه عصى الله ورسوله وكذلك من عنده مالك كبار أو علماً من الخيل والجمال أو فراشون أو خدم أو زوجة أو سرية فعلية ان يأمر جميع هؤلاء بالصلاحة فإن لم يفعل كان عاصياً لله ورسوله ولم يستحق هذا أن يكون من جند المسلمين بل من جند التتار فإن التتار يتكلمون بالشهادتين ومع هذا فقتالهم واجب بإجماع المسلمين .

وقال عليه رحمة الله : وكذلك كل طائفة ممتنعة عن شريعة واحدة من شرائع الإسلام فإنه يجب قتالها ولو قالوا نشهد ولا نصلِّي قوتلوا حتى يصلوا ولو قالوا نصلِّي ولا نزكي قوتلوا حتى يزكيوا ولو قالوا نزكي ولا نصوم ولا نحج قوتلوا حتى يصوموا رمضان ويحجوا البيت ولو قالوا نفعل هذا لكن لا ندع الربا ولا شرب الخمر ولا الفواحش ولا نجاهد في سبيل الله ولا نضرب الجزية على اليهود والنصارى ونحو ذلك قوتلوا حتى يفعلوا ذلك كما قال تعالى : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

وقال صاحب المغني رحمة الله : واختلفت الرواية هل يقتل لكرهه أو حداً فروي أنه يقتل لكرهه كالمرتد فلا يغسل ولا يكفن ولا يدفن بين المسلمين ولا يرث أحداً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة وفي لفظ عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة . وعن بريدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا وبينهم ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر رواه مسلم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وأخر ما تفقدون الصلاة . قال أحد كل شيء ذهب آخره لم يبق منه شيء وقال

عمر رضي الله عنه لا حظ في الاسلام من ترك الصلاة وقال علي رضي الله عنه (من لم يصل فهو كافر) وقال ابن مسعود «من لم يصل فلا دين له» وقال عبد الله بن شقيق لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. ولأنها عبادة يدخل بها في الاسلام فيخرج بتركها منه كالشهادة والرواية الثانية يقتل حدا مع الحكم بإسلامه وهذا قول مالك والشافعي .

وقال ابوحنيفه لا يقتل ولكن يضرب ويسجن ^(١).

هذه الأركان التي سبق ذكرها ليست كل ما فرض الله جل شأنه على عباده المؤمنين فلهم خصت بالذكر ولم يجعل الاسلام هذه أركاناً اربعة مع الشهادة ، وقد فرض الله فرائض كثيرة غيرها كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الارحام وحقوق الزوجة والأولاد والجيران والشركاء والفقراء وما يجب من أداء الشهادة والفتيا والقضاء والامامة وما الى ذلك ؟ .

وأجاب ابن تيمية هنا أيضاً فقال :

اجاب بعض الناس بأن هذه اظهر شعائر الاسلام وأعظمها فإذا قام العبد المؤمن بها فقد تم اسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد الاسلام عنه . وقد فصل عليه رحمة الله هذه الاجابة وزادها بياناً فقال ما معناه ^(٢) : التحقيق ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر في

(١) : يقول ابن تيمية عليه رحمة الله (كتاب الإيمان ، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق ص ٢٧٥) : قالوا ومن ثم قلنا : ان ترك التصديق بالله كفر ، وان ترك الفرائض مع تصديق الله أنه قد أوجبه كفر ، ليس بكفر بالله ، اما هو كفر من جهة ترك الحق كما يقول القائل : كفري حق ونعمتي ، يزيد ضياع حقي وضياع شكر نعمتي .

قالوا ولنا في هذا قدوة بما روى عنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين اذ جعلوا للكفر فروعاً دون أصله ، لا ينقل صاحبه عن ملة الاسلام ، كما اثبتوا للأيمان من جهة العمل فروعاً للأصل لا ينقل تركه عن ملة الاسلام من ذلك قول ابن عباس في قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون قال : بن نصر بستده عن ابن عباس وليس بالكافر الذي يذهبون وبستد آخر عن ابن عباس وليس كمن كفر بالله وعلائقته وكتبه ورسله وبستد آخر قال كفر لا ينقل عن الملة وبستده عن طاووس قال ليس بكفر ينقل عن الملة بستده عن عطاء قال كفر دون ظلم ، وفسق دون فسق

(٢) : انظر الفتاوي ٣١٤ / ٧ .

هذه الخمسة الدين الذي هو استسلام العبد لربه ... استسلاما مطلقا وذكر عليه الصلاة والسلام ما يجب لله جل شأنه عبادة محضة على كل فرد من أفراد المؤمنين متى كان قادرها عليها وذلك ليعبد الله مخلصا له الدين فإذا قصر في واحد منها فقد خدش عبوديته لله وقصر في استسلامه لأمر الله واتباعه لدینه هذا شأن الأركان الخمسة أما ما سواها فإنما يجب عند وجود مصالح تجده أو حاجات تطرأ كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتبع ذلك من امارة وفتيا وإقراء وتحديث وغير ذلك .

ويؤخذ من قوله عليه رحمة الله ان هذه الأركان الخمسة هي حق الله تبارك اسماؤه على كل عبد من عباده المؤمنين لا يختلف عنها مختلف ولا يجوز ان يقصر فيها مقصره فهي أولى ثمرات الإيمان وهي أصل عبادة الله جل شأنه التي هي حق الله على عباده (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

اما العبادات الأخرى فهي ثمرات هذه الأصول وهي غير واجبة في كل الأحوال والأحيان وهي ليست واجبة على كل الأشخاص والأعيان إذ أن منها ما هو حق لبعض الناس على اناس آخرين كحق الدائن على المدين وحق المظلوم على الظالم وهذه ليست حقوقا على جميع الأفراد بل هي حقوق لأفراد مخصوصين على افراد مخصوصين والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تكون فروض كفاية إلا اذا دعا الامام للتغير العام أو وطئ العدو أرض المسلمين كما هو الحال في أيامنا هذه فإنه ينقلب فرض الجهاد من فرض كفاية الى فرض عين يتعلق برقة كل مؤمن شبانا وشيوخا ذكورا ولبناثا يقول ابن تيمية كل ذلك يعني ما فرض الله جل شأنه غير الأركان الخمسة يجب لأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض جلب منافع ودفع مضار لو حصلت بدون فعل الإنسان لم تجب .

الأركان الخمسة هي عبادات محضة خلصت الأعمال فيها لعبادة الله والزكاة هي حق الله في مال الله وهذا يقال ، ليس في المال حق سوى الزكاة يقول ابن تيمية وعامة الصحابة والجمهور كما يرى واحد والشافعي اوجبوها في مال الصغير والمحنون لأن ماهما من جنس مال غيرهما ووليهما يقوم مقامها .

أقول ولا بد بكل عمل من مقياس يقاس به ، ومقاييس هذه العبادات ثمراتها ونتائجها فإذا لم تؤد الى ثمراتها كان ذلك دليلا على وجود خلل في ادائها اعني اذا لم تؤد الصلاة

والصيام والحجـة والزكـاة إلـى بذـل النفس والمـال والجـهاد فـي سـبيل الله ولا سيـما حين يـكون الجـهاد فـرض عـين فـذلك دـليل أـنه قد اـعـتـرـى العـبـادـة نـقـصـ كـبـيرـ.

طـرحـنا مـن قـبـل السـؤـال التـالـي : ما هوـشـأن مـن قـصـرـ في بـعـض هـذـه الصـفـاتـ أـيـخـرـجـ من حـظـيرـةـ الـإـيمـانـ فـلا يـكـونـ مـؤـمـنـاـ أـمـ يـظـلـ مـحـفـظـاـ باـسـمـ الـإـيمـانـ وـلـقـدـ أـجـابـ ابنـ تـيـمـيـةـ عنـ السـؤـالـ إـجـابـةـ شـافـيـةـ وـكـانـتـ إـجـابـتـهـ دـائـرـةـ حـولـ تـفـسـيرـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ «ـقـالـتـ الـأـعـرـابـ آـمـنـاـ قـلـ لـمـ تـؤـمـنـواـ وـلـكـنـ قـوـلـواـ اـسـلـمـنـاـ وـلـاـ يـدـخـلـ الـإـيمـانـ فـيـ قـلـوبـكـمـ»ـ .

وـلـقـدـ ذـكـرـناـ مـنـ قـبـلـ حـالـ مـنـ يـدـعـيـ الـإـيمـانـ وـيدـعـ رـكـنـاـ مـنـ اـرـكـانـ الـاسـلـامـ كـتـرـكـ الـصـلـةـ وـالـصـيـامـ وـالـحـجـ وـالـزـكـاةـ وـحـدـيـثـنـاـ هـنـاـ عـمـنـ يـقـصـرـ فـيـاـ وـرـاءـ ذـلـكـ مـنـ الـأـعـمـالـ القـلـبـيـةـ أوـأـعـمـالـ الـجـوارـحـ .

يـقـولـ ابنـ تـيـمـيـةـ (ـ٢٤٦ـ /ـ٧ـ)ـ :ـ عـنـ مـقـاتـلـ بـنـ حـيـانـ كـانـتـ مـنـازـلـهـمـ بـيـنـ مـكـةـ وـالمـديـنـةـ وـكـانـواـ اـذـاـ مـرـتـ بـهـمـ سـرـيـةـ مـنـ سـرـيـةـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـواـ آـمـنـاـ لـيـأـمـنـواـ عـلـىـ دـمـائـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ فـلـمـ سـارـرـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ إـلـىـ الـخـدـيـبـيـةـ اـسـتـنـفـرـهـمـ فـلـمـ يـنـفـرـوـاـ مـعـهـ .

وـقـالـ مجـاهـدـ :ـ نـزـلـتـ فـيـ أـعـرـابـ بـنـ اـسـدـ بـنـ خـزـعـةـ ،ـ وـوـصـفـ غـيـرـهـ حـاـلـهـمـ فـقـالـ :ـ قـدـمـواـ المـدـيـنـةـ فـيـ سـنـةـ مـجـدـبـةـ فـأـظـهـرـوـاـ الـإـسـلـامـ وـلـمـ يـكـونـواـ مـؤـمـنـينـ (ـ١ـ)ـ .

وـيـقـولـ ابنـ كـثـيرـ وـالـصـحـيـحـ ماـقـالـ مجـاهـدـ اـنـهـ قـوـمـ اـدـعـواـ لـأـنـفـسـهـمـ مـقـامـ الـإـيمـانـ وـلـمـ يـحـصـلـ لـهـمـ بـعـدـ فـأـدـبـوـاـ وـاعـلـمـوـاـ اـنـ ذـلـكـ لـمـ يـصـلـوـاـ إـلـيـهـ بـعـدـ ،ـ وـلـوـ كـانـواـ مـنـافـقـيـنـ لـعـنـفـوـاـ وـفـضـحـوـاـ كـمـ ذـكـرـ الـمـنـافـقـيـنـ فـيـ سـوـرـةـ بـرـاءـةـ وـاـنـاـ قـيلـ هـؤـلـاءـ تـأـدـيـبـاـ .

يـقـولـ ابنـ تـيـمـيـةـ :ـ (ـ١ـ)ـ .

إـنـ مـنـ لـمـ يـكـنـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ حـقـاـ يـقـالـ فـيـهـ اـنـهـ مـسـلـمـ وـمـعـهـ إـيمـانـ يـمـنـعـهـ مـنـ الـخـلـودـ فـيـ النـارـ وـهـذـاـ مـسـتـقـلـ عـلـيـهـ بـيـنـ أـهـلـ السـنـةـ .ـ يـقـولـ :ـ لـكـنـ هـلـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ الـإـيمـانـ؟ـ قـيلـ يـقـالـ لـهـ مـسـلـمـ وـلـاـ يـقـالـ مـؤـمـنـ وـقـيلـ بـلـ يـقـالـ مـؤـمـنـ .

(ـ١ـ)ـ ٧ـ /ـ٢٤١ـ

يقول : والتحقيق أن يقال مؤمن ناقص الإيمان .

ثم يقول : الخطاب بالإيمان يدخل فيه « ثلاث طوائف » يدخل فيه المؤمن حقاً ويدخل فيه المنافق في أحكماته الظاهرة وإن كان في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ، وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمان وفي الظاهر يثبت له الإسلام والإيمان الظاهر ، ويدخل فيه الذين أسلموا وإن لم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم لكن معهم جزء من الإيمان والاسلام يثابون عليه .

ويقول (١) : وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمرنا به باطنًا وظاهراً فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم ولا جاهدوا في سبيل الله وقد كان دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد .

والدليل على أن الإسلام المذكور في الآية هو إسلام يثابون عليه وانهم ليسوا منافقين انه تعالى قال « ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » ثم قال « وان تعطعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً » فدل على انهم اذا اطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام آجرهم الله على الطاعة والمنافق عمله حابط في الآخرة .

وأيضاً فإنه جل ثناؤه وصفهم بخلاف صفات المنافقين فإن المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم وانهم يبطنون خلاف ما يظهرون وهؤلاء لم يصفهم جل شأنه بشيء من ذلك .

ونفي الإيمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين اذ أنه من المعلوم ان من لم يكن كما جاء في قوله تعالى « اما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تلقي عليهم زادتهم إيماناً وعلى رءوس يتوكلون » . من لم يكن كذلك لا يكون منافقاً من أهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد اتى بالإيمان الواجب .

يقول (٢) : وهذا حال اكثـر الداخـلين في الإسلام ابـداء بل حال اكـثر من لم يعـرف

(١) ٧/٢٤٣ - (٢) ٧/٢٤٢

حقائق اليمان ، فان هذا إنما يحصل لمن تيسر له اسبابه إما بفهم القرآن وإما بالاتصال بأهل اليمان والاقتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال وأما بهداية خاصة من الله يهديه بها .

يقول (١) : وكثير من هؤلاء قد يرتاب اذا سمع الشبه القادحة ولا يجاهد في سبيل الله فليس داخلا في قوله تعالى « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاحدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله » وليس هو منافقا في الباطن مضمرا للكفر .

فلا هو من المؤمنين حقا ولا هو من المنافقين ولا هو ايضا من أصحاب الكبائر بل يأتي بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق اليمان التي يكون بها من المؤمنين حقا ، معه ايمان وليس هو من المؤمنين حقا ويتابع على ما يفعل من الطاعات .

الى ان يقول عليه رحمة الله (٢) وخلق كثير من المسلمين باطننا وظاهرها معهم هذا الاسلام ولم يصلوا الى اليقين والجهاد .

يقول (٣) : ولكن دخول حقيقة اليمان الى قلوبهم إنما يحصل شيئا فشيئا إن أعطاهم الله ذلك والا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شكوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا وليسوا كفارا ولا منافقين وليس عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه من الأهل والمالي .

يقول عليه رحمة الله : وهؤلاء اذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من اهل الوعيد وهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اسلم عامة أهلها فلما جاءت المحنـة والابتلاء نافق من نافق .

وما ذكر ابن تيمية عليه رحمة الله كأنما يصف حال الكثرة الغالبة من مسلمي اليوم ينطبق عليهم قوله تعالى « قولوا اسلمنا ولما يدخل اليمان في قلوبكم » نسألـه تعالى أن يجعل لل المسلمين من أمرهم فرجاً وخرجاً وان يؤتـهم من لدنـه رحمة ويهـسيـ لهم من أمرهم رشدـاً .

قال تعالى :

« الذين يقيـمون الصـلاة »

(١) : ٧ / ٢٤٤ (٢) : ٧ / ٢٧٠ (٣) : ٧ / ٢٧١

وقد قال عليه الصلاة والسلام: الصلاة وما ملكت ايمانكم الصلاة وما ملكت ايمانكم رواه احمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن انس بن مالك ورواه احمد ايضا وابن ماجه عن ام سلمة ام المؤمنين ورواه الطبراني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنها وروى الحاكم في مستدركه قال صلی بنا رسول الله صلی الله عليه وسلم الظهر فلما سلم نادى رجل كان في آخر الصفوف فقال يا فلان لا تتقى الله لا تنظر كيف تصلى إن أحدكم اذا قام يصلى انا يقوم ينادي ربه فلينظر كيف يناديكم ترون اني لأراكم والله لأرى من خلف ظهري كما ارى من بين يدي . قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه على هذه السياقة وقد أقر الذهبي الحاكم في ان الحديث على شرط مسلم .

ورواه الطبراني في الاوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلی الله عليه وسلم: الصلاة خير موضوع ، لن استطاع ان يستكثر فليستكثر ورمز له السيوطى بالضعف وقال الهيثمى فيه عبد المنعم بن بشير وقد رواه احمد وابن حبان والحاكم وقد صححه عن أبي ذر .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلی الله عليه وسلم يقول ارأيت لو ان نهرا بباب احدكم يغسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يبقى من درنه شيء قال فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا رواه البخاري ومسلم والترمذى والنمسائى ورواه ابن ماجه من حديث عثمان .

وعن عثمان رضي الله عنه قال والله لا أحدثكم حديثا لولا آية في الكتاب الله ما حدثتموه سمعت رسول الله صلی الله عليه وسلم يقول لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه ثم يصلى الصلاة الا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة التي تليها رواه البخاري ومسلم .

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلی الله عليه وسلم: من صلی الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبك الله في ذمته بشيء فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكتبه على وجهه في نار جهنم . رواه مسلم واللفظ له وأبو داود والترمذى وغيرهم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلی الله عليه وسلم قال : يتعاقبون

فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ثم يرجعون الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وآتيناهم وهم يصلون رواه مالك والبخاري ومسلم والنمسائي .

وروى عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اول ما يحاسب به العبد يوم القيمة الصلاة ينظر في صلاة فإن صلحت فقد أفلح وإن فسدت خاب وخسر رواه الطبراني في الأوسط

وعن حنظلة الكاتب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حافظ على الصلوات الخمس رکوعهن وسجودهن ومواقعهن وعلم انهم حق من عند الله دخل الجنة أو قال وجبت له الجنة أو قال حرم على النار قال المنذري رواه احمد باسناد جيد ورواته رواة الصحيح .

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ آن أو تملأ ما بين السماء والأرض والصلوة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء القرآن حجة لك أو عليك . رواه مسلم وغيره .

وعن معدان بن أبي طلحة رضي الله عنه قال لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أخبرني بعمل اعمله يدخلني الله به الجنة أو قال : قلت بأحب الأعمال إلى الله فسكت ثم سأله فسكت ثم سأله الثالثة فقال سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط بها عنك خطيئة . رواه مسلم والترمذى والنمسائي وأبن ماجه .

وعن ربعة بن كعب رضي الله عنه قال : كنت أخدم النبي صلى الله عليه وسلم نهاريا فإذا كان الليل أو يأتى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبيت عنده فلا أزال اسمعه يقول : سبحان الله سبحان الله سبحان ربى حتى أملأ أو تغلبني عيني فأنا فما يقال يوما يا ربعة : سلني فأعطيك . فقلت : انظرني حتى انظر ، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت يا رسول الله : أسائلك أن تدعوا الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من أمرك بهذا ؟ قلت ما أمرني به

أحد ولكنني علمت ان الدنيا منقطعة فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحبيت أن تدعوا الله لي ، قال إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود رواه الطبراني في معجمه الكبير من رواية ابن اسحاق واللفظ له ورواه مسلم وابو داود مختصرا . ولفظ مسلم قال : كنت ابیت مع رسول الله صلی الله عليه وسلم فاتیه بوضوئه وحاجته فقال لي : سلني ؟ فقلت : أسائلك مرافقتك في الجنة قال أو غير ذلك ؟ قلت هو ذاك قال فأعني على نفسك بكثرة السجود .

وعن عثمان رضي الله عنه سمعت رسول الله صلی الله عليه وسلم يقول ما من أمرٍء مسلمٍ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب هالم تؤت كبيرة وكذلك الدهر كله رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلی الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت ثم اي قال بر الوالدين قلت ثم اي قال الجهاد في سبيل الله . قال حدثني بهن رسول الله صلی الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني رواه البخاري ومسلم والترمذى والنمسائى .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فيحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي بهم فإن الله تعالى شرع لنبيكم صلی الله عليه وسلم سنن الهدى وإنهن من سن الهدى ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المخالف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحط بها سيئة ولقد رأينا وما يختلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يوثق به يهادى بين الرجلين حتى يقوم في الصفة .

وفي رواية : لقد رأينا وما يختلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه او مر يرض إن كان الرجل يمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة ، قال إن رسول الله صلی الله عليه وسلم علمنا سن الهدى وإن من سن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه رواه مسلم وابو داود والنمسائي وابن ماجه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه إن رسول الله صلی الله عليه وسلم قال لا يزال أحدكم

في صلاة مادامت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : قال لا يزال العبد في صلاة ما كان في مصلاه ينتظر الصلاة والملائكة تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحه حتى ينصرف او يحدث .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تصفون كما تصف الملائكة عند ربه فقلنا يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربه ؟ قال يتسمون الصفوف الأولى ويتراصون في الصف رواه مسلم وابو داود والنثائي وابن ماجه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكينا في الصلاة ويقول : استوا ولا تختلفوا فتحتلت قلوبكم ليثنى منكم اولو الأحلام والنها ثم الذين يلوهم ثم الذين يلوهم رواه مسلم وغيره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في ناحية المسجد فصلى ثم جاء فسلم عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ارجع فصل فإنك لم تصل فصلى ثم جاء فسلم فقال وعليك السلام ارجع فصل فإنك لم تصل فقال في الثانية أو في التي تليها علمني يا رسول الله فقال إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر ثم أقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائمًا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها رواه البخاري ومسلم .

وعن عمارة بن ياسر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الرجل لينصرف ، وما كتب له إلا عشر صلاته تسعا ثمنها سبعها سدسها خمسها رباعها ثلثها نصفها رواه ابو داود والنثائي وابن حبان في صحيحه .

ما هي العبادة :

قال صاحب اللسان العبادة الطاعة ومنه قوله تعالى (عبد الطاغوت) اي اطاعه يعني الشيطان فيما سول له واغواه وقال الفراء في قوله تعالى اياك نعبد اي نطيع الطاعة التي

نخضع منها وقيل اياك نوحد . قال ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع .

ولم يرفض السيد رشيد رضا تفسير العبادة بالطاعة مع غاية الخضوع قال : وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل قال : بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللغطي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة فان فيها اجمالاً وتساهلاً . ثم يقول خضع وخضع واطاع وذل لا شيء من هذه الألفاظ يصahi عبد ويحل محلها ويقع موقعها فالعاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له لا يسمى خضوعه عبادة وكذا خضوع المرؤوس لرئيسه منها بالغ فيه لا يسمى عبادة .

يقول فما هي العبادة اذن ويجيب بأن :

العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده بسلطته له لا يدرك كنهها وما هي .

قال فمن قدم موطن أقدام ملك لا يقال عبده لأن سبب الذل والخضوع معروف هنا وهو الخوف من ظلمه أو الرجاء لكرمه .

ونحن نجد هذا التعریف الذي قدمه السيد رشيد رضا للعبادة تعریفاً حسناً مفيداً ذلك أن السبب الباعث على العبادة هو المعرفة بالله جل شأنه وبصفاته معرفة تؤدي إلى تعظيمه وتقديسه وتزييه والخشية من سلطانه ورجاء متعه وعفوه وغفرانه .

وهذه المعرفة معرفة بالله ونعمه مقرونة بالعجز عن ادراك ذاته وكنه صفاته وعظمت لطفه عجزاً تحرير فيه العقول وتؤخذ الألباب .

وكلما كان لهذه المعاني سلطان على نفس العبد كانت العبادة أقرب إلى معناها الحقيقي ، أما إذا خلت العبادة من الشعور بعظمة الله وقدرته المغيبة التي لا يصل العقل إلى ادراك حقيقتها والتي يجعل القلب لسعتها وامتدادها حتى تتجاوز الزمان والمكان إذا خلت العبادة من كل معنى من هذه المعاني فهي عبادة خالية جوفاء وما هي إلا صورة ولنست بحقيقة .

هذه العبادة التي تصدر عن بواطنها الحقيقة واسبابها الصحيحة تؤدي إلى نتائجها وثمراتها فإن لم تكن كذلك كانت صورة والصورة لا تثمر ثمرة ولا تؤدي إلى نتيجة .

ولذلك قال تعالى يقيمون الصلاة ولم يقل تعالى يصلون واقامة الشيء الاتيان به
مقدماً كاملاً معتدلاً صادراً عن علته مؤدياً الى غايته .

وغاية الصلاة ان تنهي عن الفحشاء والمنكر .

وغاية الصلاة ايضاً ان تؤدي الى صفة عميقة تنطبع في نفس صاحبها وتغرس في
قلبه : المصلي لا يجزع ولا يهلك ولا يمنع قال تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا » وفسر
الهلع بقوله جل شأنه (اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير متوعاً) ثم قال تعالى « الا
المصلين » . فهم لا يجذرون ولا يمنعون ولا يهلكون أي وصف اعظم من وصف انسان لا
يجزع للمصائب ولا ينخلع قلبه للشدائد يستقبل عظام الأمور ببرد الراحة وطمأنينة اليمان
وسكينة اليقين ذاك هو المصلي والأية الكريمة تذكر بالمجاهدين بالجهاد العاملين في
سبيل الله تسيبهم الشدائـد وتنتابهم الكوارث فلا يجذرون ولا يهلكون ويطلب منهم الانفاق
في سبيل الله فيسخون بالعطاء ولا يمنعون وكل هذه ذكرها جل شأنه من آثار الصلاة
ونتائجها ولكل هذا كان هذه الصلاة مكانتها ودرجتها فهي افضل الاعمال لأنها تربى
النفوس ولأنها مفتاح الخير كلـه وهذا كان من اول ما نزل على رسول الله عليه صلوات الله
الأمر بقيام الليل تهيئ لقلبه لتلقي معاني الوحي واعداداً له لحمل الدعوة وتحمل اعبائها
الثقيلة .

قال تعالى « يا ايها المزمل قم الليل الا قليلاً نصفه او انقص منه قليلاً او زد عليه ورتل
القرآن ترتيلـاً » وكأن سائلـاً سأـلـ وـقـالـ لم ذاك وما الداعـيـ اليـهـ وماـ العـاـمـلـ فـقـالـ تعالى
« اـنـاـ سـنـلـقـيـ عـلـيـكـ قـوـلاـ ثـقـيلاـ » .

للصلاـةـ صـلـةـ بـالـاـيمـانـ وـبـالـخـشـيـةـ وـبـالـوـجـلـ منـ اللهـ وـبـالـبـكـاءـ حـيـاءـ مـنـهـ وـتـقـدـيرـ العـظـمـتـهـ
وـسـلـطـانـهـ .

ولـلـصـلـةـ صـلـةـ بـالـخـيـرـ وـبـالـبـرـ وـبـالـتـقـوىـ وـبـالـأـعـمـالـ الصـالـحةـ جـيـعـهـاـ وـبـالـجـهـادـ وـبـالـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ
وـالـنـهـيـ عـنـ الـنـكـرـ وـقـولـ الـحـقـ وـالـلـاـ يـخـشـيـ فـيـ الـحـقـ لـوـمـةـ لـأـمـ .

المـصـلـيـ هـوـ الـذـيـ يـفـعـلـ الـخـيـرـ وـيـحـرـصـ عـلـىـ الـبـرـ وـالـمـصـلـيـ الـذـيـ لـاـ يـفـعـلـ الـخـيـرـ وـلـاـ يـقـومـ
بـأـعـمـالـ الـبـرـ وـلـاـ يـحـرـصـ عـلـىـ طـاعـةـ الـلـهـ وـرـسـوـلـهـ فـيـ كـلـ مـاـ أـمـرـبـهـ لـيـسـ بـمـصـلـ .
روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال في حديث : « وما يزال عبدـيـ

يتقرب الي بالنواقل حتى احبه فإذا احبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطن بها ورجله التي يمشي بها» الحديث رواه البخاري وتكلم فيه الذهبي فيما فهم من الحديث ولكننا نفهم ان العبادة تنتهي الى استيلاء حب الله وعظمته على قلب المصلي حتى يصبح المولى جل شأنه ملء سمعه وملء بصره ومثل هذا لا يضمن بنفس ولا يرهب مخلقاً.

الإنفاق

قال تعالى «وما رزقناهم ينفقون» .

قال شمس الدين بن القيم الدمشقي عليه رحمة الله في زاد المعاد (القاسمي ج ٣) كان صلى الله عليه وسلم أعظم الناس صدقة مما ملكت يده ، وكان لا يستكثر شيئاً أعطاء الله تعالى ولا يستقله ، ولا يسأله أحد شيئاً عنده إلا اعطاء قليلاً أو كثيراً ، وكان عطاوته عطاء من لا يخاف الفقر ، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه ، وكان سروره وفرجه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه وكان أجد الناس بالخير يمينه كالريح المرسلة ، وكان إذا عرض له محتاج آخره على نفسه تارة بطعمه وتارة بلباسه ، وكان يتتنوع في أصناف عطائه وصدقته فتارة باهيبة وتارة بالصدقة وتارة بالهدية وتارة بشراء شيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جيعاً كما فعل جابر وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه ، وأفضل وأكبر ، ويشتري الشيء فيعطي أكثر من ثمنه ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها تلطفاً وتتنوعاً في ضروب الصدقة والاحسان بكل ممكناً وكانت صدقته واحسانه بما يملكه وبمحاله وبقوله فيخرج ما عنده ويامر بالصدقة ويغضض عليها ويدعو إليها ، فإذا رأى البخيل الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندي وكان هديه صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الاحسان والصدقة والمعروف ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اشرح الخلق صدراً واطي لهم نفساً وانعم لهم قلباً فان للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً في شرح الصدور وانضاف ذلك إلى ما خصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوبعها .

وعن جابر رضي الله عنه قال ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا مستيقن عليه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : «اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم اعط مسكاً تلفاً» متفق عليه .

ولفظ مسلم كما يلي :

عن أبي ذرق قال خرجمت ليلة من الليالي فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده ليس معه انسان قال : فظننت انه يكره ان يمشي معه احد قال فجعلت امشي في ظل القمر فالتفت فرأني فقال من هذا ؟ فقلت ابوذر جعلني الله فداعك قال يا بابا ذر تعالى (١) قال فشئت معه ساعة فقال ان المكثرين هم المقلون يوم القيمة الا من اعطاه الله خيرا (الخير المال) ففتح (٢) فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيرا ... الى آخر الحديث .

يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما : « اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط مسكا تلفا » متفق عليه .

وفي صحيح البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر ما يسرني ان عندي مثل أخذ ذهبا ير على ثلاثة ايام وعندي منه شيء الا دينار أرصده لدین .

وأخرج الشیخان عن أبي ذر ايضا قال : انتهي الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأني قال هم الأخرسون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم اتقار حتى قلت يا رسول الله فداك أبي وامي من هم ؟ قال هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم .

وروى البخاري ومسلم عن الأحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملا من قريش اذ جاء رجل احسن الثياب احسن الجسد احسن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكاتزين (٣) برضف (٤) يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه (٥) ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل (٦) قال فوضع القوم رؤوسهم فرأيت أحدا منهم رجع إليه شيئا قال فأدبر

(١) : أصلها تعال زيدت عليها هاء السكت .

(٢) : نفح اي ضرب قدية فيه بالعطاء .

(٣) : هم الذين يكتنون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله .

(٤) : الرضف الحجارة الحمامة الواحدة رضفة مثل تمر وتمرة .

(٥) : النغض هو العظم الرقيق الذي على طرف الكتف .

(٦) : التزلزل اما هو للرضف اي يتحرك من نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثدييه .

وابتعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم قال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً . ان خليلي ابا القاسم صلى الله عليه وسلم دعاني فأجبته فقال اترى احدا فنظرت ما على من الشمس^(١) وانا اظن انه يعيش في حاجة له فقلت اراه فقال ما يسرني ان لي مثله ذهبا انفقه كله الا ثلاثة دنانير ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئاً ، قال قلت ما لك ولا خوتك من قريش لا تعترهم^(٢) وتصيب منهم قال لا وربك لا اسألهم دنيا ولا استفتيهم عن دين حتى الحق بالله ورسوله .

وروى البخاري عن ابن ابي مليكه ان عقبة بن الحارث رضي الله عنه حدثه قال صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم العصر فأسرع ثم دخل البيت فلم يلبث ان خرج فقلت او قيل له فقال كنت خلفت في البيت تبرا من الصدقة فكرهت ان ابيته فقسمته . وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنها قال خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم عيد فصلى ركعتين لم يصل قبل ولا بعد ثم مال على النساء ومعه بلاط فوعظهن وامرلن ان يتصدقن فجعلت المرأة تلقي القلب والخرص^(٣) .

وروى مسلم في كتاب البر والصلة والآراب عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ان الله عز وجل يقول القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تدعني قال يارب كيف اعودك وانت رب العالمين ؟ قال : اما علمت ان عبدي فلان مرض فلم تدعه ؟ اما علمت انك لوعدته لوجدتني عنده ؟ يا بن آدم استطعتمتك فلم تطعموني . قال يارب وكيف اطعمك وانت رب العالمين ؟ قال اما علمت انه استطعمك عبدي فلان فلم تطعممه ؟ اما علمت انك لواطعنته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استسقتك فلم تسقني قال يارب كيف اسقيك وانت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه اما انك لوسقيته وجدت ذلك عندي » .

وروى ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة) قال وقد قال ابن ابي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود

(١) : يعني كم بقي من النهار .

(٢) : تعترهم اي تأثيرهم وتطلب منهم يقال عروته واعتريه اذا اتيت تطلب منه حاجة

(٣) : القلب بضم القاف وسكون اللام هو السوار والخرص بضم المعجمة وسكون الراء هي الحلقة .

فلك لما نزلت (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيصاغره له) قال أبو الدجاج
الأنصاري يارسول الله وإن الله عز وجل لي ridge منا القرض قال بنعم يا بابا الدجاج قال
أرني يدك يارسول الله قال فناوله يده قال فاني قد أقرضت ربى عز وجل حائطي قال
وحائط له في سمتانة نخلة وام الدجاج فيه وعيالها قال فجاء أبو الدجاج فنادها يام
الدجاج قالت ليك قال اخرجي فقد أقرضته ربى عز وجل^(١).

(١) عبد الله بن الحارث الزبيدي (بضم الزاي) قال في تهذيب روى عن ابن مسعود وروى عنه حميد
بن عطاء الأعرج قال ابن معين ثبت وقال النسائي ثقة.

اما حميد الأعرج فيقول ابن حجر الكوفي القاصي الملاوي وهو حميد بن عطاء ويقال ابن علي
ويقال ابن عبدالله ويقال ابن عبيد روى عنه خلف بن خليفة قال احمد ضعيف وقال البخاري والترمذى
منكر الحديث وقال ابن معين ليس بشيء وقال النسائي ليس بالقوى وقال مرة ليس بشقة وقال ابو حاتم
ضعف الحديث منكر الحديث قد لزم عبدالله بن الحارث عن ابن مسعود ليست بمستقيمة ولا يتبع عليها.
يقول ابن حجر وقال ابن حبان يروى عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود نسخة كأنها موضوعة وقال
الدارقطني مترونك واحداته تشبه الموضوعة.

وهكذا يتبيّن ان الإسناد الذي رواه ابن كثير اسناد ضعيف جداً ويروى ابن حجر ويعلق عليه
احمد شاكر فيقول هذا اسناد ضعيف جداً وينقل ما نقلنا من ترجمة حميد الأعرج الكوفي القاصي .
ثم يقول الشيخ احمد محمد شاكر عليه رحمة الله : وذكره الميشمي في مجمع الروايات (٦: ٣٢٠) بنحوه
وقال : رواه البزار ورجاله ثقات ثم ذكره مرة اخرى (٩: ٣٢٤) بلطف آخر خotope وقال : رواه ابو عيلى
والطبرانى ورجاهم ثقات ، ورجال ابى يعلى رجال الصحيح يقول الشيخ شاكر هكذا قال الميشمى في
الموضوع وليس عندي اسناد من الأسانيد التي نسبه اليها ولا الكتب التي ذكرها السيوطي (ذكره
السيوطى ١: ٣١٢ وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن سعد ، والبزار وابن المنذر . والحكيم الترمذى في
نوادر الأصول والطبرانى ، والبيهقى في شعب الاعيان) يقول الشيخ شاكر : الا ابن سعد ولم اجده فيه لأن
النسخة المطبوعة من طبقات ابن سعد تنقص كثيراً من الكتاب ، كما هو معروف . يقول الشيخ شاكر :
ولقصة ابى الدجاج اصل آخر صحيح من حيث انس رواه احمد في المسند (٩: ١٢٥ ، ٣: ١٤٦)
حلبي) باسناد صحيح عن انس ان رجلاً قال يارسول الله ان لفلان نخلة ، وانا اقيم حائطي بها فأمره ان
يعطيني حتى اقيم حائطي بها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اعطيه اياها بنخلة في الجنة فأبى ، فأناه
ابو الدجاج . فقال : يعني نخلتك بحائطي ففعل . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى
قد استعنت النخلة بحائطي قال فاجعلها له قد اعطيتكها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم من
عذق رداخ (عظيم) لأبى الدجاج في الجنة قالا مرارا قال فأتى أمرأته فقال يام الدجاج اخرجي من
الحانط فاني قد بعثت بنخلة في الجنة . فقللت ربع البيع او كلمة تشبهها .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة دنانير وضعاها عند عائشة فلما كان عند مرضه قال ياعائشة ابعشي بالذهب الى علي ثم اغمي عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً كل ذلك يغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشغل عائشة ما به فبعث الى علي فصدق بها وامسى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديد الموت ليلة الاثنين^(١) ...

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والتصدق كمثل رجلين عليهما جنتان (درعان) من حديد قد اضطرت ايديهما الى ثديها وترaciها فجعل التصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى انامله وتصفو اثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلت واخذت كل حلقة بمكانها قال أبو هريرة فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول باصبعيه هكذا في جيبيه يوسعها ولا تتسع رواه البخاري ومسلم والنثاني ولفظه ما يلي :

مثل المنفق المتصدق والبخيل كمثل رجلين عليهما جنتان او جبتان من حديد من لدن ثديها الى تراقيها فإذا اراد المنفق ان ينفق اتسعت عليه الدرع او مرت حتى تجبن (ستر) ينانه وتعفو اثره فإذا اراد البخيل ان ينفق قلست ولزمت كل حلقة موضعها حتى اخذت ببرقوته او برقتيه يقول ابو هريرة رضي الله عنه أشهد انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوسعها ولا تتسع .

ولفظ البخاري كما يلي : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه

وحيث انس هذا في جمجم الزوائد (٣٢٣ - ٣٢٤) وقال احمد والطبراني ورجاهما رجال الصحيح . يقول الشيخ شاكر وللحديث اصل ثان صحيح رواه مسلم عن جابر بن سمرة قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن الدحداح ثم اتى (يعني الرسول عليه الصلاة والسلام بعد فراغه من الصلاة على جنازة ابن الدحداح) بفرس عربى (لا سرج عليه) فلعله رجل (اي امسكه وحبسه له صلى الله عليه وسلم) فركبه فجعل يتوقف به (اي يتوقف) وغنم تبعه نسمى خلفه . قال فقال رجل من القوم : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كم من عذق (الغضن من النحله) معلق او مدللي في الجنة لابن الدحداح او قال شعبة لأبي الدحداح .

(١) : الحديث رواه الطبراني في الكبير قال المذرئ ورواته ثقات محتاج بهم في الصحيح ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه وقال صاحب جمجم الزوائد رجاله رجال الصحيح (الترغيب والترهيب ص ٥٥ ج ٢) (جمجم الزوائد ج ٣ ص ١٢٤) .

وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبستان من حديد من ثديها الى تراقيها فاما المتفق فلا ينفق الا سبعة او وقرت على جلده حتى تخفي بناه وتعفو اثره وأما البخيل فلا يرى دأ أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تسع.

قال الخطابي وهذا مثل ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للبخيل والمتصدق فشبها برجلين أراد كل واحد منها أن يلبس درعا يستر به من سلاح عدو فصبه على رأسه ليلبسها والدرع أول ما تقع على الصدر والثديين الى ان يدخل الانسان يديه في كميه فجعل المتفق كمن ليس درعا شابة فاسترسلت عليه حتى سرت جميع بدنها وهو معنى قوله «حتى تعفو اثره» اي تسترجع جميع بدنها وجعل البخيل كمثل رجل غلت يداه الى عنقه ، كلما اراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقته وهو معنى قوله «قلست» اي تضامت واجتمعت والمراد ان الجواب اذا هم بالصدقة انفسهم لها صدرو طابت نفسه فتوسعت بالانفاق ، والبخيل اذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه فضاً صدره وانقبضت يداه .

وكلام الخطابي جيد بما احتاج الى شيء من التوضيح وكلام من اوتى جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام يؤدي الى اغراض عديدة : منها بيان طبيعة النفوس ولا جبت عليه فالانفاق في جبالة النفوس ثقيل شديد يشبه درعا من حديد فصلت على قدر جسم الانسان بل هي ضيقة قد لزمت الجسم وركبت في الصدر والعنق ولكن المؤمن يذكره ايمانه بالله وبفضلاته وكرمه ومنه وجوده فليتوكل عليه ويفوض أمره اليه فيهون عليه الانفاق في سبيله أما المنافق وضعيف الاعيان فيوسوس لها الشيطان ويخوفها الفقر فيشتد حرصها ويشتد قلقها على الدنيا فلا يضمان بقطرة ولا تجود انفسها بشيء ويكون من نتيجة ذلك انتشار صدر الأول وثلوح قلبه اما الثاني فيزداد ضيقا وحيرة وهما وغمما واضطرابا وتلزمهم درعه في عنقه تكاد تخنقه وتقتله كل ذلك خوفا على الدنيا وحرضا عليها وهما وحزنا من اجلها .

«الشيطان يعدكم الفقر وياً مركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم» الفحشاء كل ما استقبحه الشرع واعظم مراد بها هنا البخل وهو من اقع الداء .

هذا الانفاق الذي هو درع من حديد ينتهي بالمؤمن بانتشار صدره وانفصال قلبه وتمتد

الدرع حتى تصبح سابعة واقية تقىء الهموم في الدنيا والمعذاب في الآخرة وتضيق على البخيل فتلزم صدره ونحره تكاد تقتله في الدنيا هما وحزنا وفي الآخرة عذابا وألما وهي لا تغنى عنه شيئا لا تقى ولا تدفع شيئا بل تؤدى وتؤلم أياما شديدا .

وهكذا اوضح التمثيل حال المنفق والبخيل في البداية والنهاية وفي الأسباب وغاياتها وما بين ذلك ، ضيق في النفس في البداية يشبه درع الحديد ينتهي الى انفراح وانفساح وواقية تامة في حال المنفق وضيق في البداية لدى البخيل يزداد شدة واستحكاما كدرع من حديد تلزم عنق صاحبها فتقتله وقد كان من شأنها ان تحفظه وتقىه وتنجيه .

روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : اتي رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اصابني الجهد فأرسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله » فقام رجل من الانصار فقال انا يا رسول الله فذهب إلى أهلها فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخر ليه شيئا فقالت والله ما عندي الا قوت الصبية قال فاذا اراد الصبية العشاء فنومهم وتعالي فاطفى السراج وتطوى بطوننا الليلة ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لقد عجب الله عزوجل أن ضحك من فلان وفلانة وانزل الله تعالى : « و يئرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » (سورة الحشر ٩) وقد جاءت تسمية هذا الانصاري في صحيح مسلم وهو أبو طلحه رضي الله عنه .

وعن انس رضي الله عنه قال : كان ابو طلحه اكثر الانصار بالمدينة مالا من خل و كان احب امواله اليه بيرحاء (١) وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال انس فلما نزلت هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّى تَنْفَقُوا مَا تَحْبُّونَ » قام ابو طلحه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ان الله تبارك وتعالى يقول : « لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّى تَنْفَقُوا مَا تَحْبُّونَ » وان احب اموالي الى بيرحاء وانها صدقة ارجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث اراك الله قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رابع ذلك مال رابع رواه البخاري ومسلم والترمذى والنمساني مختبرا .

(١) : اسم لحديقة خل كانت لأبي طلحه رضي الله عنه .

وهكذا كانوا رضوان الله عليهم تهز الآيات الكريمة فلوبهم فتمتد أيديهم بالعطاء
وتنشرح صدورهم بتقديم احب اموالهم .

قال السيد ابو الحسن علي الندوبي ^(١) : والزكاة المشروعة في الاسلام هي الحد
الأدنى للبر وهي فريضة لا يقبل الله عنها صرفا ولا عدلا وهي شرط للإسلام وركن من
اركانه قال تعالى «فَإِنْ تَابُوا وَاقْامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَأَخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ» والذى
يمتنع عن أدائها عن عمد واصرار يعتبر قد خلع ريبة الاسلام من عنقه وفارق الجماعة وقد
قاتل عليها افضل الأمة بعد نبها عليه الصلاة والسلام وفقهم الدين الله ابو بكر رضي الله
عنـه وقد روـي الترمذـي بـسنته عن فاطـمة بـنت قـيس سـئل أو سـأـلت رـسـول الله صـلـى الله
عـلـيـه وـسـلـمـ عنـ الزـكـاةـ فـقـالـ : انـ فيـ المـالـ حـقاـ سـوىـ الزـكـاةـ ثـمـ تـلـاـ «لـيـسـ الـبـرـ آنـ تـلـوـ
وـجـوهـكـمـ قـبـلـ الـشـرـقـ وـالـمـغـربـ وـلـكـنـ الـبـرـ مـنـ آـمـنـ بـالـلـهـ وـالـيـوـمـ الـآـخـرـ» ^(٢) .

وكان شumar محمد عليه الصلاة والسلام «اللهم لا عيش الا عيش الآخرة» رواه
البخاري وروي الترمذـي عن ابـي اـمـامـةـ مـرـفـوـعاـ : «عـرـضـ عـلـيـ رـبـيـ لـيـجـعـلـ لـيـ بـطـحـاءـ
مـكـةـ ذـهـبـاـ فـقـلـتـ لـاـ يـارـبـ ، وـلـكـنـ اـشـبـعـ يـومـ وـاجـوـعـ يـومـ فـاـذـاـ جـعـتـ تـضـرـعـتـ اليـكـ
وـذـكـرـتـكـ ، وـاـذـ شـبـعـتـ حـدـتـكـ وـشـكـرـتـكـ رـوـاهـ اـحـدـ بـنـ حـنـبـلـ» ^(٣) .

وكان يقول عليه الصلاة والسلام اللهم ارزق آل محمد قوتا رواه البخاري ويدخل
عمر على رسول الله صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـيـ رـوـاهـ عـلـيـ حـصـيرـ قدـ اـثـرـ فـيـ جـنـبـهـ وـيـرـفـعـ رـأـسـهـ
فـيـ الـبـيـتـ فـلـاـ يـمـجـدـ الـاـ اـهـابـاـ» ^(٤) مـعـلـقاـ وـقـبـصـةـ مـنـ شـعـيرـ ، وـحـصـيرـاـ يـكـادـ يـلـيـ فـيـكـيـ عمرـ
فـيـقـوـلـ رـوـسـلـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ مـاـيـكـيـكـ يـاـ بـنـ الـخـطـابـ فـيـقـوـلـ عـمـرـيـانـيـ اللهـ

(١) : الأركان الأربعـةـ صـ ١٤١ـ .

(٢) : اورد الترمذـيـ الحـدـيـثـ فـيـ كـتـابـ الزـكـاةـ وـفـاطـمةـ بـنـتـ قـيسـ الفـهـرـيـةـ مـنـ الـمـهـاجـرـاتـ وـلـكـنـ الحـدـيـثـ
ضـعـيفـ فـقـدـ قـالـ فـيـ التـرـمـذـيـ اـبـوـ حـزـنةـ مـيـمـونـ الـأـعـورـ أـحـدـ رـوـاتـهـ ضـعـيفـ وـقـالـ الـبـيـهـقـيـ تـقـرـدـ بـهـ مـيـمـونـ الـأـعـورـ
وـهـوـ بـحـرـوجـ وـلـكـنـ مـعـنـىـ الـحـدـيـثـ صـحـيـحـ فـاطـعـامـ مـضـطـرـ وـمـقـىـ ظـلـآنـ اـنـقـاذـ مـشـرـفـ عـلـىـ الـمـلـاـكـ وـتـجـهـيزـ
الـمـقـاتـلـينـ لـصـدـ غـارـاتـ الـعـدـوـ وـكـلـ هـذـهـ حـقـيقـ قـامـ الـاجـاعـ عـلـىـ وـجـوـهـاـ وـاجـبـارـ الـأـغـنـيـاءـ عـلـىـهـاـ وـقـوـلـ مـنـ

نـسـخـتـ الزـكـاةـ كـلـ حـقـ مـالـيـ قـوـلـ مـخـالـفـ لـاجـاعـ الـأـمـةـ .

(٣) : يقول المناوى بـشـأنـ الحـدـيـثـ رـوـنـزـ السـيـوطـيـ (ـفـيـ جـامـعـهـ الصـغـيرـ) لـحـسـنـهـ وـهـوـ تـابـعـ لـلـترـمـذـيـ وـقـالـ فـيـ
الـسـنـارـ وـيـنـبـغـيـ أـنـ يـقـالـ فـيـ ضـعـيفـ فـانـهـ مـنـ رـوـاـيـةـ يـحـيـيـ بـنـ اـيـوبـ عـنـ عـبـيـدـ اللهـ بـنـ زـجـرـ عـلـىـ بـنـ زـيدـ
عـنـ القـاسـمـ عـنـهـ أـهـ وـقـالـ عـرـاقـيـ فـيـ ثـلـاثـةـ ضـعـفـاءـ عـلـيـ بـنـ زـيدـ وـالـقـاسـمـ وـعـبـيـدـ اللهـ بـنـ زـجـرـ .

(٤) : كـيـسـ مـنـ جـلـدـ .

وما لي لا ابكي وهذا الحصير قد اثر في جنبك وهذه خزانتك لا ارى فيها الا ما ارى وذاك كسرى وقىصر في الشار والأنهار، وانت نبي الله وصفوته؟ فيقول عليه الصلاة والسلام افي شك انت يا بن الخطاب اولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا الحديث في صحيح البخاري ومسنداً احمد وسنن ابن ماجه.

يقول ابو الحسن الندوبي^(١) : يقول الحافظ بن فضل العمري بشأن ابن تيمية عليه رحمة الله « كانت تأثيره القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فيهب ذلك بأجمعه ويضمه عند اهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئاً الا ليه ولا يحفظه الا ليذهب ». .

يقول الحافظ ابن فضل الله : كان يتصدق حتى اذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه وكان يتصدق من قوتة الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه .

من الأمور الهامة في النظام الاقتصادي في الاسلام انه ليس شيء من كل ما يتملكه الانسان ويضيفه لنفسه هو له بل هو في الحقيقة للذى خلقه وفاه وسخره لهذا الانسان لغرض محدود و زمن محدود و سبيل محدود ليس له ان يتتجاوزه .

والانسان ليس له في الحقيقة من هذا المال الا حق الولاية والرعاية والاستخلاف قال تعالى « وآتوه من مال الله الذي آتاكم » (سورة النور: ٣٣) وقال تعالى : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (سورة الحديد: ٧١) وقال تعالى : « وما لكم إلا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض ». .

والغرض من هذه النظرة وضع الأمور في موضعها الصحيح وان يعلم هذا الانسان انه في هذا الكون ليس مالكا وليس سيادا وليس بوسعه ان يدعى لنفسه حق الملك وليس له ان يقول ما قال قارون (اما اوتته على علم عندي) ولكنه خلق ليكون مبتلى ممتحنا بالخير وبالشر وبالغنى وبالفقر قال تعالى (وبنبلوكم بالشر والخريفة والينا ترجعون) (الانباء ٣٥) وقال تعالى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم) (الأنعام ١٦٥) اي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك . قوله تعالى ليبلوكم فيما آتاكم اي ليختبركم

(١) : الاركان الاربعة ص ١٥٢ .

في الذي انعم به عليكم ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء .

ليس هذا المال الذي وضع في يدك ملكا لك ذلك إنك وما ملكت يداك ملك لسيسك ولست أنت الذي جنى هذا المال وجعه وما كان ذلك إلا بعون من الله وتوفيق منه وما يسر لك جمع هذا المال ل تستقل فيه بل لم تتحن احسن شكر النعمة وتحسن الخلافة فيه ؟ ولذلك بعد ان انتزع القرآن الكريم الملكية الحقيقة من الانسان عاد فردها اليه وملكه ولم يطلب منه ان يخرج عن كل ماله وان يتخلى عن كل ما آتاه الله ولكنه قال له مرشدنا وهاديا هذا المال الذي وضع بين يديك احسن الخلافة فيه فلا تُضيئ ذا حق ولا تبخل به على عباد الله قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وما اخرجنا لكم من الأرض » وقال تعالى : « الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا مثناً ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال تعالى : « والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

نزعت الملكية من العبد بالنسبة لله وليس للعبد ملكية في جانب الله جل شأنه ثم اثبتت الملكية له واثبت له حق التصرف فيما يملك في هذه الحياة الدنيا على المبدأ الذي سبق ذكره انه ليس مالكا حقيقا وليس متصرفا حقيقا ولكنه مستخلف في المال قائم على شئونه بجزي بحسن تصرفه اما انتزاع ملكية الانسان من قبل انسان آخر او هيئة مستعدية او جماعة متغلبة بدعوى انصاف المظلومين وسد حاجة المعوزين فهو الظلم الجائر مقنعا بقناع العدالة وهو الجرعة الآثمة متستر بستار الرحمة .

وهنا ننتهي الى نقطة جديرة بالتأمل العميق والنظر الدقيق اذا كان المؤمن مستخلفا في هذا المال الذي بين يديه فهل يجوز له ان ينفقه كله في سبيل الله ؟ .

القصد في الإنفاق

بعد ان يستمع المؤمن الى آيات الله تحدث على الإنفاق في كل سورة من كتاب الله وفي كل مقطع من مقاطعه وجاء من اجزاءه حتى يجد القارئ انه لا يمر بجزء يسير من

آيات الكتاب تخلو من دعوة الى بر ونداء الى احسان ، ولقد كرر فرض الصلاة في القرآن في مواطن عديدة شتى ولم تذكر الصلاة الا وقد قررت معها الزكاة ، وبعد هذا ، وبعد ما تلوا من احاديث رسول الله في البر والصدقة وما هو الا جزء يسير ، وبعد سيرة رسول الله وسيرة اصحابه يجد المؤمن داعية تدعوه الى الا يدخل مالا ولا يمسك درهما ليبدل ذلك له في سبيل الله والبذل هنا عن رضا وطوعية وطيب نفس وانشراح صدر وهذا يؤدي الى اطيب النتائج وليس هو ذلك الاكراه الذي تنتزع فيه اموال الناس رغم انوفهم فتخلع قلوبهم هول المصيبة وتتصدع افثتهم ويصابون بالشلل .

وفي مثل هذا البذل الخصب الطيب تغطي حاجات الأمة جميعها . بل الزكاة وحدها وهي جزء من اربعين جزءا من رؤوس اموال الأمة كافية بala تدع حاجة الا سدتها ولا مشروعها هاما الا اخزته .

وهنا حين يدفع المؤمن ايمانه الى ذروة الاحسان وينادي به للخروج من ماله كله والتخلي عن كل درهم يملكون هنا في مثل هذه الحال تناديه آيات الشريعة الكاملة لتعود به الى الاعتدال وترشده السنة الى القصد ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتکففون الناس ؟

قال البخاري عليه رحمة الله (١) باب لا صدقة الا عن ظهر غنى ، ومن تصدق وهو يحتاج او اهله يحتاج او عليه دين فالدين أحق أن يقضى من الصدقة والعتق والاهمية ، وهو رد عليه ، ليس له أن يتلف اموال الناس وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من أخذ اموال الناس ويريد اتلفها اتلفه الله» الا ان يكون معروفا بالصبر فيؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة كفعل ابي بكر حين تصدق بماله وكذلك آثر الانصار المهاجرين . وهي النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال فليس له أن يضيع اموال الناس بعلة الصدقة .

وقال كعب رضي الله عنه «قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أخلع من مالي صدقة الى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فاني أمسك سهمي الذي بخيبر» .

ويروى البخاري بعد ما سبق حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

(١) : ج ٢ ص ٢٩٤ فتح الباري .

عليه وسلم قال : « اليد العليا خير من اليد السفلی وابداً عن تعول ، وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ». .

انه القصد والاعتدال الذي دعت اليه الشريعة الكاملة الوسط الذهبي الذي ينشده الحكمة الذي لا افراط فيه ولا تفريط .

قال تعالى : « والذين اذا انفقوا لم يسرفو ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ». .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

« وهذه سمة الاسلام التي يخلقها في حياة الأفراد والجماعات ، ويتجه إليها في التربية والتشريع يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال ». .

وال المسلم مع اعتراف الاسلام بالملكية الفردية المقيدة ليس حررا في اتفاق امواله الخاصة كما يشاء كما هو الحال في النظام الرأسمالي وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الاهلي حياتها في كل ميدان ، اما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير ، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله ، فالمال اداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية والاسراف والتقتير يحدثان اختلالا في المحيط الاجتماعي وال المجال الاقتصادي وحبس الأموال يحدث ازمات ومثله اطلاقها بغير حساب . ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق .

والاسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد فيجعل الاعتدال سمة من سمات الامان « وكان بين ذلك قواما ». أ.هـ .

قال في اللسان : والسرف والاسراف مجاوزة القصد وقال والاسراف في النفقة التبذير .

وقوله تعالى : « والذين اذا انفقوا لم يسرفو ولم يقتروا » قال سفيان : لم يسرفو اي لم يضعوه في غير موضعه ولم يقتروا لم يقصروا به عن حقه ، وللفظة الانفاق في الآية الكريمة عامة فهي تشمل الانفاق في سبيل الدعوة وفي سبيل الجهاد والانفاق في المرافق الدنيوية و حاجات المرء . والاسراف وهو وضع الأمر في غير موضعه ليس من صفات المؤمنين ولو كان في سبيل الخير فكيف يكون الشأن حين يكون الاسراف في المطعم والمشرب والمسكن والملبس والشهوات ، على ان الحسن يقول ليس في النفقة في سبيل الله سرف

وسمع رجلا يقول لا خير في الإسراف فقال لا اسراف في الخير والذي يؤخذ من كل ما نقلنا ان وضع الأمر في غير موضعه كأن يبذل الماء ما يؤدي الى ضياعه وضياع اهله او وقوعه في حرج شديد ولو كان في زعمه في سبيل الله هو السرف المنهي عنه .

اذا كان الاسراف منها عنده في سبيل الخير فما يكون شأنه في سبيل التكاثر والتفاخر والأثاث والرياش وكل هذه لا يراد بها الا التعاظم امام الناس وقد ابتهل بهذا المسلمين في كل اخاء الدنيا فغلب عليهم عدوهم وقهراهم ، تحدث الناس بأن اليهود حين غلبوا على بعض القرى المسلمة ودخلوها خاطبوا اهلها وقالوا لهم في منازلكم الثلاجات والمكيفات والغاسلات والمكتنفات الكهربائية وليس في منازلنا شيء من ذلك ، لقد ادخرنا ثمن ذلك كله لنشترى به اسلحة نقاتلكم بها . ولم يكتف المسلمون بالاسراف في نفقاتهم الدنيوية وشحهم في النفقة في سبيل الله ولكنهم بلغوا حد الترف والتبذير وغدا المال وسيلة للفساد والدمار وآيات القرآن الكريم تنذر بالمذرين وتصف المترفين بأنهم وسيلة هلاك الأمة .

في الإنفاق حياة المجتمع

في الإنفاق في سبيل الله حياة المجتمع وتضامن افراده وثبات بنائه .

وفي الإنفاق تربية للإيمان وتمحيص للنفوس اما تربية الاعيان فبتربية الاعتماد على الله والتوكل عليه والثقة بما عنده كان عليه الصلاة والسلام اوثق بما عند الله مما في يده واما تمحيص النفوس فبتنتقيتها من أدران البخل والشح والطمع .

وفي الإنفاق بناء للمشروعات الاجتماعية وما يُؤسف له اسفاً كبيراً ان الجمعيات التبشيرية وغيرها من الجمعيات الضالة المنحرفة في العالم يسخون أصحابها سخاء لا تعرف الجمعيات الإسلامية وينظمون أمورها تنظيماً ينبع الشر الكبير ويثير الفتنة العارمة .

والإنفاق في سبيل الله دعامة الجihad ودعامة مقدماته وتعني بقدماته تربية الأبناء تربية الرجلة والبطولة والقوة والإقدام ، أما الجihad فهو سبيل الحفاظ على الأمة ومبادئها ومقدساتها من عادات المعتدين وغارات المغرين ، وقد كانت سورة البقرة من اول ما نزل بالمدينة واستمرت السورة الكريمة مفتوحة تتنزّل آياتها وتتكامل أجزاؤها حتى آخر ما نزل من القرآن الكريم وكانت السورة الكريمة دعوة للجهاد و التربية للإنفاق .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز^(١): «نرى التنويه بفضيلتي الانفاق والجهاد في سبيل الله لا يزال يعاد ويردد في مطالع الحديث ومقاطعه في اجلاله وفي تفصيله ، تردیداً ينادي بأنه هو المقصود الأهم والهدف الأعظم من التشريع في هذه السورة ...»

فلو اتنا في ضوء هذا الأسلوب تمثينا تلك البيئة واحداثها وتمثنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها تمثينا معسكراً ثابتاً للجهاد المزدوج : الجهاد المالي والجهاد البدني وتمثنا على رأس هذا المعسكر قائداً حريصاً لا يغرب عنه شأن من شؤون جنوده خاصتها وعامتها لا يفتاً يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشؤون وكلما فرغ من افتئاتهم في نوازفهم العارضة المؤقتة رجع بالحديث إلى مجراه العتيد ، في شأن مهمتهم الرئيسية (الجهاد في سبيل الله والانفاق في سبيله) .

وهكذا يرى الدكتور دراز أن سورة البقرة تدور حول موضوع أساسى هو الجهاد في سبيل الله وإن ما تخلل آيات الجهاد من موضوعات أخرى فهي موضوعات تتعلق بنوازل وقتيّة أو هي أمور فرعية تتعلق بالجهاد نفسه ومثال ذلك موضوع الصلاة في الحرب لأن يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله ؟ .

يقول الدكتور دراز: يجيئنا الكتاب العزيز: لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها لا في سلم ولا في حرب لا في أمن ولا في خوف قال تعالى (حافظوا على الصلوات) وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد في صفات الصلاة وهيئاتها «إإن خفتم فرجحالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

والصلاحة قوة معنوية وعدة من عدد النصر على العدو، فلا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين قبل أن يؤمروا بالقتال والصلاحة طهرة تنقي النفس من دنس شح واحرص على حطام الدنيا .

إلى أن يقول والجندي في الحرب تشغله مخافتان: مخافة على نفسه واخوانه المجاهدين

(١) : النبأ العظيم ص ٢٣٦ .

معه من أخطار الموت أو الهزيمة ومحافاة على أهله من الضياع والهيبة إن قتل ، لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخاوفين أما أهله فقد وصى الله للزوجة اذا مات زوجها بأن تتمتع حولاً كاملاً في بيته وأما خوف الموت فليعلم ان الذي يطلب الموت توهب له

الحياة » الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتا ثم احياءهم ». .

وهكذا ابعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين بعد ان زودت ارواحهم بزاد التقوى وهكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل لتلقى الأوامر العليا فليصدر اليهم الأمر صريحا بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم » .

انتقلنا من سورة الأنفال الى سورة البقرة ولا حرج فالقرآن وحدة متكاملة وقد اخذت آيات الإنفاق نصيبا وافرا في آخر سورة البقرة و كان غرضنا من كل ما سبق بيان الارتباط بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال والجزء الأخير من السورة الكريمة كله في الجهاد بالمال وقد تلونا من احاديث الإنفاق ما سبق وختار من آيات الإنفاق الجزء الأخير من سورة البقرة .

قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا يبع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون » اقتربت الدعوة الى الإنفاق في الآية الكريمة بالتخويف والتذكرة يوم الوعيد يوم لا يغطي خليل عن خليله ولا تنفع شفاعة الشافعين الا من اذن له الرحمن فالسلطان الله وحده والملك الله وحده نددت الآية الكريمة بمناسبة الإنفاق بذكر الكافرين وظلمهم ويفهم من ذلك بوضوح ان المخالفين عن امره جل شأنه التاركين للإنفاق وللزكاة هم الظالمون وهم الكافرون سموا بهذا الاسم لبيان عظم جرمتهم وفداحة اثائهم كما قال تعالى في آخر آية « الحج » « ومن كفر فان الله غني عن العالمين » تعرضا من لم يحج ويؤخذ من الآية الكريمة ان ترك الزكاة من صفات الكفار كما قال تعالى : « وويل للمشركين الذين لا يؤمنون بالزكاة » .

وتلت الآية السابقة الداعية الى الانفاق آيات كريمة في توطيد بناء التوحيد في قلب المؤمن وعلى رأس هذه الآيات آية الكرسي ذات الشأن العظيم والفضل الكبير وقد صر في حديث اورده الامام احمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها اعظم آية في كتاب الله وانها مشتملة على اسم الله الاعظم قال الزمخشري : فلن قلت لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد قلت لما فضلت له سورة الاخلاص من اشتماها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور اعظم من رب العزة فا كان ذكرا له كان افضل من سائر الاذكار.

اقترنست آية الانفاق بآية عظيمة في كتاب الله في توحيده جل شأنه وتمجيده وقد اعقبت هذه محاجة ابراهيم لمدعى الالوهية الذي قال انا احيي وامي واعقب ذلك قصة الذي امته الله مائة عام ثم بعثه ثم قصة ابراهيم يقول ولكن ليطمئن قلبي كل هذه المعاني تؤدي غرضها في دعوة غير المؤمن الى الامان وتزيد المؤمن ثباتا ورسوخا في ايمانه فادعى الى الانفاق لم يتردد ولم يتلوكا ، وهكذا يشعر هذا الاقتران بارتباط الانفاق في سبيل الله بالامان بالله .

وبعد الدعوة السابقة الى الانفاق الخامسة الصارمة وبعد آيات التوحيد التي سبق ذكرها التي تدعم موضوع الانفاق وتزيده قوة وتأييدها تعود الآيات الكريمة الى الدعوة الى الانفاق ثانية مبينة هنا ثمراته الكريمة ونتائجها الطيبة دعوة خافقة مشجعة قال تعالى :

«مُثُلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمُثُلَ حَبَّةٍ اتَّبَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَبْلَةٍ مَائِةً حَبَّةً، وَاللَّهُ يَضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ» . وبعد هذا وذاك يأتي دور التحذير من الانفاق المشوب بشائبة الرداء . (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة الله وتشبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فاتت اكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظل والله بما تعملون بصير) .

وما هو شبيه بغاللة الرياء وهو دليل على ضعف الامان أن يعمد المنافق الى الخبريث

من ماله فيقدمه في سبيله قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّفَقُوا مِنْ طَبِيعَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا
تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تَنْفَقُونَ وَلَئِنْ تَنْفَقُوْنَ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِّي حَمِيدٌ) .
وما هي العقبة التي تقف في وجه المؤمن وتحول بينه وبين الإنفاق انه الشيطان يعد بالفقر .

قال تعالى : «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه
وفضلا والله واسع عالم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد اوتى خيراً كثيراً وما
يذكر الا اولو الالباب وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فان الله يعلمهم وما للظالمين
من انصار» .

ومن الآداب المتعلقة بالإنفاق الإنفاق في السر والجهر قال تعالى : «ان تبدوا
الصدقات فنعاها هي ، وان تخفوها وتتووها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سلطانكم
والله بما تعملون خير»

قال تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدَاهُمْ ، وَلَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ
يُوْفَى إِلَيْكُمْ وَإِنَّمَا لَا تَظْلِمُونَ» .

قال تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدَاهُمْ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تَنْفَقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوْفَى إِلَيْكُمْ وَإِنَّمَا لَا تَظْلِمُونَ» .
جاءت الدعوة الأولى الى الإنفاق مقتربة بتوجيه الله جل شأنه وبالآية الكريمة التي
جاء فيها ذكر اسم الله الأعظم ثم اعقب ذلك آيات ضاربة أروع الأمثلة لسوق هذا
الانسان الى الاعتراف بخالقه والاذعان لألوهيته ثم كانت بعد ذلك دعوة تبين ما للمنافق
من مضاعفة الشواب عند ربه ثم جاءت آيات تذكر بأدب الإنفاق البعيد عن الرياء
والإنفاق من الطيب لا الخبيث وبجانبة دعوة الشيطان حين يخوّف العبد الفقر ، والإنفاق
بالسرتارة وبالجهر أخرى ، وبعد هذا كله جاءت الآية السابقة مصدرة بهذكر الهدایة قد
كرر فيها النداء واكدها العلم الحكيم على المؤمنين ان ما ينفقون من خير فهو لأنفسهم ،
وان ما ينفقونه في سبيل الله وابتقاء وجهه ومن اسعد من ينفق في سبيل الملك الواحد

القهار وان ما ينفقونه يوف اليهم من قبل البر العدل الرحيم . و يأتي بعد هذا التأكيد وصف رائع جميل يصور لنا حال اناس من المؤمنين لا ينقطعون عن الإنفاق في ليل ولا نهار ولا في سر او جهر ، في الليل يتلمسون السبيل و يتجمسون الطرق ليصلوا الى امرأة من حوها ايتام جياع او عابر سبيل انقطعت حبالة وفي النهار يحضرن الندوات و يقدمون الأموال في سبيل الأمور الكبيرة والمهام الجليلة و يعترض بين الآيتين وصف للفقراء الذين ينامون بر هؤلاء وصف يستدر الرحمة و يبين ضرورة الصدقة ومكانتها :

(للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) (الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلاتية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

كلمة في الإنفاق للغزالى

قال القاسمي في تفسيره قال الإمام الغزالى عليه الرحمة في الامحاء ما نصه : في وجه الامتحان بالصدقات ثلاثة معان :

الأول ان التلفظ بكلماتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بافراد العبود وشرط تمام الوفاء به آلا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان حبة الله لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمعتهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت مع ان فيه لقاء وجه الله فامتحنوا بتصديق دعواهم في حب الله واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال تعالى (ان الله اشتري من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقا الى الله عز وجل ، والمساحة بالمال اهون ، وما فهم هذا المعنى في بذلك الأموال انقسم الناس الى ثلاثة اقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع اموالهم فلم يدخلوا دينارا ولا درهما . وقسم درجتهم دون من قبلهم وهم المسكون اموالهم المراقبون لواقية الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنفيع ، وصرف الفاضل عن الحاجة الى وجوه البر منها ظهر وجوها .

وهؤلاء لا يقتصرن على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين الى ان في المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي (بعد ان قيل له هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال نعم اما سمعت قوله عزوجل (واتى المال على حبه ذوي القربى ... الآية) . واستدلوا بقوله عزوجل «وما رزقناهم ينفقون» وبقوله تعالى «وانفقوا مما رزقناكم» وزعموا ان ذلك غير منسوخ باية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ومعناه انه يجب على الموسر، مهما وجد محتاجا ، أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة .

وقسم يقتصرن على أداء الوجوب فلا يزدون عليه ولا ينقصون منه وهي اقل الرتب وقد اقتصر جميع العوام عليها ، لبخلهم بالمال وميلهم اليه وضعف حبهم للآخرة .

يقول الغزالى بهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال والمعنى الثاني التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » والزكاة بهذا المعنى طهرة اي تطهر صاحبها عن خبث البخل المhellk واما طهارته بقدر بذله وبقدر فرجه باخراجه واستبشاره بصرفه لله تعالى .

المعنى الثالث : شكر النعمة فان الله عزوجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال ، وما احسن من ينظر الى الفقر وقد ضيق عليه الرزق ثم لا تسمع نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على اغناائه عن السؤال وإحراج غيره اليه .

أقول : الذي يبدولي أن هؤلاء الذين وضعهم الغزالى في المرتبة الثانية هم اصحاب المرتبة الأولى وهم اقرب الى المعانى الكاملة التي تدعوا اليها الشريعة الاسلامية فليس من الحكمة ولا من كمال الدين الا يبقى بيد المؤمن درهم ولا دينار ولكن الأكمل ان يحفظ المال لوقت حاجته اذ ربما نزل بالأمة كارثة او المت بها جائحة وهنالك يسعف المال وينفذ الادخار للأمة ويوضع المدخر في درجة المنقذين .

الصلة بين الصفات الخمس والسؤال عن الأطفال

سؤال اصحاب رسول الله عليه صلوات الله وسلامه عن الأطفال بعد موقعة بدر كيف

قسمتها ومن صاحب الحق فيها وكان هذا السؤال أمراً يُواخذُنَ عليه في نظر الشارع الحكيم ذلك أن هذا المستوى هو دون المستوى الذي يطلب أن يكون فيه أصحاب رسول الله .

واعتبر الموضوع موضوع الساعة فبدىء الحديث به وكان أول موضوع يطرح وأول مسألة تعالج ، ولم يعالج الموضوع معالجة جافية ولم يزجر الأصحاب عن الموضوع زجراً ولم يكرهوا على عدم الخوض فيه أكراها ولكنهم دعوا دعوة لينة كريمة إلى ترك الأمر ووضعه بأيد أمينة تحسن التصرف فيه وتعرف البت بشأنه ، ودعى الأصحاب دعوة ملؤها الحنان وسداها النصح ولحمتها الأشواق دعوا إلى تقوى الله وقد رأينا ما تنطوي عليه هذه الكلمة من مراقبة الله وطاعة لأمره وعمل بما يرضيه ودعوا إلى اصلاح ذات بينهم ودعوا إلى طاعة الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ثم جيء بعد ذلك بخمس صفات من صفات المؤمنين كل صفة منها كافية بالبلوغ بالمؤمن إلى أعلى درجات الإيمان .

الأولى الوجل عند ذكر الله وهو اصل خشية الله ودليل على تمجيده وتعظيمه وتقديره جل شأنه حق قدره .

والثانية زيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله وهي دليل على وعي القلب وتفتحه وادراكه للمعاني الجليلة وتأثيره بها حتى تختلط اللحم والعظم وتتصبح جزءاً من اجزاء الإنسان نفسه وهذا الوجل عند ذكر الله معناه يقظة ضمير المؤمن وارهاف حياته الوجدانية وكونها قد بلغت في تربيتها شأوا بعيداً والكثرة الغالبة من المسلمين لا توجل قلوبهم ولا تبكي عيونهم ولا تتشعر جلودهم وما ذلك الا من قسوة القلوب .

وهذه الحياة الوجدانية اليقظة المرهفة المدركة ينشأ عنها الوجل عند ذكر الله والطمأنينة إلى أمر الله والثقة بعونه وينشأ من كل ذلك الاعذان إلى أمر الله والقلوب راضية والصدور منشرحة .

وزيادة الإيمان عند تلاوة الآيات منشأة تربية الحياة الفكرية والوجدانية لدى المؤمنين فهم يدركون الحق ويتدوّلون حلاوته وحلوة المعاني السامية الكريمة التي تتنزل بها آيات الله والضم البكم لا يرون في ذلك جالاً ولا يدركون له جلالاً ويعجبون من يدركون شيئاً من ذلك فتخشع قلوبهم وتندمع أعينهم قال تعالى : « والذين اذا ذكروا

بآيات ربهم لم يخروا عليها صها وعمياناً »

الوجل منشأة التربية الوجدانية وزيادة الایمان منشأة التربية الفكرية والصفة الثالثة التوكل على الله وهي اعظم ثمرات التوحيد كما ذكرنا واصله الاعتقاد الثابت واليقين الراسخ بان الله جل شأنه هو المالك وحده وهو المتصرف وحده وهو بيده الامر وحده وثمرة هذا الاعتقاد الاقدام في مرضاه الله مع التوكل على الله وخشيته وحده جل شأنه وعدم خشية شيء سواه .

وهكذا كان التوكل على الله اقوى العوامل في تربية الحياة الارادية ، تربية العزيمة لدى المؤمن وتصميمه على فعل الخير .

وهكذا كانت الصفات الثلاث التي تؤدي الى تربية الحياة الوجدانية والحياة الفكرية والحياة الارادية وهذا قوام النفس ومظاهر سلوكها المختلفة وهذه الصفات الثلاث سيقت لحمل المؤمنين على الاذعان بأن شأن الانفال وقسمتها ليس من شأنهم والتفكير بها والقلق عليها يجب الا يكون من ديدنهم . انها ل التربية رفيقة حكيمه تطأطىء الرؤوس اذعنانا جلالها واعترافا بلطف تأثيرها : لم يزجر الأصحاب بالعنف ولم يدعوا كرها ولم ينهوا قسرا ولكنهم دعوا الى ایمانهم والى عهودهم .

المؤمن يوجل قلبه اذا ذكر الله وهذه الصفة وحدها كافية في الاستجابة لكل أمر من عند الله ومجافاة كل نهي من نهيه .

والمؤمن يزداد ایمانا بآيات الله وهذه وحدها كافية لطاعة أمر الله اذا يرى بصيرته بان امر الله هو الحق كله وهو الخير كله .

والمؤمن يتوكّل على الله فلا يخشى فقرا ولا يبالي بالدنيا اذا اقبلت ام ادبرت فيدع أمر الانفال ويتوّب من السؤال عنها .

أليست هذه الصفات كافية لاقناع الأصحاب او بعضهم على الأصح بضرورة القلاع عما خامر بعض النفوس من التفاتة يسيرة الى الدنيا؟.

ولكن الآيات الكريمة تضيف اليها صفتين كريمتين تفعل كل واحدة فعلها في تربية النفوس المؤمنة وفي تزكيتها وابتها تقوها : الصلاة والانفاق في سبيل الله .

كل هذه الصفات ذكرت لأصحاب رسول الله ليرجع بعضهم عما حدثه نفسه من رغبة في الدنيا ولتظل تربية هذه الآيات تفعل في نفوس المؤمنين حتى يقوم الناس لرب العالمين .

انها تربية جليلة تربية العليم الحكيم .

قال تعالى : « اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »

قال ابن جرير الطبرى : يقول تعالى ذكره الذين يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها وينفقون مما رزقهم الله من الأموال فيما أمرهم الله ان ينفقوها فيه ، من زكاة وجهاد وجع وعمرة ونفقة على من تجب عليهم نفقته فيؤدون حقوقهم ، يقول هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال هم المؤمنون لا الذين يقولون بأسئلتهم قد آمنا وقلوهم منظورة على خلافه نفاقا ولا يقيمون صلاة ولا يؤدون زكاة .

وقال ابن كثير : اولئك اي المستصون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الامان يريد الصفات الخمس التي سبق ذكرها وهذه الصفات الخمس التي ذكرها وحدها تستلزم صفات الامان كلها وتتبعها شعب الامان جميعها .

فوجل القلب عند ذكر الله مثلا يقتضي خشيته والخوف منه والخشية والخوف يؤديان الى فعل المأمور وترك المحظور قال تعالى « ولين خاف مقام رب به جتنا » ، وقال تعالى « اما يخشى الله من عباده العلماء » وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال والله اني لأرجوان اكون اخشاكم الله واعلمكم بحدوده . والحديث يدل على ان خشية الله والعلم بحدوده ، مما صفات المؤمن الكامل الامان والخشية تستلزم العمل والامان متناسب مع الخشية فكلما ازدادت خشية العبد المؤمن كان ذلك دليلا على زيادة ايمانه .

واذا كان اهل الخشية هم العلماء الذين اثنى الله عليهم في الكتاب فلا يمكن ان يكونوا مكانا للثناء الا وقد التزموا الأوامر واجتنبوا التواهي لأن خوف الله جل شأنه يستلزم اداء الواجبات وترك المحرمات ويقال للفارجر انه لا يخاف الله وقال تعالى « اما التوبة على الله للذين يعملونسوء بجهالة ثم يتوبون من قريب »

قال ابن تيمية ^(١) قال ابو العالية : سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي

^(١) الفتاوى ج ٧ ص ٢٢

كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب من قريب وكذا قال سائر المفسرين . قال مجاهد كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الزجاج آثروا العاجل على الآجل فسموا جهالا .

وقوله تعالى « أولئك هم المؤمنون حقا » اي الكاملون في ايمانهم البالغون فيه اعلى درجاته واقصى غایياته المؤمنون ايمانا حقا موصوفا بالصدق واليقين فلا يشك في ايمانهم شاك ولا يرتاب فيه مرتاتب ولك ان تقول هم المؤمنون ، حق هذا القول حقا . وعلى القول الأول وصف ايمانهم بأنه ايمان حق . وعلى الثاني وصفت نسبة الامان اليهم نسبة حقه والأول عندي اقرب .

قال ابن كثير قال عمرو بن مرة: قوله تعالى أولئك هم المؤمنون حقا كقولك فلان سيد حق وفي القوم سادة وفلان تاجر حقا وفي القوم تاجر وفلان شاعر حقا وفي القوم شعراء . يقول القاسمي : كأنه (يعني عمرو بن مرة) اراد الرد على من زعم ان حقا صولة بقوله تعالى لهم درجات مؤكدة له وان الكلام تم عند قوله المؤمنون ، يقول القاسمي : فلان هذا الزعم يصان عنه اسلوب التزيل الحكيم . ويقول صديق حسن خان: بهذا اما يجوز على رأي ضعيف يعني تقديم المصدر المؤكد لضمون الجملة عليها . يقول القاسمي : وقد تطرق بعض المفسرين لمسألة شهيرة وهي :

هل يجوز ان يقال انا مؤمن حقا ؟

قال صديق حسن خان : وقد استدل بظاهر هذه الآية ابوحنيفة ومن قال بقوله « انه يجوز ان يقال انا مؤمن حقا ولا يجوز الاستثناء » واجيب عنه بأن الاستثناء ليس عن طريق الشك بل للتبرك كقوله « وانا إن شاء الله بكم لا حقوقن » مع العلم القطعي أنه لاحق بهم أو المراد صرف الاستثناء إلى الخاتمة والتزاع عند التحقيق لفظي يعني أنه خلاف في أمر لا يدعوه إلى خلاف .

ويقول القاسمي : قال الطوسي (٢) (في نقد المحصل)

(٢) الطوسي هو محمد بن محمد بن الحسن أبو جعفر نصير الدين الطوسي فيلسوف كان رأسا في العلوم العقلية ، علت منزلته عند « هولا كوك » فكان يطعنه فيما يشير به عليه . ونقد المحصل ذكره صاحب كشف الظنون واكتفى بان يقول لأبي جعفر نصير الدين محمد بن حسن الطوسي =

المعتزلة ومن تبعها يقولون اليقين لا يحتمل الشك والزوال فقول القائل (انا مؤمن ان شاء الله) لا يصح الا عند الشك او خوف الزوال ، وما يوهم احدهما لا يجوز ان يقال للتبرك . انتهى

والغزالى في الاحياء بسط هذه المسألة واجاب عن سوغ ذلك بأجوبة منها التخوف من الخاتمة لأن الایمان موقوف على سلامه الخاتمة ومنها الاحتراز من تزكية النفس ... الى آخر ما يقول

وقال ابن حزم في الفصل :

القول عندنا في هذه المسألة ان هذه صفة يعلمها المرء من نفسه فان كان يدرى انه مصدق بالله عز وجل ومحمد صلى الله عليه وسلم وبكل ما اتي به وانه يقر بلسانه بكل ذلك فواجب عليه ان يعترف بذلك كما امر تعالى في قوله « وأما بنعمته ربك فحدث » ولا نعمة أو كد ولا افضل ولا أولى بالشكر من نعمة الاسلام فواجب عليه ان يقول : مؤمن مسلم عند الله في وقتى هذا ولا فرق بين قوله انا مؤمن مسلم (انا اسود وانا ابيض) وهكذا سائر صفاته التي لا شك فيها وليس هذا من باب الامتداح والعجب في شيء لأنه فرض عليه ان يتحقق دمه بشهادة التوحيد .

وقول ابن مسعود (انا مؤمن ان شاء الله) عندنا صحيح لأن الاسلام والایمان منقولان عن موضوعهما في اللغة الى جميع البر والطاعات فاما منع ابن مسعود الجزم على معنى انه مستوف لجميع الطاعات وهذا صحيح ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك وما منع (ابن مسعود) ان يقول المرء (اني مؤمن) بمعنى (مصدق) .

واما قول المانعين : « من قال انا مؤمن فليقل انه من أهل الجنة فالجواب انا نقول ان متى ما نحن عليه الآن فلا بد لنا من الجنة بلا شك وبرهان ذلك انه قد صبح من نصوص القرآن والسنة والاجماع أن من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكل ما جاء به ولم يأت بما كفر، فإنه في الجنة ، الا اتنا لاندري ما يفعل بنا في الدنيا ولا نأمن مكر الله تعالى ولا إضلاله ولا كيد الشيطان ولا ندري ماذا نكسب غدا ونوعذ بالله من الخذلان .

= والمحصل للرازى يقول صاحب كشف الظنون (محصل افكار المقدمين والمؤخرین من الحكماء والمؤخرین) وهو في علم الكلام ، وحلمه الححق نصير الدين الطوسي وسماه تلخيص المحصل يقول الطوسي « وفيه من الغث والسمين ما لا يخصى فرأيت ان اكشف النقاب وأبين الخلل وادل على غثه وسمينه » .

ويتفق مع ما ذكر ابن حزم بایجاز غير محل ما روی القرطبي قال :
وسأل رجل الحسن فقال يا ابا سعيد امؤمن انت ؟ فقال له الایمان ايمانان فلن كنـتـ
تسألني عن الایمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به
مؤمن وان كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى ائما المؤمنون الذين اذا ذكر الله
وجلت قلوبهم - الى قوله تعالى - اولئك هم المفلحون حقا فوالله ما ادرى انا منهم ام لا .
وقال الشيخ السفاريني الحنبلي صاحب شرح الدرة المضية في عقد الفرقـة المرضـية
الذين يحرمون الاستثناء هـمـ المـرـجـةـ والـجـهـمـيـةـ وـمـنـ وـافـقـهـمـ مـاـ يـجـعـلـ الـاـیـمـانـ شـيـئـاـ وـاحـدـاـ قالـ
شـيـخـ الـاسـلامـ يـعـنـيـ اـبـنـ تـيـمـيـةـ عـلـيـهـ رـحـمـةـ اللهـ وـكـانـ اـهـلـ الشـامـ شـدـيـدـيـنـ عـلـىـ المـرـجـةـ وـكـانـواـ
يـسـتـشـنـونـ اـتـبـاعـاـ لـالـسـلـفـ .

قال شـيـخـ الـاسـلامـ وـمـذـهـبـ اـصـحـابـ الـحـدـيـثـ كـابـنـ مـسـعـودـ وـاصـحـابـهـ وـالـثـورـيـ وـابـنـ
عـيـيـنـةـ وـاـكـثـرـ عـلـمـاءـ الـكـوـفـةـ وـبـحـيـيـ بنـ سـعـيدـ القـطـانـ فـيـاـ يـرـوـيـهـ عـنـ عـلـمـاءـ الـبـصـرـةـ وـالـامـامـ اـحـدـ
ابـنـ حـنـبـيلـ وـغـيـرـهـ مـنـ اـمـةـ السـنـةـ كـانـواـ يـسـتـشـنـونـ فـيـ الـاـیـمـانـ وـهـذـاـ مـتـواتـرـ عـنـهـمـ،ـ وـيـقـولـ وـاخـذـ
سـلـفـ الـأـمـةـ فـيـ الـاسـتـشـنـاءـ اـنـ الـاـیـمـانـ الـمـطـلـقـ فـعـلـ جـمـيعـ الـمـأـمـورـاتـ وـتـرـكـ جـمـيعـ الـمـحـظـورـاتـ فـاـذـ
قـالـ الرـجـلـ اـنـ اـمـؤـمـنـ بـهـذـاـ الـاعـتـبـارـ فـقـدـ شـهـدـ لـنـفـسـهـ اـنـ اـنـ اـبـرـارـ الـمـتـقـيـنـ وـهـذـاـ تـرـكـيةـ
الـاـنـسـانـ لـنـفـسـهـ وـشـهـادـتـهـ هـاـ بـاـ لـاـ يـعـلـمـ .

قال الخلال في كتاب السنة حدثنا سليمان بن الأشعث يعني الامام الحافظ أبا داود
صاحب السنن قال: سمعت ابا عبد الله يعني الامام احمد رضي الله عنه قال له رجل قيل
لي امؤمن انت ؟ قلت نعم هل علي في ذلك شيء ؟ هل الناس امؤمن او كافر ؟
فغضب الامام احمد وقال هذا كلام الابرجاء . ثم قال الامام احمد أليس الایمان قوله وعملها
قال له الرجل بلى ، قال فجئنا بالقول ؟ قال نعم ، قال فجئنا بالعمل ؟ قال لا فكيف
تعيب أن يقول ان شاء الله ويستثنى ؟
قال ابو داود اخبرني احمد بن ابي شريح ان الامام احمد رضي الله عنه كتب اليه في
هذه المسألة ان الایمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجئ بالعمل ونحن نستثنى في
العمل .

وقال السفاريني بـقـالـ الـامـامـ اـحـدـ أـذـهـبـ اـلـىـ حـدـيـثـ اـبـنـ مـسـعـودـ فـيـ الـاسـتـشـنـاءـ فـيـ
الـاـیـمـانـ لـأـنـ الـاـیـمـانـ قـوـلـ وـعـمـلـ فـقـدـ جـئـنـاـ بـالـقـوـلـ وـنـخـشـيـ أـنـ نـكـونـ فـرـطـنـاـ فـيـ الـعـمـلـ فـيـعـجـبـنـيـ

أن يستثنى في الإيمان يقول أنا مؤمن ان شاء الله . يقول السفاريني ومثل هذا كثير في
كلام الإمام أحمد رضي الله عنه وفي كلام امثاله من أئمة السلف .

يقول السفاريني : وقد كان الإمام أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال
الرجل لغيره أؤمن أنت و يكرهون الجواب لأن هذه بدعة أحدثتها المرجئة قال الخلال
أخبرني أحمد بن أصرم المزني أن أبا عبد الله قيل له اذا سألكي الرجل فقال أؤمن أنت ؟
قال قل له سؤالك إياتي بدعة ولاأشك في إيماني .

يقول السفاريني : فعلم أن الإمام أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في
وجود ما في القلوب من الإيمان و يجعلون الاستثناء عائدا إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل
المأمور وهذا شبيه بما نقلنا عن الحسن البصري .

قال ابن كثير قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي
حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا ابن هبيرة عن خالد ابن يزيد السكري
عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن الجهم عن الحارث بن مالك الانصاري أنه مرض رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال له كيف أصبحت يا حارث ؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً ،
قال انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن
الدنيا فأسهرت ليلي واظمأت نهاري ، وكأني انظر إلى عرش رب بي بارزاً وكأني انظر إلى
أهل الجنة يتذمرون فيها وكأني انظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال «يا حارث عرفت
فالزم » ثلاثة (١) .

(١) : ذكر ابن كثير الحديث السابق ولم يعلق عليه بشيء وقد ذكره السيد رشيد رضا في تفسيره وقال :
رواوه الطبراني بسند ضعيف يوثق للعبرة .

واما رجال السنن السابق فأوهم محمد بن عبد الله الحضرمي وقد ترجم له الذهبي في تذكرة الحفاظ
وقال كان من اوعية العلم وسئل عنه الدارقطني فقال ثقة جبل وهو شيخ الطبراني الحافظ الإمام العلامة
الحججه .

وابو كريب هو محمد بن العلاء بن كريب قال الحافظ ابن حجر ثقة حافظ روى له اصحاب
الكتب الستة وزيد بن الحباب قال الحافظ ابن حجر صدوق يخطئه روى له مسلم واصحاب الكتب
الأربعة وعبد الله بن هبيرة صدوق خلط بعد احتراق كتبه وسعيد بن أبي هلال يقول ابن حجر فيه
صدق لم ار لابن حزم في تضييفه سلفا الا ان الساجي حكى عن احد انه اخْتَلَطَ وقد روى له اصحاب
الكتب الستة و محمد بن أبي الجهم ترجم له الحافظ ابن حجر في الاصابة فقال : قال ابن عبد البر ولد في

قال تعالى «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم»

عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن حجر : وذكره ابن سعد في الطبقية الاولى من اهل المدينة . وعلى هذا ف الرجال السند السابق فيهم ثلاثة ضعفاء او لهم زيد بن الحباب قال فيه ابن حجر صدوق يخاطئ ولكنه على ضعفه من رجال مسلم والثاني ابن هبعة وهو على ضعفه من رجال مسلم ايضا والثالث سعيد ابن ابي هلال وقد روى له اصحاب الكتب الستة ونتيجة هذا ان ضعف الاسناد محتمل فلو وجد له سند آخر في قوته لغضبه وانتقل الحديث بذلك من مرتبة الضعيف الى مرتبة الحسن لغيره .

وقد اورد الحديث صاحب مجمع الزوائد وقال فيه رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن هبعة وفيه من يحتاج الى الكشف عنه وهذا يعني عدم اطمئنانه الى رجال السند ثم يرويه عن انس بن مالك ويقول

رواہ البزار وفیه یوسف بن عطیة لا یحتاج به .

وقد اورد الحديث ابن حجر في الاصابة في ترجمة الحارث بن مالك قال روى حديثه ابن المبارك في الزهد عن معمر عن صالح بن مسمار ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يا حارث بن مالك كيف اصبحت ثم قال ابن حجر وهو مفضل ومعمر هو ابن راشد الأزردي ثقة ثبت فاضل وقد روى له اصحاب الكتب الستة وصالح بن مسمار يقول عنه ابن حجر بصرى سكن الجزيرة ، مقبول قديم من السابعة ومعنى كونه من السابعة انه من اتباع التابعين في بيته وبين الرسول عليه الصلاة والسلام تابعي وصاحبى ولذلك سمي ابن حجر الحديث مفضلا وكونه مفضلا لا يجعله صالح لتقوية السند الأول .

قال ابن حجر : وكذا اخرج عبد الرزاق عن معمر عن صالح بن مسمار وجعفر بن بردان ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للحارث : الحديث موجعرين بردان صدوق بهم وهو من السابعة فالاسناد مفضلا ايضا .

يقول بن حجر وجاء الحديث موصولا من طريق اخرجه الطبراني من طريق سعيد بن ابي هلال عن محمد بن الجهم وابن منه من طريق سليمان بن سعيد عن الربع بن لوط كلها يعني محمد بن الجهم والربع بن لوط عن الحارث بن مالك ورواه البيهقي في الشعب ثم قال هذا منكر وقد خطط فيه يوسف بن عطية وهو ضعيف جدا . قال ابن حجر في آخر ما روى قال ابن صاعد وهذا الحديث لا يثبت موصولا . والحديث اورده ابن ابي شيبة في كتاب الامان باسنادين احدهما ضعيف مرسل والثانية مفضلا (كتاب الامان لابن ابي شيبة تحقيق ناصر الدين الالباني ص ٣٨) .

فديقول قائل اذا كان الحديث ضعيفا فلم ذكره وفيه العناه الكبير في سرد روایاته والجواب ان مفسريين . اشيرين لدى ذكرها الحديث السابق ولم يعلقا عليه بشيء اولها ابن كثير رحمه الله والثاني سيد قطب عليه رحمة الله فكان غرضي ان ابذل جهدي القاصر في معرفة درجة الحديث ذلك لأنني اذهب ان للأحاديث الضعيفة والتي لا اصل لها اثرا سينا في نفوس المسلمين وفي سلوك المسلمين ولأنها كانت عاملة من العوامل في اخراج المسلمين عما كان عليه رسول الله واصحابه والسلف الصالحة .

قال عطاء^(١) درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم والرزرق الكريم ما أعد لهم فيها وعن مجاهد^(٢) الدرجات هي الأعمال الرفيعة وقال الصحاح أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق ، فضله على الذي هو أسفل منه ولا يرى الأسفل فضل أحد عليه .

فالدرجات هي المنازل والمقامات العالية في الجنة وهي منازل الخير والكرامة يكرم الله بها عباده المتقين ، وهذه المنازل لهم عند ربهم فأي تشريف وتكرم أكبر من تشريف من كانت له منزلة عند ربه وأي رحمة يدركها من له مقام عند ربه .

وقد ذكر في الآية الكريمة أن الدرجات لهم ، للمؤمنين الذين وصفوا بما وصفوا به وذكر أن هذه الدرجات عند رب جل شأنه وكوتها عند الله تشريف لها وتعظيم لأمرها وأنها منازل وراء وصف الواصفين ولدرك المدركين لا يستطيع أن يعرفها إلا من حل بها وذكر بعد كل هذا أن رب ربيم جل شأنه فهو يخصهم بفضله وينعم عليهم وده ومحبته وكرمه .

قال الإمام تقى الدين بن تيمية رحمه الله^(٣) :

واولياء الله على طبقتين سابقون مقربون وأبرار اصحاب ميّن مقتضدون ، ذكرهم الله سبحانه في عدة مواضع من كتابه في أول الواقعه وآخرها وفي سورة الانسان والمطففين وفي سورة فاطر فانه سبحانه ذُكر في الواقعه القيمة الكبرى في أواها وذكر القيمة الصغرى في آخرها (يعنى بالقيمة الكبرى عليه رحمة الله القيمة عند فناء الدنيا وبالصغرى موت الانسان في دار الدنيا) . قال تعالى في اوها :

(وكنت ازواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشائمة ما اصحاب المشائمة والسابقون السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم ثلاثة من الاولين وقليل من الآخرين)

وهذا تقسم للناس إذا قامت القيمة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين وصف في كتابه في غير موضع وقال تعالى في آخر السورة : فلولا (أي فهلا) اذا بلغت الحلقه وانت حينئذ تنظرؤن ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا ان كنتم غير

(١) ابن الجوزي ج ٣ ص ٣٢١

(٢) صديق حسن خان ج ٤ ص ٧ (فتح البيان)

(٣) في كتاب الفرقان (ص ٢٥ منشورات المكتب الاسلامي بدمشق)

مديين ترجعونها ان كنتم صادقين فاما إن كان من المقربين فروح ورحان وجنة نعيم وأما
إن كان من اصحاب اليدين فسلام لك من اصحاب اليدين

وقال تعالى في سورة الانسان :

ان الأبرار يشربون من كأس مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها
تفجيرا.

وقال تعالى في سورة المطففين :

يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم
عينا يشرب بها المقربون.

يقول ابن تيمية : فعن ابن عباس وغيره من السلف قالوا مزاج لاصحاب اليدين مزجا
ويشرب بها المقربون صرفا وهو كما قالوا فإنه قال تعالى يشرب بها المقربون ولم يقل منها
لأنه ضمن قوله يشرب معنى يروي فإن الشارب قد يروي وقد لا يروي فإذا قيل يشرب
فيها لم يدل على الري وإذا قال يشرب بها كان المعنى يروون بها فلا يحتاجون معها إلى ما
هو دونها فلهذا شربوها صرفا بخلاف اصحاب اليدين فانها مزجت لهم مزجا .

فأولئك الله تعالى على نوعين مقربون واصحاب عين كما تقدم وقد ذكر النبي صلى
الله عليه وسلم عمل القسمين في حديث الأولئك فقال : يقول الله تعالى : « من عادي
لي ولها فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال
عبدني يتقارب إلى التوافق حتى أحبه فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره
الذي يصربه ويده التي يطش بها ، ورجله التي يمشي بها »

وأما السابقون المقربون فتقربيا إليه بالتوافق بعد الفرائض ففعلوا الواجبات
والمستحبات وتركوا الحرمات والمكريات فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من
محبوباتهم أحبهم رب حبا تماماً كما قال تعالى (حتى أحبه) يعني الحب المطلق كقوله
تعالى (صراط الذين انعمت عليهم) أى الإنعام التام المطلق .

وهؤلاء المقربون صارت المباحثات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله عزوجل
فكانت أعمالهم كلها عبادات الله فشربوا صرفا كما عملوا صرفا والمقتصدون كان في
اعمالهم ما فعلوه لنفسهم فلا يعاقبون ولا يثابون عليه فلم يشربوا صرفا بل مزج لهم من

شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا .

ونظير هذا انقسام الانبياء الى عبد رسول ونبي ملك وقد خير الله سبحانه وسمى صلى الله عليه وسلم بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكوننبياً ملكاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً ، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما قال الله تعالى في قصة سليمان (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) .

الى ان يقول تعالى (هذا عطاونا فامن أو امسك بغير حساب) أي اعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه ويتصرف في الولاية والمال بما يحب ويختار من غير اثم عليه .

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء بل يعطي من أمره رب بعطائه ويولي من أمره رب بتوليته فأعماله كلها عبادات الله تعالى كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «أني والله لا اعطي احداً ولا امنع احداً إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت» .

والمقصود ان العبد الرسول افضل من النبي الملك كما ان ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام افضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام كما أن المقربين السابقين افضل من الأبرار اصحاب العين .

قال تعالى : «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات واكبر تفضيلاً» (الاسراء : ٢١)

وقال تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلام الله ورفع بعضهم درجات وأتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »

ويقول ابن القيم (١) : أهل الإخلاص للمعبد واهل المتابعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام هم أهل (اياك نعبد) حقيقة اعمالهم كلها لله وقوائم لله وعطائهم لله ومنعهم لله وحبهم لله وبغضهم لله ومعاملتهم في الظاهر والباطن لوجه الله لا يریدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا ولا ابتغاء لجاه ولا طلبًا لمحمة او منزلة في قلوبهم ولا هرباً من ذمهم . فالناس لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فمن عرف الناس

(١) في مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك تستعين ج ١ - ص ٨٣

أنزلم منازلهم . ومن عرف الله أخلص له اعماله واقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلّا بجهله بالله وجهمه بالخلق . وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم .

وكلام الشيوخين فيما أفهم ينصب على معنى واحد وينزع مزعاً واحداً ولكنني أحسب أن كلام شيخ الإسلام أوجز وأعمق وهو يدل فيها أرى على أن المعنى الذي يعبر عنه قد مازج قلبه .

والذي أفهم من كلام الشيوخين استيلاء حب الله جل شأنه على قلب العبد المؤمن فهناك من عباده من ملأ حبه قلبه حتى كان ملء سمعه ومملوء بصره وكان يقيمه ويقعده ويتربّد مع انفاسه ويختالج خطراته ومثل هذا في كل حركة وفي كل سكونه وفي كل تغلب يكون دافعه مرضاه الله وغايته القرب من الله وهو بين البداية والنهاية والغدو والروح متلى القلب حضوراً وأنساً وطمأنينة وسكينة ومثل هذا اعماله كلها عبادات وهو يشرب صرفاً كما عمل صرفاً .

وهذا الذي يغلب على قلبه تعظيم الله جل شأنه وتقديره يتصرف بأنواع من الصفات فيكون محبّاً لله جل شأنه متبتلاً إليه متوكلاً عليه معرضًا عما سواه زاهداً بكل ما يحب الناس ويعشقون

يقول ابن القيم ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الإخبارات قال تعالى (وبشر المحبتين) ثم كشف تعالى عن معناهم فقال (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون) وقال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

يقول ابن القيم : والإخبارات يدور معناه على أمرين التواضع والسكون إلى الله عز وجل ولذلك عُذري بإلي تضميناً لمعنى الطمأنينة والإنانة والسكون إلى الله يقول الإخبارات في أول مقامات الطمأنينة والسكينة واليقين والثقة بالله ونحوها كل هذه الإخبارات مقدمتها ومبدؤها .

وهو أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد الذي هو نوع من الغفلة والإعراض .
ويشبه ابن القيم الإخبارات بالماء العذب فإذا ورد السائر ماء عذباً زال عنه التردد

واندفع خاطر الرجوع وكذلك السالك اذا ورد مورد الاختبات تخلص من التردد والرجوع ونزل أول منازلطمأنينة بسفره وجأ في السير.

يقول عليه رحمة الله : السالك تعرض له غفلة عن مراده تضعف ارادته وشهوة تعارض ارادته فتصده عن مراده ويعرض له رجوع عن مراده وسلوة عنه والدرجة الأولى من الاختبات تحيي عن هذه الثلاثة اما في الدرجة الثانية فلا ينقض ارادته سبب ولا يوحش قلبه عارض ولا يقطع الطريق عليه فتنه وفي الدرجة الثالثة يستوي عنده المدح والذم وتedom لافتة لنفسه ويعمى عن نقصان الخلق عن درجته .

وهكذا يفسر ابن القيم الاختبات بأنه طمأنينة الى الله وثقة بما عنده فإذا وجد المؤمن حلاوة هذا المعنى في قلبه مضى في جهاده في سبيل الله موقنا بنصره واثقاً بعونه ومن اتصف بهذا زهد في الدنيا ومدلاتها ورغب عن اللغو وأنواعه وانقطع الى الله وتبتل اليه .

يقول ابن القيم ومن (منازل اياك نعبد واياك نستعين) الزهد ومن احسن ما قيل في الزهد كلام الحسن او غيره (ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا اضاعة المال ولكن ان تكون بما في يد الله او ثق منك بما في يدك وان تكون في ثواب المصيبة — اذا اصبت بها — أرحب منك فيها ل ولم تصبك) وهذا من اجمع كلام في الزهد واحسنه وقد روی مرفوعا .

قال ابن القيم ومن منازل (اياك نعبد واياك نستعين) منزلة الورع وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في كلمة واحدة فقال (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) .

وهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكروسائل الحركات الظاهرة والباطنة وهذه الكلمة كافية شافية في الورع .

يقول : ومن منازل (اياك نعبد واياك نستعين) منزلة التبتل قال تعالى «واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتلا» والتبتل الانقطاع الى الله بالكلية قال تعالى (له دعوة الحق) فهو أهل لأن يعبد وحده ويدعى وحده ويقصد ويشكر ويحمد ويحب ويرجي ويخاف ويتوكل عليه ويستعان به ويستجراه ويلجأ اليه ويصمد اليه فتكون حينئذ الدعوة

الإلهية الحق له وحده .

قال تعالى : « كُمَا أَخْرَجْتَ رَبَّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَانْفَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِكَارهُونَ يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كُلُّاً مَا يَسْأَقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظَرُونَ »

افتتحت السورة الكريمة بذكر الأنفال وما وقع من سؤال بعض الأصحاب بشأنها وكانت هذه المسألة الأولى موضوع الساعة ومنطلق الآيات الكريمة ومبتدئها وكان الموضوع الثاني ما وقع من تردد بعض الأصحاب في مواجهة القوة الغاشمة قسوة قريش وجيشه العاتي .

وقد عقدت الآيات الكريمة شبهًا بين الموضوعين وجعلت الموضوع الأول ممهدا للموضوع الثاني وسطت بينهما كاف التشبيه واعلنت أن الشأن في سؤال بعض الأصحاب من الأنفال وما وقع مما قد يؤدي إلى صدع في وحدة الجماعة شبهة بحال المسلمين حين دعوا إلى مقابلة إحدى الطائفتين فكان من بعض المسلمين شيء من التردد في الاستجابة .

يا رسول الله امض لما اراك الله

قال ابن اسحاق : وأتاه الخبر عليه الصلاة والسلام عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال « يا رسول الله امض لما اراك الله فتحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى « اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب انت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لوسرت بنا الى برك الغمام (موقع بناحية اليمن) بحال الدنيا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علي ايها الناس . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريديننا يا رسول الله قال أجل . قال : آمنا بك وصدقناك وشهادنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيتك على ذلك

عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي
بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لفضناه معك ، ما تختلف منا رجل واحد
وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنما لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما
تقر به عينك فسيرينا على بركة الله فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بسعد ونشطه
ذلك .

ثم قالوا سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر
إلى مصارع القوم .

قال ابن حجر :^(١)

وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي أيوب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ونحن بالمدينة : إني أخبرت عن عير أبي سفيان فهل لكم أن تخرجوا إليها لعل الله
يغنمها ؟ قلنا نعم ، فخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال « قد أخبروا خبرنا فاستعدوا
للقتال » فقلنا « والله ما لنا طاقة بقتال القوم » فاعاده فقال له المقداد « لا نقول لك كما
قالت بنو اسرائيل لموسى ولكن نقول أنا معكم مقاتلون » قال فتمنينا عشرة الأنصار لو أنها
قلنا كما قال المقداد فأنزل الله تعالى « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من
المؤمنين لكارهون »

واخرج الحديث بلفظه عن أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه صاحب جمع
الزوائد^(٢) ثم قال رواه الطبراني واسناده حسن .

وروى البخاري في صحيحه عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول
شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلى ما عدل به (يعني أن
يكون صاحبه أحب إليه من كل أمر يوضع في مقابل ذلك المشهد) اتي النبي صلى الله
عليه وسلم وهو يدعى على المشركين فقال لا نقول لك كما قال موسى (اذهب انت وربك
فقاتلوا ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله
عليه وسلم أشرق وجهه وسره يعني قوله) .

(١) : في الفتح ص ٨٨ ج ١ (٢) : ج ٦ ص ٧٣

معالجة الموقف

عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف معاجلة حكيمة بارعة : كان في بعض نفوس أهل بدر شيء من التردد وكثير من الخدر وخوف من مواجهة العدو صورته الآيات الكريمة تصوّراً بارزاً للعيان .

اما الطريقة التي سلكها عليه صلوات الله وسلامه فهي نداء النفوس القوية الملتهبة ايقاناً المتقدة حاسة لتأخذ بأيدي النفوس الخذلة المترددة .

كان في إقدام الرسول عليه الصلاة والسلام على مناجزة المشركين نوع من المغامرة ذلك أن المشركين متّأهبون تأهباً تاماً وهم يفوقون المسلمين في عددهم وسلاحهم وفرسانهم ولم يكن لدى المسلمين إلا فارسان وكيف يقف الرجل امام الفرسان في ميدان القتال ؟ وكان خروج المسلمين للقاء نيف وأربعين رجلاً يحملون القافله فإذا هم يفاجئون بالدعوة لمقابلة ألف مقاتل من صناديد قريش وأبطالهم .

مغامرة في سبيل الله منظمة

هذه المفاجأة وحدها كافية لتشييط عزائم كثيرين ولدخول الروع في قلوبهم وابلغ وصف ما جاء في كتاب الله قوله تعالى (كاغما يساقون الى الموت وهو ينظرون) ولم يكن هؤلاء الذين داخلهم الروع بدعاً من الناس ولكن الذين يتشرفون بالرسالة لا بد من أن يأتوا بما يشبه المعجزات ولقد كانت موقعة بدر محفوفة بالأمور الخارقة .

قلنا انه كان في عزم رسول الله عليه صلوات الله وسلامه على القتال نوع من المغامرة لأن منطق القتال لا يسمح بوقوف ثلاثة لم يخرجوا لقتال امام الف قد أعدوا العدة كاملة .

ولكتها مغامرة في سبيل الله وفي سبيل الدعوة قدر فيها جانب تدخل القدرة التي لا تعجزها قدرة وحسب فيها مقابلة الاعيان للكفر وقد قال تباركت أسماؤه بهذا الشأن «وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون» وهذه الآية الكريمة نزلت على أثر الغزو ترفع معنوية المؤمنين وترشد الى حقيقة هامة وأروع ما في الآية وكل ما فيها رائع ، تعليلها ضعف المشركين أمام المؤمنين بأنهم قوم لا يفقهون .

إنها مغامرة وشجاعة واقدام. ورسول الله كان موقفنا فيها بأن الله معه والغلبة له وبخته وكان يعلم أن اسباب النصر الى جانبها : وحدة صف المؤمنين وتكتل وحدة المشركين وإقدام المؤمنين وتردد أولئك .

لقد تردد المؤمنون ترددًا يسيراً ولكن قيادة الرسول عليه صلوات الله وسلامه انتهت بهم عاجلاً الى كلمة حاسمة وعزمية ماضية ، وانتهى المسلمين جميعاً الى الارباط برسول الله وامثال أمره حتى كانوا جميعاً يتحركون بأمره ويسكنون بأمره كانوا ثلاثة عشرة رجل يمليون ميلة رجل واحد وينصبون على العدو على قلب رجل واحد .

لقد ذهب الخدر وغشي المؤمنين غاشية من الأمانة والطمأنينة وكانت روحهم المعنوية عالية قوية بالغة أقصى درجات القوة وكان المشركون جماعات متخاذلة وقيادات متنازعة .

أيقن رسول الله ان الفتة القليلة هي الغالية ياذن الله وعلم ان الثلاثة الحفاة العراة الجياع اقوى بوحدتهم واجتماع كلمتهم من الألف المستكبر بين المتخاذلين وقد علم ايضاً بما علمه الله أن الله ناصره على احدى الطائفتين وقد نجت العبرة واصبح المسلمون وجهاً لوجه أمام التغير والله جل شأنه منجز وعده وناصر عبده .

كان لابد من علاج موقف المترددين وجمع القلوب وشحنها جميعاً بشحنة اليمان وشحنة الإقدام . وعرض عليه الصلاة والسلام الموضوع عرضاً حيادياً كما صورته رواية أبي أيوب الأنباري روى الحافظ أبو بكر بن مردوه في تفسيره بإسناده عن أبي أيوب الأنباري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة: إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة فهل لكم أن تخرجوا قبل هذه العبرة لعل الله أن يغنمها فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: ما ترون في قتال القوم إنهم قد أخبروا بخروجكم فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكننا أردنا العبرة ثم قال ما ترون في قتال القوم فقلنا مثل ذلك .

وهذه المراجعة من رسول الله عليه صلوات الله تنبئ في الوقت نفسه عن خطته عليه صلوات الله إذ يستخرج ما في نفوس بعض القوم من تردد وحذر ليذهب بما يجدون من خوف من لقاء العدو .

كانت المراجعة وكان بين رسول الله وبين أصحابه ما وصفته الآيات الكريمة قال تعالى : « يجادلونك في الحق بعد ما تبين » لقد بلغ الأمر حد الجدال اذن قال ابن كثير : قالوا أخرجتنا للغير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له وقال الشوكاني : وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأنّدنا العدة وأكمّلنا الأهبة وذكرت الآيات الكريمة بأن جدالهم كان في أمر يَبْيَنُ لَا شبهة فيه وإنما يعذر المرء في أن يجادل في أمر له فيه شبهة حقيقة أما إن يجادل في أمر واضح وضيق النهار فليس عليه في ذلك إلا اللوم ولقد كان جدالهم في موضع القتال ومواجهه المشركين وسميت الآيات الكريمة الجدال في هذا الموضوع جدالا في الحق وهو حق لأن رسول صلى الله عليه وسلم أمر به وأي شيء اجدر بأن يسمى حقا من أمر رسول الله المؤيد بوعي الله ونصره وقد اخبرهم عليه صلوات الله وسلامه بأن الله قد وعده إحدى الطائفتين وقد نجت الأولى فلم تبق إلا الثانية فموضوع القتال الذي يجادلون فيه حق لأنّه أمر رسول الله وهو حق قد تبين واتضح لأنّ الوحي قد وعد فيه بالنصر .

ولقد نطق بهذا الحق في مقابلة ذلك الجدال أبو بكر ثم عمر ثم المقداد بن عمرو وكانت كلامة المقداد فيها شحنة الاعيان وشحنة الاقدام وقد حفظتها الأجيال وسجلتها الصحف وقد رواها البخاري في صحيحه وفيها تلميح بذلك الذين يقعدون عن نصرة الأنبياء وكان فيها تقرير لليهود مستمد من كتاب الله وفيها تحذير للمؤمنين الذين جادلوا في الحق أن يكونوا امثالهم « إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى اذهب انت وربك فقاتلاانا ه هنا قاعدون » وهكذا كان لآيات الكتاب تأثيرها المرجو في نفس المقداد رضي الله عنه وكان فهمه للموقف فهما صحيحا دقيقا وقد كانت كلمته التي ألقاها في قلوب الذين جادلوا من أصحاب رسول الله كلمة الإيقاظ والتنبيه ففتحت عيونهم وشرحـت صدورهم للحق وبصرتهم بالموقف تبصرة حقيقة وزرعت ما في قلوبهم من خوف أملأه غفلتهم عن مكانـتهم وأنهم أصحاب سيد رسول الله وصفوة عباد الله يذلون دماءـهم رخيصة في سبيل دعوه الله .

ترى ماذا كان موقف المجادلين بعد أن سمعوا آية الإنذار تلك الآية التي تشـنـع علىبني اسرائيل موقفـهم اقبح تشـنـيع (اذهب انت وربك فقاتلاانا ه هنا قاعدون) انـها صورة الذين جرـهم الجبن الى الخلود الى الأرض واللصوق بكل درجات الذل والهوان ، فهل يرضـى أصحاب رسول الله بمثلـها ، وان كانوا يـعدون للأمر عـدـته فالـأمر الآن قد خـرـجـ من

أيديهم وأصبح بيد القدر وليس أمام الأصحاب إلا أمران إما الاقدام ومناجزة المشركين
واما الرجوع وهو فرار من مقابلتهم وقد وعدهم الله احدى الطائفتين ففي التردد اذن .
كان عليه الصلاة والسلام يقول (اشروا على ايها الناس) يعيدها مرة بعد مرّة
ويتكلّم أبو بكر ثم عمر ثم المقداد وكل هذه الكلمات تملأ جو الجماعة اهل بدرا شجاعة
وإيمانا واقداما وتذهب التردد وتقطع دابر الاحجام وكان هذه الكلمات اثر كبير ولكن
الجو ما يزال بحاجة الى شحنة اخيرة ينطلق بها سيد من الانصار لأن الذين سبقو كلهم
من المهاجرين .

ويقوم سيد الانصار وهو يرى انه مدعوم من قبل رسول الله عليه صلوات الله ليقول
كلمة الحق وللينطق بالقول الفصل الذي يثبت القلوب في اماكنها ويشير سيد
الأوس (سعد بن معاذ) الى قضية الامان والي بيعة الموت والي العهود والمواثيق (آمنا بك
وصدقناك واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فامض لما امرك الله) .
مؤتمر البدريين

انه لمؤتمر عظيم مؤتمر البدريين تحت قيادة رسول الله ذلك المؤتمر الذي انبثق عنه يوم
الفرقان يلحظ فيه ما يلي :

- ١ - عزيمة رسول الله عليه صلوات الله على المضي لقتال المشركين بعد ان نجت العبر
وجمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .
- ٢ - تردد فريق من المؤمنين حين جبهوا بفاجأة لم يعدوا لها عدتها ، و يتغير للموقف
خطير ينقلب فيه الأمر من مواجهة غير يحميها (٤٣) رجلا الى مواجهة جيش فيه ألف
مقاتل من صناديد الرجال .
- ٣ - لم يكن هذا الفريق ليدرك ما ادرك القائد عليه صلوات الله وسلامه من قوة
الإيمان وضعف الباطل وأهله وتفرق صفوفهم وتخاذل افرادهم ، وكانوا جديرين بأن يمروا
بتجربة كهذه التجربة وقد مرروا بها ورأوا بأم اعينهم قوة الامان ومعونة الله .
- ٤ - كان في الجماعة فريقان فريق يتبعون رسول الله ولو سار بهم في لجح الموت
وفريق متربدون قليلا وكانت حكمة القائد عليه صلوات الله في تغلب الجانب الأول
على الجانب الثاني وتصحيح موقف الجانب الثاني .

٥ — وقد تم ذلك كله بكلمة واحدة كان يرددوها عليه الصلاة والسلام (اشيروا على ايها الناس) وهي تنتطوي على ما يريد ايجاد جو تغلب فيه روح الامان ويشيع في جنباته عبير الإقدام ، ولقد تم له ما يريد عليه صلوات الله وسلامه بمنتهى الأناة والحكمة فكانت الكلمة (اشيروا) تنقل المسلمين في كل مرة درجة بعد درجة . تكلم ابو بكر فكانت النقلة الأولى والثانية عند الكلمة المقداد والثالثة عند الكلمة المقاد والرابعة خاتم المطاف انتهت الى الذروة في رد الذين جادلوا الى جو الجماعة .

٦ — نقد كان مؤتمرا من نوع المؤتمرات التي تقرر المصير والتي يقف فيها المؤتمرون على مفترق الطريق ، ولو كانت الغلبة للذين جادلوا لتعثرت الدعوة ايا تعثروا بما كان مع الذين جادلوا تصيب كبير من الحق كيف يقاتلون على غير استعداد وأهبة تامة؟ ولو كانت الغلبة على العبر لما كان ذاك اليوم يوم الفرقان الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل فأعلى الكلمة الحق ومحق الكلمة الباطل .

٧ — جديرين بال المسلمين أن يتعظوا بمثل هذا المؤتمر وأن لا يدركهم الخور في الساعات الخامسة وكم من موقف في أيامنا هذه يسيطر الجبن فيها على المؤمنين فيتغلب أعداء الله ...

٨ — ولكن السبيل التي نهجها رسول الله عليه صلوات الله كانت سبيلا رائعة .
كان عليه صلوات الله بجلاله وهدوئه وأناته واهتمامه وتفكيره الجدي العميق لا يزد على الكلمة « اشيروا على ايتها الناس » يدفع فيها رؤوس أصحابه ليقرروا القلوب في مواضعها .

وكان جدال الذين جادلوا موجها الى رسول الله ولم يكن جدالا بين الاصحاب أنفسهم ومعنى ذلك ان الزمام كله بيده عليه صلوات الله وحين يدع افراد الجماعة القائد ويتنازعون فيما بينهم فذلك ضعف تربية روح الجماعة وضعف الارتباط بالقيادة . كان الزمام بيد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كله ولم يجب عن جدل الذين جادلوا بشيء ولكنه أغضى عنه عليه صلوات الله واغضاعته هذه ذات معانٍ : إن الاجابة على الجدل والأخذ والرد في موضوعه تزيده قوة وتشيّتا تزيد معناه رسوخا في القلوب وتكتسب قضيته تأييداً

ولكن إجابة هؤلاء تولاها أفراد آخرون في الجماعة لهم ميزاتهم في الرئاسة والشجاعة وكانت اجابة هؤلاء منطلقة من دعوة رسول الله باسم الشورى وكانت الإجابة مؤيدة بحجج دافعة لا تدع مكاناً لقول قائد وكانت اجابة حاسمة موجهة إلى الأفراد جميعاً وهكذا سكنت السنة الذين جادلوا عن رضى واقتناع وفتحت قلوبهم للحق فاذعنوا له وساروا حين أعطى القائد أمره الأخير ملخصاً كل ما تم في المؤتمر بكلمة واحدة «سيراً وابشروا» والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم.

عالج الموقف عليه الصلاة والسلام في الميدان معالجة رحيمة حكيمه ناجحة وساق المؤمنين جميعاً وقلوبهم موحدة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وسار المؤمنون إلى ميدان القتال وقد انتهى الجدال وختم النزاع وكلهم يطلب الموت كما تطلب الحياة وكان يظن أن المسألة قد انتهت في ميدان القتال .

ولكن الآيات الكريمة تتنزل على أثر القتال بدر وسها وعظاتها تصور الموقف بكلمات تصويراً حياً ناطقاً «وان فرِيقاً من المؤمنين لکارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين کأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون» .

وتسجل الآيات الكريمة الموقف كله آتية على خلجان القلوب ودخول النفوس ليظل كل هذا عبرة للمؤمنين حتى يقوم الناس لرب العالمين لقد كان أصحاب رسول الله نماذج حملة الدعوة والأمثلة الرفيعة للجهاد في سبيل الرسالة وكان جديراً بمواففهم أن تظل خالدة يعيد النظر فيها المؤمنون ويتعظون بها ويقتدون .

كانت الآيات الكريمة درساً للأصحاب انفسهم بعد الدرس العملي تشرح خطواته وتبيّن من حيثياته وتلقي الأضواء على زواياه ومتعرجاته وتوضح النقاط الهامة التي تظل نبراساً للأصحاب ولمن جاء من بعدهم ما دامت السموات والأرض .

وحدة صف المؤمنين بعد المؤتمر

كانت الكلمة التي ختم بها رسول الله عليه صلوات الله المؤتمر الذي سبق بدرًا . «سيراً وابشروا والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» فسار الأصحاب ممثلي امر رسول الله قد ذهب عنهم ما ألم ببعضهم من تردد يسير حين علموا أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم المير إلى الأعداء فساروا وقلوبهم مجتمعة وعزائمهم ماضية .

اما المشركون فقد كانوا فرقاً شتى مختلفة الآراء متنازعة الأهواء أما أبو سفيان فقد أرسل إلى قريش إنكم خرجمتم لتنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا وليس من شك أنه كان لهذا القول أثر كبير في نفوس كثيرين وكان أبو جهل معارض في الرجوع وقد قال : والله لا نرجع أبداً حتى نرد بدوا فنقيم عليه ثلاثة فتنحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان (الجواري) وتسمع بنا العرب ويسيرنا وجعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا .

واما الأحنس بن شريق وكان حليفاً لبني زهرة فقد قال لهم : يا بني زهرة قد نجى الله اموالكم وخالص لكم صاحبكم محرمة بن نوفل ، واما نفترم لتنعوا وماله فاجعلوا لي جيشهما وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا يعني ابا جهل فرجعوا فلم يشهدها زهيри واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً .

واما عتبة بن ربيعة فكان رأيه الرجوع وقد رأه رسول الله عليه صلوات الله في القوم على جهل له أخر فقال ان يكن في احد من القوم خيراً فعنده صاحب الجمل الآخر إن يطيعوه يرشدوا وذكر ابن اسحاق أنه قام خطيباً فقال : يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر اليه قتل ابن عممه او ابن خاله او رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فان أصابوه فذاك الذي اردمتم وان كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون وأرسل بذلك حكيم بن حزام الى ابي جهل فأخبره فقال والله ما بعثة ما قال ولكن رأى ان محمداً واصحابه أكلة جزور وفيهم ابنة فتخوفكم عليه ثم افسد على الناس رأى عتبة وبعث الى عامر الحضرمي فقال هذا حليفك يريد الرجوع الناس وقد رأيت ثأرك بعينيك فقم فانشد مقتل أخيك فقام عامر فصرخ واعتبر فحميت الحرب وتعبا للقتال والشيطان معهم لا يفارقهم .

وكان الذي حل عتبة على ما فعل حكيم بن حزام يقول ابن اسحاق لما اطمأن القوم (يعني المشركين) ، بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا احذروا لنا اصحاب محمد ، فاستجمال بفرسه حول المعسكر ثم رجع اليهم فقال ثلاثة رجال يزيدون قليلاً أو ينقصون ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمین أو مدد ؟ قال فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير

شيئاً فرجع اليهم فقال ما وجدت شيئاً ولكنني قد رأيت يامعشر قريش البلايا^(١) تحمل المنيا نواضح يشرب^(٢) تحمل الموت الناقع قوم ليس معهم منعة ولا ملجاً إلا سيفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم . فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة ابن ربيعة فقال يا بني الوليد إنك كثيرون قريش وسيدة المطاع فيها هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر : قال وما ذاك يا حكيم ؟ قال ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت ، أنت على بذلك إنما هو حليف فعلي عقله وما أصيب من ماله فائت ابن الحنظلية (يعني ابا جهل) .

هكذا كان جيش المشركين . أبو جهل يريد المضي إلى بدر ليتسامع بقريش الناس فلا ينزلون يهابونهم ويقسم لرسول عتبة : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، أما أبو سفيان فيشير على الناس بالرجوع بعد أن سلم الله عليهم ، وأما الأئم فقد رجع بالفعل معبني زهرة وكان فيهم مطاعا ، وأما حكيم فيدعو عتبة إلى دعوة الناس للرجوع ويعتبر بذلك خيراً يذكر به عتبة إلى آخر الدهر ، وأما عتبة فيخطب الناس ويقول « فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب » .

هذا شأن قريش في نزاعهم واختلافهم ولقد كان مجتمعهم مثل المجتمع الجاهلي بأتم صفاته بخلاف في الرأي وانقسام بين الزعماء يطعن بعضهم في بعض ويسخر بعضهم من بعض وأي انقسام في الجيش أكبر من عزم بعض زعمائه على القتال منها كان الأمر ودعوة بعض الزعماء الآخرين إلى الرجوع عن القتال ، وقد كان أبو جهل يمثل زعامة الشورة العنيفة فهو ينتمي للمهاجرين المسلمين بالجن والخور وكانت تهمته هذه دافعة لعتبة ليكون مع ابنه و أخيه أو السابقين إلى ميدان القتال لدفع التهمة ومقابلة التحدي وكل ذلك يؤدي إلى موت عتبة و أخيه شيبة وابنه الوليد على الشرك بيد علي وحزنة وعيادة بن الحارث .

هكذا كان شأن المشركين أما أصحاب رسول الله عليه صلوات الله فقد كانوا بتنفس عاليه وقلوب صادقة مجتمعة على قائدتها يتغدون وجه الله ورضاءه كانوا لا يتحركون إلا

(١) : البلية : الناقة او الدابة تربط على قبر الميت ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت .

(٢) : النواضح : الابل التي يستقي عليها الماء .

بأمر رسول الله ولا يحملون إلا بأمره فإذا حلوا حلة رجل واحد قال ابن اسحاق : ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض وقد امر رسول الله عليه الصلاة والسلام أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم وقال : إن اكتيفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنيل (ارموهم) .

روحهم المعنوية عالية

وكانت الروح المعنوية للمؤمنين عالية : قال ابن اسحاق ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ افا بيني وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وهذا الحديث رواه مسلم (١) عن انس بن مالك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيسة عيناً ينظر ما صنعت غير ابي سفيان فجاء وما في البيت احد غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فحدثه الحديث قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم فقال «ان لنا طلة فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا» فجعل رجال يستأذنونه في ظهارهم في علو المدينة فقال لا إلا من كان ظهره حاضرا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه حتى سبقو المشركين الى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يقتمن احد منكم الى شيء حتى اكون انا دونه» فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قوموا الى جنة عرضها السماوات والأرض» قال يقول عمير بن الحمام الانصاري يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال نعم قال بخ بخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملك على قولك بخ بخ قال «والله يارسول الله إلا رجاءة ان اكون من اهلها قال فانك من اهلها فأنخر تمرات من قرنه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منها ثم قال لئن انا حييت حتى آكل تمراتي هذه انا حياة طويلة قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل» .

وهكذا يبين هذا الحديث بأنه لئن كان في اهل بدر اناس قالوا في اول الأمر لا طاقة لنا بقتال القوم فقد انتهى الأمر بهم بعد معالجة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه

(١) : كتاب الامارة الحديث ج ١٤٥ . ٣

للموضع أن قال قائلهم «لئن حبست حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة» فهو لم يعد يطيق صبراً عن الجنة حتى يتم تمراته التي بيده . لست استبعد أبداً أن يكون قد انقلب اناس من اهل بدر بعد المؤتمر الذي تم وبعد أن رأوا ما رأوا من صدق محمد عليه الصلاة والسلام في هجته وقادمه في عزيمته لست استبعد ان يكون قد انقلب فريق من الذين قالوا لا طاقة لنا بقتال القوم الى الحال التي كان عليها عمير رضي الله عنه وهو لا يطيق احتمال الحياة شوقا الى الجنة وان كنت لا انكر أن النقوس لا تتساوى ولكن الجلو الذي شاع والروح التي عبت في أرجاء الجماعة بفعل رسول الله عليه صلوات الله روح الشوق الى مرضاه الله تعالى جنته تعالى الاستبسال في سبيله .

روى البخاري وغيره عن عبد الرحمن بن عوف (١) قال اني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساری فتىان حدثا السن اذ قال لي احدهما سرا من صاحبه ياعم أرني ابا جهل فقلت يبا بن اخي وما تصنع به قال: عاهدت الله إن رأيته أن اقتلته أو الموت دونه فقال لي الآخر سرا مثل صاحبه فما سرني اني بين رجلين مكانهما فأشرت لها إليه فانقضى عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء معاذ ومعوذ .

وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه قتله معاذ بن عمرو بن الجموج ومعاذ بن عفراء وان النبي صلى الله عليه وسلم نظر في سيفيهما وقال كلاما قتله وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموج .

وجمع الحافظ ابن حجر بين الروايتين باحتمال أن عفراء شد عليه مع معاذ بن عمرو وضربه بعد ذلك معوذ بن عفراء حتى اثبته ثم حز رأسه ابن مسعود فتجتمع الأقوال كلها وقد سبق ابن حجر الى هذا القول فقال اشترك الثلاثة في قتله لكن ابن الجموج أثخنه فاستحق السلب وانما قال كلاما قتله تطبيبا لقلب الآخر .

وما يستأنس به في تأييد رأي التوسي وابن حجر أن ابا جهل كان الرجال يحيطون به حتى كأنه في مثل الحرجة (١) فلا يمكن في مثل هذه الحال أن يصل اليه واحد او اثنان .

(١) : شرح المواهب ج ١ ص ٤٢٨ .

(١) : هي الشجر الملتئف لا يوصل اليه .

وقد روی ابن اسحاق (٢) ومن طریقه الحاکم عن ابن عباس قال قال معاذ بن عمرو بن الجموج أخو بني سلمة سمعتهم يقولون وابو جهل في مثل الخرجه ابو جهل لا يخلص اليه فجعلته من شأنی فصمدت نحوه فلما أمكنني حلت عليه فضربه ضربة أطنت قدمه (٣) بنصف ساقه قال فوالله ما شبهتها حين طاحت الا بالنواة تطیع (٤) من تحت مرضخة النوى (٥) حين يضرب بها قال وضربني ابنته عکرمة على عاتقی فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي واجهضني (٦) القتال عنه فلقد قاتلت عامه يومي ، واني لأصحابها خلفي فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها قال ابن اسحاق ثم عاش معاذ بعد ذلك حتى كان زمان عثمان .

يقول ابن اسحاق ثم مربأبي جهل وهو عقير معاذ بن عفراه فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق ، وقاتل معاذ حتى قتل .

ومعاذ ومعاذ ابنا عفراه وهي بنت عبيد بن ثعلبة من بني مالك بن النجار يقول بشأنها ابن حجر في الاصابة في المبايعات وعفراه هذه لها خصيصة لا توجد لغيرها وهي أنها تزوجت بعد الحارث البکير فولدت له أربعة: اياسا وعاقلة وخالدا وعامرا وكلهم شهدوا بدرها وكذلك اخوتهم لأمهم بنو الحارث معاذ ومعاذ وعوف فانتظم من هذا انها امرأة صحابية لها سبعة اولاد شهدوا كلهم بدرها مع النبي صلی الله عليه وسلم ، وقد مررتنا أن معادا استشهد في بدر وكذلك عوف .

قال ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراه قال يارسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال غمسه يده في العدو حاسرا فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

قال تعالى: «وَإِذْ يَدْعُكُمُ اللَّهُ أَحَدُ الظَّانِفَتِينَ إِنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوَكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَحْقِّقَ الْحَقَّ بِكَلْمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ، لِيَحْقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» .

(٢) : السیرة النبویة ج ١ ص ٦٣٤ .

(٣) : اطارتها .

(٤) : تذهب .

(٥) : التي يدق بها النوى للعلف .

(٦) : اشتد على .

كان العتاب الأول للمؤمنين في سؤالهم عن الأنفال وكان العتاب الثاني في تردد بعض الأصحاب ، حين دعوا إلى قتال جيش لم يخرجوا للقائه ، ولم يعودوا عدة لمناجزته ، وكانت صورة العتاب هنا لا تزيد على وصف ما تم في نفوسهم قال تعالى « وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لِكَارهُونَ » وهذه الكراهية أمر يستحق العتاب ، وإن يذكر على سبيل التأنيب . ووجه العتاب فيه أنهم كرهوا أمراً وصفته الآيات الكريمة بوصفين جديرين بكل منها وحده أن يدفع المؤمن إلى الإقدام على الأمر الذي كره وهو من شرح الصدر باسم الشغف : أوهما إن الإخراج كان من قبل الله جل شأنه فلم يكن خروج محمد عليه صلوات الله وسلامه لغرض في نفسه ولكنـه كان أمراً يريده الله ويرضاه لما سيكون وراءه من اعلاء كلمة الله وإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وجاء التعبير عن لفظة الجلالة بصفة الربوبية التي تتضمن غاية العناية واقتضى درجات الرعاية واضيف لفظ رب إلى محمد عليه الصلاة والسلام ليقين أن الذي أخرجه عليه صلوات الله وسلامه ربه الذي يدبر أموره ويحيطه بلطفه ويخفه بعوایته ويكلؤه ويرعاه ويهدي قلبه ويتولى تدبیر أموره . الأمر الأول أن ربه قد أخرجه عليه صلوات الله وسلامه والأمر الثاني أن إخراجه لم يكن خطأ ولا ضلالاً ولكنـه اخراج قد خالط الحق جوانبه وامتزج بكل اجزائه .

وهكذا وصف فريق من المؤمنين بأنهم كرهوا الخروج الذي أمر الله به والذي أشرب بالحق وتلبس به وليس من شك في أن نخوة الاعيان تكاد تذيب قلب المؤمن الذي وقعت منه الكراهية ، ولا تقتصر الآية الكريمة على ذكر الكراهية ، ولكنـها تضيف إلى ذلك الجدال وهو جدال في موضوع وصفته الآيات الكريمة بأنه حق لأنـه أمر رسول الله ولأنـه حق قد تبين وما كان للمؤمنين أن يجادلوا في الحق بعد ما تبين ولكنـ الآيات الكريمة تفصح عن الدافع إلى كراهية الخروج وإلى الجدال في موضوعه أنه الخوف من الموت .

وهل لقاء العدو وقتاله إلا السوق إلى الموت ولكنـ الآية الكريمة بتعریضها وتلميحيها تشعن على الذين يمشون لقتال الأعداء وهم كأنـما يساقون إلى الموت وتطلب من المؤمن ان يمشي إلى الموت بخطا ثابتة وجأش رابط كأنـما يسير إلى لقيا أحبه .

ولم يقتصر العتاب على كلـ ما سبق ولكنـ هنالك إلى جانب كلـ هذا نقطة جديرة بالتأمل هي ضعف همة هذا الإنسان وقصور غايته اذا ترك لنفسه : لقد كان فريق من

الأصحاب يريد العبر ومجادل من أجل ذلك ولكن الله جل شأنه جمع بينهم وبين صناديد قريش على غير ميعاد واراد جل شأنه ان يواجهوا رؤوس الكفر وفراعن الشرك ليخضدوا شوكتهم ويكسرها شرهم ، واراد جل شأنه ان تنتصر الفئة القليلة التي تحمل دعوة الله علي الفئة الكثيرة التي تصد عن سبيل الله وتقف في وجه دعوته لينتصر الحق وترتفع رايته ، وليحق الله الحق بكلماته وكلمات الله امره وقضاؤه .

قال صاحب فتح البيان: المراد بالكلمات الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة ووعده جل جلاله بالظفر على ذات الشوكة وقيل الكلمات عداته التي سبق بأنه جل شأنه مظاهر دينه ناصر جنده وهكذا قال ابن الجوزي بكلماته اي بعدها التي سبقت من اعزاز الدين كقوله ليظهره على الدين كله .

يقول سيد قطب عليه رحمة الله :

«لقد اراد الله وله الفضل والمنة ان تكون ملحمة لا غنية ، وان تكون موقعة بين الحق والباطل» .

الى ان يقول : «فain ما ارادته العصبة المسلمة لنفسها ما اراده الله ؟ . لقد كانت تمضي – لو كانت لهم غير ذات الشوكة – قصة غنية ، قصة قوم أغروا على قافلة فغنموا فاما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ولكنها انتصرت على نفسها وخاضت المعركة والكافحة راجحة رجحانها ظاهرا في جانب الباطل فقلبت بيقينها ميزان الظاهر فاذا الحق راجح غالب . اهـ .

أراد فريق من المسلمين أمرا وأراد الله أمرا آخر وأين ما أراده الله مما أرادوه . أراد جل شأنه تسبیت المؤمنین واپهاب المشرکین وان تم المعجزة وتنتصر القلة على الكثرة تمہیداً لنصر دینه واعلاء کلمته كل هذه المعانی عوتب بها فريق المؤمنین عتاباً ایما مترزاً بالحجۃ البینة والأدلة القاطعة ، وسجلت هذه المعانی في كتاب الله لتظل عظة للمؤمنین أبداً الآبدین .

قال تعالى : «و يريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» .

قال ابن جرير: (ويريد الله أن يحق الإسلام ويعليه بكلماته أي بأمره ايًا كم أنها المؤمنون بقتال الكفار وأنتم تريدون الغنيمة والمال وقوله تعالى ويقطع دابر الكافرين أي يريد أن يجب أصل الجاحدين توحيد الله والدابر المتأخر وقطعه الإتيان على الجميع منهم) .

ويقول أيضاً: (ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين كما يحق الحق كما يعبد الله وحده ويعز الإسلام وذلك هو تحقيق الحق ويبطل الباطل أي يبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر ولو كره الذين أجرموا هم الكفار فاكتملوا المآثم والأذار) .

ويقول رشيد رضا: (الحق الأول هو القتال لطائفة التفیر مع ضمان النصر للمؤمنين ومحق الكافرين والحق الثاني هو الإسلام وهو المقصد والأول وسيلة له) يقول رشيد رضا: (وهذا اظهر ما قاله الزمخشري) وخلاصة ما قاله الزمخشري ما يلي: .(ليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين إرادة الله جل شأنه وإرادة المسلمين والثانية لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه) .

ولزيادة ايضاح ما سبق نقول الحق الأول هو الحق الذي يختص فيه المؤمنون والشركون فالمؤمنون يرون انهم هم اصحاب الحق واتباعه والشركون يزعمون انهم ذوو الحق وانصاره وقد ورد ان ابا جهل قال يوم بدر اللهم اينا كان اقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة وقال السدي كان الشركون حين خرجوا من مكة الى بدر اخذوا بأسوار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين واكرم الفتنين وخير القبيلتين . وقد اراد جل جلاله بأمر المؤمنين بالقتال ولقاء التفیر أن ينصر الفتنة المستضعفة فيعلم كلا الفريقين أن الله مع المؤمنين ونصر الحق في هذه الموقعة تمهد للنصر الأكبر والمفتح المبين فالحق في الأولى ما يختص فيه المؤمنون والشركون وإظهاره بغلبة المؤمنين في هذه الدائرة الضيقة والحق في الثانية إظهار الحق في الدنيا بأسرها (ليظهره على الدين كله) بغلبة المؤمنين على الشركين كافة ، وقطع دابر شركي مكة وسيلة ممهدة للثانية ولابد أن تتم . و بعض المجرمون الأنامل من الغيط .

ويلاحظ في الآيات الكريمة امران:

اوهما لفت نظر المؤمنين في كل عصر وفي كل حين ان ما يريد الله جل شأنه هو غير

ما تريده نفوسهم الضعيفة ورغباتهم الرخيصة يريد الله من المؤمنين ان يتقدموا في كل حين الى ميادين القتال ويتقدموا بأبنائهم واموالهم ومهجهم ليحموا هذا الحق وليعلوا رايته والمؤمنون إذا غفلوا عن معانى اليمان وانخطوا عن معانى القرآن ومتطلباته الرفيعة أخلدوا الى الارض وحرصوا على الحياة وأثروا متعها فإذا وقع ذلك كان للباطل دولته وصوته .

وهكذا قارنت الآية الكريمة بين ارادتين بأوجز عبارة وابلغ أداء قال تعالى : «وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته» وقد انطوت هذه الجملة الكريمة على التعریض برغبة فريق من المؤمنين وطبيعة هذا الانسان بنهم الى العاجلة وتطلعًا الى سفاسف الأمور وعزوفه عما يرزوه في بدنـه وما له يقول الزمخشري : (والله يريد للمؤمنين معالي الأمور وما يرجع الى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين وشتان بين المرادين ولذلك اختار لاصحاب بدر الطائفة ذات الشوكة وكسر قوة المشركين يضعف المؤمنين وغلب كثرـهم بقلـتهم وأعزـ المؤمنين وأذـهم) .

واللحظة الثانية سمت الآية الكريمة المشركـين بال مجرمين وفيها إشارة الى صدودـهم عن الحق بأنفسـهم وصدـهم الناس عنه ومحارـبة الحق بكلـ ما أوتوا من مـكر وـقوـة ، تـشير الآية الكـريمة الى إـجرـاـهم بـفـتـنـهـمـ المؤـمـنـينـ ومـكـرـهـمـ بالـلـيلـ والنـهـارـ ليـصـدـواـ عنـ سـبـيلـهـ .

وما اشبه الليلة بالبارحة ولعلـ مجرـميـ الـيـومـ اـشـدـ دـهـاءـ منـ مجرـميـ الـأـمسـ لقد بلـغـ مـكـرـهـمـ الـيـومـ ذـرـوـتـهـ وـبلغـ بـالـمـسـلـمـينـ قـعـودـهـمـ وـغـبـاؤـهـمـ إـلـىـ أـبـعـدـ درـكـةـ ، تـخـاذـلـ المؤـمـنـونـ الـيـومـ عنـ حـيـاةـ الـحـقـ وـنـصـرـتـهـ وـعـادـتـ الـوـثـنـيـاتـ أـشـدـ مـاـتـكـونـ شـرـةـ وـفـتـكـاـ .

قال تعالى : في شأن دعـةـ الوـثـنـيـةـ «فـاسـتـكـبـرـواـ وـكـانـواـ قـوـمـاـ مـجـرـمـينـ» أي ماضـينـ فيـ يـكـرـهـ اللهـ وـهـمـ اـشـدـ مـاـيـكـونـونـ تـمـرـداـ وـعـتـواـ .

وقـالـ تعـالـىـ : «فـإـنـ كـذـبـوكـ فـقـلـ رـبـكـمـ ذـوـرـحـةـ وـاسـعـةـ وـلـاـيـرـدـ بـأـسـهـ عـنـ الـقـوـمـ المـجـرـمـينـ» .

وقـالـ تعـالـىـ : «وـكـذـلـكـ جـعـلـنـاـ فـيـ كـلـ قـرـيـةـ أـكـابرـ مـجـرـمـيـهاـ يـمـكـرـوـنـ فـيـهاـ وـمـاـ يـمـكـرـوـنـ إـلـىـ بـأـنـفـسـهـمـ وـمـاـ يـشـعـرـنـ»

ولقد شهد التاريخ الـيـومـ مـكـرـهـ اـعـدـاءـ اللهـ بـالـمـسـلـمـينـ فـيـ الـأـخـاءـ الـدـنـيـاـ مـاـ تـشـيـبـ لـهـ

ناصية الصبي وما يشده عقل الحليم وما المسؤول عما يقع في المسلمين الا المسلمون انفسهم حين فاتتهم إدراك معاني كتابهم .

قال تعالى : « اذ تستغثون ربكم فاستجاب لكم اني مددكم بآلف من الملائكة مردفين » .

روى احمد ومسلم وابو داود والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وغيرهم (وهذا اللفظ لمسلم) عن عبد الله بن عباس يقول : حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه (١) : « اللهم اخزلي ما وعدتني اللهم ات ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الارض » فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداوه عن منكبيه فأتااه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يانبى الله كذاك مناشدتك ربك . (٢)

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال (قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر اللهم اني انشدك عهلك ووعدك اللهم ان شئت لم تبعد فأخذ ابو بكر بيده فقال حسبك فخرج وهو يقول « سيمزم الجموع ويولون الدبر »)

يقول السيد رشيد رضا وروى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : (لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وتکاثرهم والى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام ابو بكر عن يمينه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته : اللهم لا تدع مني (٣) اللهم لا تخذلني اللهم لا تترني (٤) اللهم (١) : يصبح ويستغيث بالله بالدعاء

(٢) : قال ابن حجر في الفتح و قوله في رواية مسلم « كذاك » وهو بالذال المعجمة وهو يعني كذاك قال قاسم بن ثابت : « كذاك » يراد بها الاغراء والأمر بالكف عن الفعل .

قاسم بن ثابت السرقسطي المحدث المالكي رحل مع ابيه الى مصر والحرمين وجع الحديث ولد سنة ٢٠٥ وتوفي سنة ٣٠٢ صنف الدلائل في شرح غريب الحديث .

(٣) : في اللسان ودعت فلانا اي هجرته ، و قوله تعالى ما ودعك قالوا ما ترకك ، وفي الحديث اذا لم ينك الناس النكارة فقد تودع منهم اسلمو الى ما استحقوه من النكارة عليهم وتركوا وما استحبوا من المعاصي حتى يكثروا منها فيستوجبا العقوبة .

(٤) : هو من وتره من باب وعد معناه مسه بالأذى ومن معانه نقصه حقه وظلمه قال تعالى ولن يترككم أعمالكم .

انشدك ما وعدتني) .

وروى ابن اسحاق في سيرته انه صلى الله عليه وسلم قال «اللهم هذه قريش أنت بخليها وفخرها تحدك وتکذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني » .

قال ابن حجر قال الخطابي : لا يجوز أن يتوهם أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي صلی الله علیه وسلم في تلك الحال بل الحامل للنبي صلی الله علیه وسلم على ذلك شفقتة على أصحابه وتقواية قلوبهم لأنه كان أول مشهد شهده فبالغ في التوجّه والدعاء ليسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسائله مستجابة فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبا بكر في ثقة من القوة والطمأنينة فلهذا عقب بقوله (سيزِمُ الجمْعَ) انتهى ملخصا .

يقول ابن حجر وقال غيره : وكان النبي صلی الله علیه وسلم في تلك الحالة في مقام الخوف وهو أكمل حالات الصلاة وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ لأن وعده بالنصر لم يكن معينا لتلك الواقعة وإنما كان مجملأ .

والذى يبدو ان السؤال من أصله غير وارد وقد صور الاشكال السيد رشيد رضا فيما يلي :

وقد استشكل ما ظهر من خوف النبي صلی الله علیه وسلم مع وعد الله له بالنصر وعدا عاماً وعداً خاصاً ومن طمأنينة أبي بكر رضي الله عنه على خلاف ما كان ليلة الغار اذ كان النبي صلی الله علیه وسلم آمناً مطمئناً متوكلاً على ربه وكان أبو بكر خائفاً وجلاً كما يدل عليه قوله عز وجل «اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها»

اقول والذي يبدو انه لا إشكال ل تمام الدعاء واللجوء في ساعة الشدائـد هو المقام الطبيعي ولقد أخبرتنا آيات الكتاب أن الكفرة الجاحدين اذا وقعوا في ساعات الشدة الملحنة توجهوا بقلوبهم الى من بيده ملکوت السماوات والأرض .

قال تعالى : « و اذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين »
اذا كان هذا حال الجاحدين في الشدائـد فـا يكون حال سيد المقربين وأفضل المرسلين ؟

وهل ينافي الدعاء الطمأنينة وهل ينافي الخوف السكينة ولقد رأينا من قبل ان الذين توجل قلوبهم لذكر الله هم الذين تطمئن قلوبهم لذكر الله ورسول الله اتقى الناس واحفظهم الله وهو أرجاهم الله وأعظمهم ثقة بما عنده .

لقد كان رسول الله عليه صلوات الله وسلامه في خوف على أصحابه وإشراق على أمهه وحزن على الناس جميعاً يوضح هذا قوله تعالى « فلعلك باخ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا » ، ولقد كان بعض أصحابه رضوان الله عليهم قبل هذا الموقف ساعات يجادلون رسوله وكانوا كارهين منازلة المشركين وكانوا كأنما يساقون إلى الموت وهو ينظرون .

ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه يحمل من الفكر مثل ما يحمل رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ولكن قلب أبي بكر كان مستغرقاً بما يشاهد من خوف رسول الله وآشواقه وكان ممتلئاً حباً وتعظيمها لرسول الله وخوفاً وآشواقاً عليه وهو يرى بعد منزلته من منزلته إذ القلب الكبير الذي حل مسؤولية أصحابه وأمهه والدنيا بأسرها لأبد وأن تصيبه هزة في الساعة الخامسة لا يسكنها إلا الجوار إلى الله والهتف بربه جل شأنه والتضرع إليه .

كانت الساعة من أشد الساعات هولاً ، وكانت المعركة معركة موت أو حياة فإذاً أن ترفع راية الإيمان فتظل مرفوعة أو يغلب الباطل لا سمح الله ومن العسير جداً بعد ذلك أن تستعيد الفئة المؤمنة ثقتها وتستجمع أمرها حين تصاب بثلمة في بداية انطلاقتها ، لقد كانت ساعة فاصلة وقد سمع القرآن الكريم ذلك اليوم يوم الفرقان فهل يكون عجباً أن يخشع قلب النبي عليه الصلاة والسلام في تلك الساعة الرهيبة ويوجل فؤاده ويعظم همه فيفرز إلى عالم الغيوب ويلجأ إلى مفرج الكروب ؟

إن النفوس الكبيرة التي أرهف لحساسها وعظم إشراقها تحمل من الهم والتفكير ما لا يحمله الناس وبذلك تفجر من طاقاتها وطاقات من حولها من الناس ما ينزلل البحار ويدك الجبال .

لقد كان صلاح الدين كالنائحة الشكل ففقدت وحيدها لا يقر ولا يستقر ولا يهدأ له بال ، لا يستطيع طعاماً ولا شراباً ولا يهنا له نوم ولا يسعه مضجع متى أكان يطرد أعداء الله من بيت المقدس لو كان كسائر الناس يستمرئ الطعام والشراب ويتمتع بملذات الدنيا ؟

وان الله تباركت أسماؤه يحب من عبده أن يزداد فقره إليه ويعظم اضطراره وتنقطع حاله كيلا يجد سبيلا إلا اللجوء إليه ففي تلك الحال تزداد عبوديته وترفع إنسانيته .

وأنه لفهم في غاية السقم ذلك الفهم الذي كان يرى أن رسول الله عليه صلوات الله كان يحب أن يكون ذلك اليوم هادئا ناعماً بالمستريح ، لقد كانت خشته عليه الصلاة والسلام تملأ القلوب خشية ، وقربه من الله يملأ القلوب قربا ، وصلته بعالم الغيب تملأ القلوب شوقا إلى مرضاه ، فإذا دعا أصحابه إلى الجنة كانوا كأنهم يرون الجنة عياناً فلا يطيقون احتمالاً للصبر عنها .

الانفعال المتزن يستثير الطاقات الكامنة

إن التوتر النفسي الحازم والانفعال الرصين في ساعات الشدائدين يخرجان القوى الكامنة ويثيران الطاقات الدفينة ويرفعان هذا الإنسان إلى مستوى لم يبلغه من قبل ويأتي الإنسان في هذه الحال في تلك الساعات بما يعجب له هو نفسه وبما يعجب له الناس .

لقد خرج عليه الصلاة والسلام من العريش ولحظة العرين هي اللحظة الغالية على شعوري ، خرج من العرين «أعني العريش» وهو يشب في الدروع يقول (سيهز)^(١) الجميع ويولون الدبر) . ولو ان جيوش الدنيا وقفت في وجهه عليه الصلاة والسلام وهو في خروجه هذا لسحقها وتخطاها ويمثل هذه الروح القوية العالمية قابيل أصحابه عليه الصلاة والسلام فسرت من نفسه الكريمة إلى أنفسهم هذه المعاني كما تسرى الكهرباء في مسالكها .

أتري بعد هذا أن دعاء الرسول واستغاثته وتضرعه إلى ربه مكان للسؤال والاستشكال ؟

لقد تعرض للموضوع صاحب فتح الباري واجاب بما قاله الخطابي والخطابي من علماء القرن الرابع الهجري كانت وفاته عام (٣٨٨) وأغلب ظني إن المسألة من المسائل التي يشيرها أعداء الإسلام ويدسونها في صفوتهم للإيقاع بهذا الدين واهله وامثلة ذلك كثيرة

(١) : ولحظة يشب اوردها ابن حجر في الفتتح وقد رأيت في بعض الروايات ثبت في الدروع وأثر الأولى فهي التي تناسب المقام وأرى الثانية من خطأ الناسخين .

في عصرنا من المبشرين الصليبيين والمستشرقين فينبرى علماء المسلمين للإجابة عن كثير من المسائل وهي ترهات يضيع فيها الجهد والوقت .

والرسول عليه الصلاة والسلام في سؤاله ينشد ربه عهده أن ينجزه وعده فالله قد وعده والرسول عليه صلوات الله وسلامه واثق بربه .

والذى يؤخذ من الحديث أن يستغل العبد ساعات الشدة ليقبل بقلبه على ربه ويزداد خضوعاً وخشية ولجوءاً لizardad عبودية ويزداد رفعة .

ولقد ظل عليه صلوات الله وسلامه يناشد ربه حتى رأى النصر بأم عينيه . روى النبائي والحاكم عن علي قال (قاتلت يوم بدر شيئاً من قتال ثم جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده يا حي يا قيوم فرجعت فقاتلته ثم جئته فوجده كذاك) وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه أخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة من النوم ثم استيقظ مبتسمًا فقال أبشر يا بكر هذا جبريل على ثنياه النقع ^(١) . وفي البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل برأس فرسه عليه اداة الحرب .

يقول ابن حجر وفي رواية ايوب عن عكرمة عن ابن عباس قال عمر فلما كان يوم بدررأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت في الدروع ويقول (سيمزم الجمع) اخرجه الطبرى وابن مردوه .

كان رسول الله مشغولاً بدعاء ربها ، ممتلى القلب إشفاقاً على أصحابه ومن بعدهم وكان أبو بكر رضي الله عنه منشغلًا بالاهتمام برسول الله عليه صلوات الله .

ومقال السيد رشيد رضا في التبيين موقف الرسول عليه صلوات الله والصديق في غار ثور وفي بدر مقال حسن نقل بعض ماجاء فيه : ^(٢)

اعطاء كل مقام حقه

قال رحمة الله انه صلى الله عليه وسلم أعطى كل مقام حقه بحسب الحال التي كان

(١) : الغبار يقول الشارع اشارة للاهتمام بمناصرته صلى الله عليه وسلم .

(٢) : تفسير المغار ٩ / ٦٠٥

فيها فلما كان عند الخروج الى المجرة قد عمل ومعه صاحبه كل ما امكنها من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحتين والدليل والاستخفاء في الغار لم يبق عليها الا التوكل على الله تعالى والثقة بعونته وتخديل اعدائه صلى الله عليه وسلم لكمال توكله آمناً مطمئناً بما انزل الله عليه من السكينة وايده به من الملائكة وابوبكر رضي الله عنه لم يرتفق الى هذه الدرجة فكان خائفاً حزيناً محتاجاً الى تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام .

واما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل المحسن وذلك ان التوكل الشرعي بالاستسلام لعنابة الله تعالى وحده اما يصح في كل حال بعد اتخاذ الأسباب المعلومة من شرع الله ومن سننه في خلقه .

ومن المعلوم بالقطع ان اسباب النصر والغلب لم تكن تامة عند المسلمين في ذلك الوقت ، لا من الجهة المادية كالعدد والعدد والغذاء والعتاد والخيل والابل بل لم يكن من هذه الجهة الا شيء ضعيف ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجداول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، لهذا خشي صلى الله عليه وسلم أن يصيّب اصحابه تهلكة على قلتهم لتصيرهم في بعض الأسباب المعنوية فوق التقصير غير الاختياري في الاسباب المادية فكان يدعوا بأن لا يؤخذهم الله تعالى بتقصير بعضهم في إقامة سننه عقاباً لهم كما عاقبهم بعد ذلك في غزوة أحد ذلك العقاب المشار اليه بقوله تعالى «أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلت أني هذا قل هو من عند انفسكم»

واما ابوبكر رضي الله عنه فلم يكن يعلم من ذلك كل ما يعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد رأه منزعجاً خائفاً فكان همه تسلية صلى الله عليه وسلم وتذكيره بوعده ربه لشدة حبه له ، وفي الغار كان خائفاً عليه ، ولكنه رأه مطمئناً فلم يخجع الى تسليته بل كان صلى الله عليه وسلم هو الملي لـ ما رأى من خوفه ان تعرض له ألم او اذى .

فالرسول هو الذي اعطى كل مقام حقه : مقام التوكل المحسن بعد استيفاء اسباب ابقاء اذى المشركين عند الهجرة ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آنفاً من كراهة بعضهم للقتال ومجادلتهم له فيه بعد ماتبين لهم انه الحق الذي يريده الله تعالى بوعده ايامهم احدى الطائفتين .

الى ان يقول : وجملة القول في هذا المقام ان الرسول صلوات الله عليه وسلم كان

يعلم بعلوم القرآن أن للنصر أسباباً حسية ومعنوية وإن الله تعالى فيها سنتاً مطردة، وكان يعلم أيضاً أن الله تعالى عنانية وتوفيقاً يمنحه من شاء من خلقه فينصر الضعفاء على الأقوياء والفتنة القليلة على الفتنة الكثيرة وأنه جل جلاله له فوق كل هذا آيات يؤيد بها رسالته.

فلياً عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاثة الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية ويفهمون بالعنابة الربانية التي تكون بها القوة الروحانية أُجدر بالنصر من القوة المادية وكان كل من علم بدعائه يؤمن عليه وكانتوا يتأنسون به في هذا الدعاة فيستغيثون بهم كما استغاثه وقد اسند الله إليهم الاستغاثة «إذ تستغيثون ربكم».

قال تعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجيب لكم أني مددكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم».

الاستغاثة طلب الغوث والنصر وغوث الرجل قال: وأغوثاه.

ولقد استغاث رسول الله واصحابه بهم في الساعة الرهيبة واستجاروا به جل شأنه ودعوه للنصر فأجاب دعاءهم الذي يحبب المضطرب اذا دعاه بقوله تعالى: «فاستجيب لكم أني مددكم بألف من الملائكة مردفين» أي يردد بعضهم بعضاً ويتو وبعضهم بعضاً.

وقوله تعالى: «وما جعله الله إلا بشري» أي لم يجعل تعالى ذكره إلا مداد الذيAMDكم إلا بشركم بنصر الله.

وقال ابن جرير: المعنى لم يجعل الله إرادات الملائكة بعضها بعضاً وتتابعها بالمصير إليكم أيها المؤمنون مداداً لكم إلا بشري لكم أي بشاره تبشركم بنصر الله إياكم على اعدائكم لتسكن قلوبكم وتتحقق بنصر الله وما النصر إلا من عند الله يقول جل شأنه وما تنتصرون على عدوكم أيها المؤمنين إلا أن ينصركم الله عليهم لا بشدة بأسكم وقواكم بل بنصر الله لكم لأن ذلك بيده واليه ينصر من يشاء من خلقه ان الله عزيز لا يقهه شيء ولا يغلبه غالب «حكيم» في تدبیره ونصره من نصر وخذلانه من خذل لا يدخل تدبیره وهن ولا خلل.

يقول صاحب فتح البيان وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ولتشتت قلوبهم قال قتادة وذكر لنا أن عمر قال أما يوم بدر فلا شك أن الملائكة كانوا معنا وأما بعد ذلك فالله أعلم .

يقول ابن جرير أيضاً عند قوله تعالى «وما النصر إلا من عند الله» يعني وما ظفركم إلا ظفرتم بعدهم لا من قبل العدد الذي يأتيكم من الملائكة .

أقاتل الملائكة يوم بدر

ويقول صاحب تفسير المنار :
روي عن ابن عباس أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر وفيها عداؤ كانوا عدداً ومدداً لا يقاتلون .

يقول : وانكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال: إن الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط فإذا حضر هو يوم بدر فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار وبتقدير حضوره أي فائدة في ارسال سائر الملائكة؟ وايضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم وايضاً لو قاتلوا فاما أن يكونوا بحيث يراثم الناس أولاً وعلى الأول يكون المشاهد من عسکر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل بذلك أحد وانه خلاف قوله تعالى «و يقللكم في اعينهم » ولو كانوا في غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق ولم ينقل ذلك البتة ... الى آخر ما يقول وقد اورد الرازي هذا الذي سبق عن الأصم وذكر حججه مفصلاً كعادته الحجة الأولى ، والثانية ... الخ واعتراض الرازي عليه بأن مثل هذا إنما يصدر عن غير المؤمنين .

وينتصر رشيد رضا للأصم ويقول ليس في القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل ويقول: فسر إمداد الملائكة في بدر بقوله تعالى «فثبتوا الذين آمنوا» ويقول ابن جرير في معناه «قرروا عزيمتهم وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين وقيل كان ذلك معونتهم ايامهم بقتال اعدائهم يقول رشيد رضا : «فأنتم ترى انه جرم بأن عمل الملائكة في ذلك اليوم إنما كان موضوع القلوب بتقوية عزيمتهم وتصحيح نيتها»

وأقول ليس في هذا النزاع كبير جدوى فليس من شك في أن الملائكة شهدت بذرا وليس من شك في أنها أمدت المؤمنين وهياكل أسباب النصر أما الكيفية التي أمدت بها

فليس ذلك من شأننا فلو أن انساناً أعرف لديه القدرة الخارقة قال لي سأكون معك في قتال عدوك وسانصرك عليه وأنا اعلم ان وجوده كاف لنصرتي ومعونته مؤكدة لغلبتي فإن قلت احب ان اعرف الوسائل التي تستعملها والطريقة التي تريد ان تسلكها كان ذلك طفلًا مني ودخولاً في غير ما يعنيني فكيف الشيء بالملائكة الكرام الذين هم من عالم الغيب وتصرفاتهم من عالم الغيب ووسائلهم لا تعد ولا تحصى ولا نستطيع ادراكها . فالتسليم بأنهم شهدوا وبأنهم هياوا اسباب النصر هو الذي يعنينا ولا طائل فيها وراء ذلك .

وقد بوب البخاري بقوله «باب شهود الملائكة بدر»

وروى في صحيحه عن معاذ بن رفاعة عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها قال وكذلك من شهد بدوا من الملائكة .

وقال ابن كثير روى الإمام أبو جعفر ومسلم من حديث عكرمة بن عمارة عن أبي زميل سماعك بن وليد الحنفي قال حدثنا عبد الله بن عباس قال بينما رجل من المسلمين يشتد في اثر رجل من المشركين امامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم^(١) فنظر المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خطم انهه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الانصارى فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «صدقت ذلك من مداد النساء الثالثة» فقتلوا يومئذ سبعين وأسرعوا سبعين .

ولم يشر صاحب السنار إلى هذين الحديثين وفي اسناد حديث مسلم عكرمة بن عمارة قالوا عنه ابن حجر صدوق يغلط روى له البخاري تعليقاً ومسلم وأصحاب السنن جميعاً وأبو زميل قال ابن حجر ليس به بأس روى له البخاري في الأدب المفرد ومسلم وأصحاب السنن جميعاً فالحديث في درجة الحسن .

قال تعالى : « وما النصر إلا من عند الله »

قال صاحب فتح البيان النصر من عند الله لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليس الملائكة إلا سبباً من اسباب النصر التي سببها الله

(١) : اقدم كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم وحيزوم اسم فرس الملك .

وامدكم بها وفيه تنبئه على ان الواجب على المسلم الا يتوكى الا على الله في جميع احواله ولا يشق بغيره فان الله تعالى بيده الظفر والإعانته .

ويقول صاحب الظلال عليه رحمة الله : (انها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته وتدبره وقدره ، وتسير بجند الله وتوجيهه) .

وهكذا يربى المؤمن على ان لا يرى قوة الى جانب قوة الله ولا اراده الى جانب ارادته فهو الفعال وحده واليه يرد الأمر كله .

وهكذا تخدر الآيات الكريمة ان يظن ان الملائكة تملك امرا او تقدم نصرا إنها بكل ما أottiت من قوة إنما تفعل بأمر الله وتسير بإرادة الله .

وهذا هو التوحيد الخالص والإيمان الحض ان يقطع المؤمن رجاءه من المال والأهل والولد والجاه والسلطان بل يقطع رجاءه من نفسه ايضا ويعتقد انه لا يملك حولا ولا طولا ولا قوة الا باذن الله وامرها .

دعوة باطلة

ولقد وجد اناس في الأيام الأخيرة في بلاد الضلال يدعون هذا الانسان الى اليمان بنفسه كيلا يرى في هذا الكون عقبة تقف في وجهه وكيلا يرى في الكون قوة فوق قوته وكيلا يجد نفسه مكبلا بإرادة من الإرادات وذلك ان ايمانه بقوة فوق قوته تحد من طاقته وتضعف من قوته وتحول بينه وبين الانطلاق الذي لا يعرف حدا ولا قيدا .

ولقد انبشت هذه الدعوة من فيلسوف ألماني عاش في نهاية القرن الماضي من عام ١٨٤٤م الى ١٩٠٠م وكان ابن قس وحفيد قس واراد ان يصير قسيسا فكان في اول امره مستمسكا بالدين ثم خرج على الدين والأخلاق وصار على من اعلام الكفر ذلك هو نيتشه الذي كان يعرض فلسفته على انها رسالة ووحي وكان يرمي الى تعليم الانسان كيف يكتشف نفسه فيجد فيها اراده القوة غاية بذاتها وينكر القيم الأخلاقية كما ينكر العالم الآخروي ويزعم ان المعانى الأخلاقية اوجدها انسان ليحتفظوا بسيادتهم على جهور المساكين .

وهذا الذي يدعو الانسان الى اليمان بقوته عوجل بعقوبته في الدنيا قبل الآخرة فلقد

عاش ستا وخمسين عاماً هدمته الأمراض فيها وهو في عنفوان شبابه وظل عشر سنوات يشكو العلل فاضطر إلى الانقطاع عن التدريس وهو في سن الخامسة والثلاثين ثم انتهى به المرض إلى الشلل التام والجنون وظل على هذه الحال عشر سنوات أخرى حتى وافاه أجله.

وما كنت لأُضيع الوقت بذكره لو لا أن بلادا إسلامية في مثل هذه الأيام تتبنى مثل هذه الفلسفة رسمياً وتربى الأجيال عليها تربى أبناء المسلمين على الكفر بمبادئهم والتذكر لأيامهم الزاهية.

لقد نشرت مجلة رسمية في بلد إسلامي مقالا جاء فيه : « استنجدت أمة العرب بالله ... فتشتت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية استعانت بالنظام الاقطاعي والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى كل ذلك لم يجئ فتيلا .

إلى أن يقول : إن ضالته الإنسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزلية في مجتمعه التي هي ليست إلا وليدة الانقطاع والرأسمال والاستعمار ... تلك القيم التي جعلت من الإنسان العربي إنسانا متخاذلا متوكلا إنسانا جبراً يا مستسلماً للقدر لا يعرف إلا أن يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

كتب هذا المقال منذ سنوات قريبه وقد يحسب العاقل أنها رعونة قامت في رأس أصحابها وطواها الزمن ولكن أصحاب الباطل ما يزالون يعملون « ليطفوا نور الله ويا بني الله إلا أن يتم نوره » ما يزال أصحاب الباطل جادين في وسائلهم ومن وسائلهم الجديدة إصدار مجلات للأطفال تبدو بمظهر تربية الأطفال وتوجيههم تدرس فيها المعاني التي تهدم القلوب يتحدث فيها أصحابها عن نشأة هذا الإنسان والأدوار التي مرت بها في جذور التاريخ البعيدة ويلقون الناشئة النظرية التي تزعم أن هذا الإنسان خلق من غير خالق ، وصاحب المقال السابق ينطلق من هذه البدعة فأول ما جاء في كلامه ما يلي : الإنسان كوحدة فيزيولوجية يتجدد كل ثانية بل كل لحظة ولن أخوض هنا في معركة أصل الإنسان .. بل لا يهمني كلياً تأكيد العلم أن نقطة انطلاق الإنسان كانت الخلية الحيوانية الدقيقة ومن ثم تطور وارتقى عبر العصور إلى أن أصبح بتكوينه الحالي .

أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالقُونَ ... أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَشْرَكُونَ
فَذَرُوهُمْ حَتَّىٰ يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ .

لست ألم هؤلاء الذين خربت عقولهم ومرضت قلوبهم ولكنني أجد من الأسى أنني
وأخواتي لا نستطيع أن نقدم هؤلاء مثل الرجل المؤمن في انتظاره للحق وذوده عن حماه
وفي شجاعته وقادمه في سبيله وفي انصيابه على الشدائـد ومواجهته لعظام الأمور وهو
يقول لا حول ولا قوة إلا بالله « وما النصر إلا من عند الله ... » « اذ يغشـكم النـعـاس
آمنـةـ منه »

ومن منه تعالى على المؤمنين لقاـةـ النـعـاسـ عليهم حتى غـشـيمـ أي غـلبـ عليهمـ فـكانـ
ـ كالـفـاشـيـةـ تـسـرـ الشـيـءـ وـتـغـطـيـهـ .

قال أبو جعفر يغشـكمـ النـعـاسـ يـلـقـيـ عـلـيـكـمـ النـعـاسـ وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ أـمـنـةـ أيـ آمـانـةـ منـ اللهـ
ـ لـكـمـ مـنـ عـدـوـكـمـ أـنـ يـغـلـبـكـمـ .

والنعـاسـ أـولـ النـومـ وـهـوـ أـنـ يـحـتـاجـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ النـومـ فـاـذـاـ ثـقـلـ النـعـاسـ كـانـ وـسـنـاـ فـاـذـاـ
ـخـالـطـ النـعـاسـ الـعـيـنـ فـهـوـ تـرـنـيـقـ وـبـعـدـ الـكـرـيـ وـالـغـمـضـ وـهـوـ أـنـ يـكـوـنـ الـإـنـسـانـ بـيـنـ النـائـمـ
ـوـالـيـقـظـانـ وـبـعـدـ الـعـقـقـ وـهـوـ النـومـ وـأـنـتـ تـسـمـعـ كـلـامـ الـقـوـمـ وـبـعـدـ الـمـجـودـ وـالـمـجـوعـ وـالـنـعـاسـ
ـاـسـمـ مـصـدـرـ لـنـعـسـ مـنـ بـابـ فـتحـ .

يـقـولـ اـبـنـ كـثـيرـ :

ـوقـالـ الـحـافـظـ اـبـوـ يـعـليـ حـدـثـاـ زـهـيرـ حـدـثـاـ اـبـنـ مـهـديـ عـنـ شـعـبـةـ عـنـ اـبـيـ اـسـحـاقـ عـنـ
ـحـارـثـةـ بـنـ مـرـاجـعـ بـنـ كـثـيرـ عـنـ عـلـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ : (ماـ كـانـ فـيـنـاـ فـارـسـ يـوـمـ بـدـرـ غـيرـ
ـالـمـقـدـادـ وـلـقـدـ رـأـيـتـنـاـ وـمـاـ فـيـنـاـ إـلـاـ نـائـمـ إـلـاـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـصـلـيـ تـحـتـ شـجـرـةـ
ـوـيـبـكـيـ حـتـىـ أـصـبـحـ)ـ وـالـإـسـنـادـ السـابـقـ رـجـالـهـ ثـقـاتـ كـلـهـمـ .

ـيـقـولـ السـيـدـ رـشـيدـ وـظـاهـرـ عـبـارـةـ عـلـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ اـنـهـ نـامـوـ فـيـ اللـلـيـلـ وـالـمـبـادرـ انـ
ـنـعـاسـهـمـ كـانـ فـيـ اـثـنـاءـ الـقـتـالـ وـلـكـنـ السـيـدـ رـشـيدـ يـرـجـعـ تـبـعاـ لـشـيـخـهـ الـإـمامـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ أـنـ
ـالـنـعـاسـ فـيـ بـدـرـ كـانـ لـيـلـةـ الـقـتـالـ وـذـلـكـ الـذـيـ يـؤـخـذـ مـنـ ظـاهـرـ قـوـلـ عـلـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ .

ـيـقـولـ السـيـدـ رـشـيدـ نـقـلاـ عـنـ الـإـمـامـ مـحـمـدـ عـبـدـهـ :ـ وـقـدـ مـضـتـ سـنـةـ اللـهـ فـيـ الـخـلـقـ بـأـنـ مـنـ

يتوقع في صبيحة ليلة هلا كثيرا ومصابا عظيما فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه ويبت بليلة المنسوخ فيصبح خاماً ضعيفا وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشا يزد عن عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدا وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق ويفكروا بما سيلاقون في غدهم من الشدة واليأس ولكن الله رحمهم بما انزل عليهم من النعاس غشיהם فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده وأصبحوا على همة ونشاط في لقاء عدوهم وعدوه فالنعاشر لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها ، ومثله المطر الذي أنزل عليهم عند شدة حاجتهم إليه وقد قرن ذكره به في الآية التي ذكرتهم بعنابة الله بهم .

وقال ابن كثير قال سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال النعاس في القتال آمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان .

ثم يقول : والآية الشريفة إنما هي في سياق بدر وهي دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة اليأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى : « فإن مع العسر يسرا »

والذى يبدو ان الأصحاب رضوان الله عليهم بعد المؤتمر الذى عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشورة التى أقامها وبعد كلام أبي بكر وعمر والمقداد وسعد بن معاذ ثابت القلوب ورجعت الطمأنينة ، وحين علم الأصحاب ان رغبة رسول الله في السير للقاء المشركين وحين اعلن عليه صلوات الله ان الله وعده إحدى الطائفتين حين قال سيروا وأبشروا ان الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني انظر الى مصارع القوم انقطع دابر التردد وحلت العزيمة وكان الإقدام وساروا جميعا موقنين بأن النصر معهم وقد اسلموا نفوسهم للذى برأهم وفوضوا أمورهم الى الذى يحسن تدبيرها ، وهنالك ثابت النفوس واستقرت القلوب .

الهدوء في ساعات الشدة

والآية الكريمة ترشد الى معنى جليل قد لا يقدر المرء قدره ، الهدوء في ساعات الشدائـد التي يخشى أن تذهب بالأنفس والطمأنينة إلى قدر الله .

هذا الهدوء الذى يقترن بعدم المبالغة بالأخذ وال Jegar يملكتها من بيده ناصية

كل شيء ولأن الأمور تفوض إليه جل شأنه ولا يأتي من قبله إلا الخير والرحمة هذا المدحوب يكسب المرأة رباطة جأش وتصرفاً عنوعي وانتباه ومهارة في حين يفزع الناس حتى يكاد الفزع يقتلهم فيضطر بون في أمورهم .

وليس مثل هذا المدحوب وهذه السكينة لغير المؤمنين .

قال تعالى : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويدهّب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

ارتحل عليه الصلة والسلام بعد المؤتمر الذي اقامه في وادي ذفران وهو قريب من الصفراء على مسافة تقرب من اربعين ميلاً من المدينة وسار عليه صلوات الله وسلامه حتى نزل قريباً من بدر ونزلت قريش بالعدوة القصوى والعدوة جانب الوادي وحافته والقصوى أي البعدي من المدينة ونزل المسلمين على كثيب اعفر^(١) تسخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوا وحرقوا القلب لأنفسهم^(٢) وأصبح المسلمون بعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم الظماء وهم لا يصلون إلى الماء لسبق المشركين إليه ووسوس الشيطان لبعضهم وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكمنبي الله وتزعمون أنكم أولياء الله وقد غلبتكم المشركون على الماء وانتم عطاش وتصلون محدثين مجنبين ولم تكن آية التيمم نزلت فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادي فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب^(٣) وملئوا الأسقية وأطفأوا المطر الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسه الشيطان وطابت نفوسهم .

يقول ابن القيم عليه رحمة الله : ونزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً واحداً فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلاً طهراً به وأذهب عنهم رجس الشيطان ووطأ به الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عدتها من المياه .

وروى ابن جرير بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنها قال نزل النبي صلى

(١) : رمل مجتمع أحمر أو أبيض ليس بالشديد .

(٢) : القلب جمع قليب البُرْقِيلَ ان تبني بالحجارة ونحوها .

(٣) : الركاب الابل التي يسار عليها واحدتها راحلة ولا واحد لها من لفظها .

أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ يَعْنِي حِينَ سَارَ إِلَى بَدْرٍ وَالْمُسْلِمِينَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةً دَعْصَةً^(١) فَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفًا شَدِيدًا وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْظَ فَوَسُوسَ بَيْنَهُمْ تَرْعَمُونَ إِنْكُمْ أَوْلَيَاءُ اللَّهِ وَفِيهِمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبْتُمُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمَاءِ وَأَنْتُمْ تَصْلُونَ مَجْنَبِينَ، فَأَمْطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطْرًا شَدِيدًا فَشَرَبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا وَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَجْسَ الشَّيْطَانِ وَثَبَتَ الرَّمْلُ حِينَ أَصَابَهُ الْمَطَرُ وَمَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالْدَّوَابُ فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ وَامْدَادَ اللَّهِ نَبِيَّهُ بِأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ جَبَرُ يَلِ عَلَيْهِ السَّلَامَ فِي خَمْسَائِةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَجْنَبَةً وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسَائِهِ مَجْنَبَةً.

يَقُولُ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْمَنَارِ «وَلَوْلَا هَذَا الْمَطَرُ لَمَا امْكَنَ الْمُسْلِمِينَ الْقِتَالَ لَأَنَّهُمْ كَانُوا رَجَالَةً لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا فَارِسٌ وَاحِدٌ هُوَ الْمَقْدَادُ وَكَانَتِ الْأَرْضُ دَهَاسًا تَسْيَخُ فِيهَا الْأَقْدَامُ وَلَا تَشْبَتُ عَلَيْهَا».

قَالَ ابْنُ اسْحَاقَ فَخَرَجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبَادِرُهُمْ إِلَى الْمَاءِ حَتَّى جَاءَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ فَنَزَلَ بِهِ فَقَالَ الْحَبَابُ بْنُ الْمَنْذُرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا مَنْزِلٌ انْزَلَكَهُ اللَّهُ لَا تَقْدِمُهُ وَلَا تَتَأْخِرُ عَنْهُ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ فَقَالَ بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ قَالَ فَإِنْ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ فَانْهَضَ بِالنَّاسِ حَتَّى تَأْتِيَ أَدْنَى مَاءَ مِنَ الْقَوْمِ فَنَزَلَهُ ثُمَّ نَفَرَ مَا وَرَاهُ مِنَ الْقَلْبِ ثُمَّ نَبَّنَى عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَأُهُ مَاءً فَنَشَرَهُ ثُمَّ يَشْرَبُونَ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَرَتْ بِالرَّأْيِ^(٢).

قَالَ رَشِيدُ رَضاً : ذَكَرَ تَعَالَى لِذَلِكَ الْمَطَرَ أَرْبَعَ مَنَافِعَ الْأُولَى تَطْهِيرُهُمْ بِهِ تَطْهِيرًا حَسِيبًا بِالنَّظَافَةِ الَّتِي تُشَرِّحُ الصَّدْرَ وَتُنَشِّطُ الْأَعْضَاءَ فِي كُلِّ عَمَلٍ وَشَرِيعًا بِالْغَسْلِ مِنَ الْجَنَابَةِ وَالْوَضُوءِ مِنَ الْحَدِيثِ الْأَصْغَرِ الثَّانِيَةِ إِذْهَابُ رَجْزِ الشَّيْطَانِ وَالرِّجْزِ وَالرِّجْسِ وَالرِّكْسِ كُلُّهَا بِعَنْيٍ وَهُوَ الشَّيْءُ الْمُسْتَقْدَرُ حَسَّاً أَوْ مَعْنَى وَالْمَرَادُ هُنَا وَسُوْسَةُ الشَّيْطَانِ كَمَا تَقْدِمُ فِي الْأَثْرِ الَّذِي أَوْرَدَهُ ابْنُ جَرِيرَ الْثَالِثَةِ الْرَّبْطُ عَلَى الْقُلُوبِ وَهُوَ تَبْيَرٌ عَنْ تَشْبِيَّهَا وَتَوْطِينَهَا عَلَى الصَّبْرِ الْرَّابِعَةِ تَشْبِيَّ الْأَقْدَامِ فَإِنْ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقْاتَلُ فِي أَرْضٍ تَسْوَخُ فِيهَا قَدْمَهُ كُلُّمَا تَحْرَكَ

(١) جَاءَ فِي الْمَسَانِ لِلْدَّعْصَنِ جَبَلٌ صَغِيرٌ مِنَ الرَّمْلِ يَجْتَمِعُ وَالْطَّائِفَةُ مِنْهُ دَعْصَةً.

(٢) يَرَوِيُّ هَذَا الْحَدِيثُ ابْنَ اسْحَاقَ يَقُولُ فَحَدَّثَتْ عَنْ رَجَالٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ . يَقُولُ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِيُّ وَهَذَا سَنْدٌ ضَعِيفٌ لِجَهَالَةِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ ابْنِ اسْحَاقَ وَالرَّجَالِ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَالْحَدِيثُ يَوْرَدُهُ ابْنُ حَجْرٍ فِي الْأَصَابَةِ فِي تَرْجِمَةِ الْحَبَابِ بْنِ الْمَنْذُرِ وَقَدْ ذَكَرَ الْوَاسِطَةَ فِي السَّنْدِ الَّذِي أَوْرَدَهُ يَقُولُ : قَالَ ابْنُ اسْحَاقَ فِي السَّبِرَةِ حَدِيثَنِي يَزِيدَ بْنَ رُومَانَ عَنْ عَرْوَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ فِي قَضِيَّةِ بَدْرٍ ، فَذَكَرَ قَوْلَ الْحَبَابِ ، وَهَذَا يَزُولُ ضَعْفَ السَّنْدِ الَّذِي ذُكِرَ .

وهو قد يقاتل فارساً لا رجلاً لا يكون الا رجلاً مضطرب القلب .

قال تعالى : « اذ يوحى ربكم الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألكي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

يقول ابن كثير عليه الرحمة : هذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى للمؤمنين ليشكروه تعالى عليها وهو انه تعالى وتقديس وتبارك وتمجد أوحى الى الملائكة الذين أنزلم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين أوحى اليهم فيها بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن اسحاق أي آزر وهم وقال غيره قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حلو علينا لنتكشفن فيحدث المسلمين بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم حكاہ ابن جریر .

وارتباط الآية الكريمة بما قبلها أنها من جملة المن التي وقعت في بدر يذكر الله بها عباده المؤمنين يقول لهم تبارك اسماؤه اذ ذكروا اذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم اذ تستغشون ربكم واذ ذكروا اذ يغشكم النعاس أمنة منه واذ ذكروا اذ يوحى جل شأنه الى الملائكة اني معكم وجعل صاحب فتح البيان التذكير الأخير لمحمد عليه الصلاة والسلام معنى الآية ذاكر يا محمد وقت ايجاء ربكم الى الملائكة اني معكم وبين علة ذلك بقوله : (لأنه لا يقف على ذلك سواه) ، يعني أن الأصحاب رضوان الله عليهم ما عملوا حين القتال بما أوحى الله تبارك اسماؤه إلى الملائكة وقد علم بذلك رسول الله فالذكير إنما يكون له عليه صلوات الله وسلامه وهذا التذكير علم أصحابه رضوان الله عليهم بنعمة الله على رسوله عليهم .

ويذهب السيد رشيد رضا الى ان الآية الكريمة مرتبطة بالآية التي قبلها يعني بتثبيت الأقدام يقول والمعنى انه يثبت الأقدام بالمطر في وقت الكفاح الذي يوحى ربكم فيه الى الملائكة امراً لهم ان يثبتوا الذين آمنوا .

فتثبيت الأقدام كان في المعركة حين أوحى الله الى الملائكة بتثبيت الذين آمنوا والذي ذهب اليه المفسرون الآخرون عدم التقيد والمتادر أن الله ذكر المؤمنين بإنزال المطر وما كان له من نتائج في غالبهم على عدوهم ومنها تثبيت اقدامهم ساعة القتال ثم

ذكر هم جل شأنه بإمدادهم بالملائكة . والمعنى الذي يريده السيد رشيد لا يتم على هذا الوجه وقد قال صاحب فتح البيان (وقيل يثبت الأقدام وقت الوحي وليس لهذا التقييد معنى) .

وقوله تعالى الى الملائكة قالوا أي الملائكة الذين سبق ذكرهم بقوله تعالى « اني مددكم بآلف من الملائكة » وقوله تعالى « اني معكم » هذا هو الموجى به الى الملائكة واكثر المفسرين على ان الموجى به من قوله تعالى (اني معكم الى قوله تعالى كل بنان) .

وخالف في هذا صاحب تفسير المنار ليتم له رأيه الذي سبق بأن الملائكة لم تقاتل فهو يقول : مقتضى السياق أن وحي الله للملائكة قد تم بأمره إياهم بتشييت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله عن امداد الملائكة (وما جعله الله إلا بشري)

يقول : وقوله تعالى « سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب » بدء كلام خطوب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون تتمة للبشرى فيكون الأمر بالضرب موجها الى المؤمنين قطعاً وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر.

ويذهب ابن جرير في تفسيره الى ما يؤيد ما قاله صاحب تفسير المنار يقول القول في تأويل قوله « سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضرموا بهم كل بنان » .

يقول تعالى ذكره سارعب قلوب الذين كفروا بي ، ايها المؤمنون ، منكم واملؤها فرقاً حتى ينهزموا عنكم . الى ان يقول : ان الله امر المؤمنين ، فعلمهم كيفية قتل المشركين وضرهم بالسيف ان يضرموا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل .

ويؤخذ من كلام ابن كثير انه يرى ان قوله تعالى (ثبتوا) خطاب للملائكة ويلحق بذلك قوله تعالى فاضربوا فوق الأعناق .

يقول عليه الرحمة ثبتوا انتم المؤمنين وقووا انفسهم على اعدائهم عن امري لكم بذلك سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف امري وكذب رسولي فاضربوا فوق الأعناق واضرموا بهم كل بنان أي اضرموا اهاماً ففلقوها واحتزوا الرقاب فقطعواها وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم .

والذي غيل اليه الأخذ برأي جهور المفسرين من أن الأمر بالضرب فوق الأعنق داخل فيها أوحى الله به الى الملائكة ذلك هو المبادر من الآيات الكريمة وما ذهب اليه صاحب تفسير المنار يحتاج إلى تكليف غير يسير والأخذ المبادر والبعد عن التكليف هو الأولى .

قال تعالى «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » .

امر الله تبارك اسماؤه في الآية السابقة بأن يضرب الذين كفروا فوق الأعنق أي يضربوا في المكان الذي هو فوق الأعنق وذلك هو الرأس او يضربوا فوق الأعنق نفسها اي على الأعنق لتفرق هاماتهم وتحذر رقبتهم وامر جل شأنه بأن يضرب منهم كل بنان .

قال في اللسان : والبنان الأصابع وقيل اطرافها واحدتها بنانة وقال قوله عز وجل فاضربوا فوق الأعنق واضربوا منهم كل بنان قال ابو اسحاق البنان هنا جميع اعضاء البدن وقال الليث اطراف الأصابع من اليدين والرجلين قال والبنان في كتاب الله وهي الأيدي والأرجل وهذا الذي اختاره ابن كثير قال وقطعوا اطرافاً منهم وهي أيديهم وأرجلهم . وكل هذا بعد ان وعد جل شأنه بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا والرعب هو الخوف الذي يملأ القلوب ومادة رعب تفید المل . يقال رعب السيل الوادي أي ملاه وهي تفید القطع أيضاً ولذا فسر الراغب الخوف بالانقطاع من امتلاء الخوف .

وهكذا جزاء الذين كفروا أن تضرب هامتهم وتقطع أطرافهم وهذا الوصف يملأ المؤمن شدة على الكافرین وهذا وصف الله المؤمنين بأنهم أشداء على الكفار رحاء بينهم وقد فارقت هذه المعانی قلوب المؤمنين في الأيام المتأخرة وازداد أهل الكفر ضراوة على المؤمنين وزرع الله مهابتهم من قلوبهم .

والاسلام يعرف المسلمين بالسبيل الأقوم ففي النزاع بين الحق والباطل يجب ان يجد البطل شدة وطأة الحق ليذعن له شاء أم أبى فإن لم يفعل فالباطل غايته أن يجتث شجرة الخير في أصولها والاسلام يرى ديد من أتباعه أن يعرضوا أنفسهم للابتلاء ولفتتن أعداء الاسلام وكيدهم وشدهم وعداوتهم متوكلين على الله واثقين بنصره وخدرهم أشد تخانير أن يتوتروا العافية ويخلدوا للراحة والدعة والشر يستكري ويستفحـل أمره .

قال تعالى «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» والمشافة والشقاق غلبة العداوة والخلاف ، وشاقه : خالفة ، وقال الزجاج الشقاق : العداوة بين فريقين والخلاف بين اثنين سمي ذلك شقاوة لأن كل فريق قد اتخذ شقاً أي ناحية غير شق صاحبه .

فهؤلاء الذين استحقوا فلق الهاشم واحتزار الرقاب وقطع الأطراف إنما استحقوا ذلك بتصریح القرآن بسبب غلبة العداوة على قلوبهم الله ولرسوله فلا يأمر الله ورسوله بسبيل الا ويسلكون سبيلاً معاذلة معادية .

لقد وجد هؤلاء ليستلي الله بهم المؤمنين واقتضت حكمته جل شأنه ان يذيق هؤلاء الكفراة المؤمنين أنواع البأس والوان العذاب ليقابل المؤمنون بأسمائهم بآثاء وليواجهوا عنادهم وكفرهم واستمساكهم بباطلهم بصبر يغلب عنادهم وثبات على الإيمان يزعزع باطلهم ويصدع قلوبهم .

هذه تعاليم الإسلام واضحة جلية من شاق الله ورسوله فليس له إلا أن يضرب فوق الرقاب ويضرب منه كل بنان فلا هوادة ولا ملائنة بعد أن ييدي الباطل ناجذبه ويكشر الشرعن أنيابه .

ومتي وجد الباطل وجد مسلحاً بأسلحة الشر كلها جامحاً شديداً مستكبراً طاغياً لا يقر ولا يستقر وقد علمنا القرآن الكريم أن نقطع دابرها ونعني على اثره فإن لم نفعل فلننتظر شرّاً كبيراً وبلاه مستطيراً .

قال تعالى «وَمَنْ يَشَاقِقَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» قال ابن كثير هو الطالب جل شأنه بال غالب من خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه .

ولا يقال لل المسلمين اليوم في مجتمعاتهم إنهم ليسوا مشاققين الله ورسوله ذلك أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات الإسلامية من ضرب أو ضروب من الجاهلية التي تتبع جاهليه المذهبية الغربية وتسافى الإسلام وتعارض مبادئه وقواعداته وأسسها ، وأفراد ذلك المجتمع راضون ساكتون لا يبذلون جهداً في تغيير منكر ولا يقدمون في سبيل ذلك عزيزاً .

وهذه الخاتمة التي خلصت بها الآية الكريمة أعني قوله تعالى «وَمَنْ يَشَاقِقَ اللَّهَ

رسوله فإن الله شديد العقاب» لطمئن قلوب المؤمنين وثبت أقدامهم في صراعهم مع الباطل وأهله فهم يعملون في مرضاه الله والله معهم وأهل الباطل يعملون فيما يغضب الله والله منزل عليهم عقابه يحل بهم سخطه . يقول سيد قطب عليه رحمة الله : (قاعدة وسنة لا فلتة ولا مصادفة ، قاعدة وسنة أنه حينما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير الوهبية الله وحده وإقامة منهج الله وحده ثم وقف منها عدو لها موقف المشaque لله ورسوله ، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله ما استقامت العصبة على الطريق واطمأنت إلى ربه وتوكلت عليه وحده) .

ومن الأمثلة التي شاهدتها المؤمنون ما وقع لشركى قريش في بدر، ونخاطب الله جل شأنه المشركين في هذه المناسبة فيقول لهم في كتابه المنزل «ذلكم فذوقوه وأن للكافرین عذاب النار» والمعنى العقاب ذلكم ، والأمر ذلكم الذي وقع بكم وشاهدتموه قوله تعالى فذوقوه كلام مستأنف لزيادة إيلامهم وتبكيتهم وقوله تعالى (وان للكافرین عذاب النار) معطوف على ذلكم فالمعنى العقاب ذلكم الذي عجل لكم في الدنيا والعقاب إن لكم أيضاً أياها الكافرون عذاب النار، وبعد أن ذكر الله جل شأنه انه شديد العقاب بين لهم مثلاً من العقاب في الدنيا وأعلمهم بأنه مشفع بعقارب آخر في الآخرة .

قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار» .

لا فرار يوم الزحف

الزحف مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دبت على مقعده كالصبي أو على ركبتيه ، والمشي بثقل في الحركة واتصال وتقابل في الخطوط كزحف الدبى وهي صغار الجراد قبل طيرانها وزحف العسكر إلى العدو مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم والزحف الجيش ونجمع على زحوف .

الأدبار جمع دبر وهو الخلف ومقابلة القبل وهو القدام ولذلك يمكن بالقبل والدبر من السوءتين وتولية الدبر والأدبار كنایة عن المزحة .

قال ابن كثير : يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً» أي تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم متزاحفاً بعضكم إلى بعض فلا تولوهم الأدبار قال ابن جرير : فلا تفرروا وترتكوا أحسن حبابكم .

ويقول صاحب تفسير المنار: اذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم (كما كان الحال في غزوة بدر) فإن الكفار هم الذين زحفوا من مكة الى المدينة لقتال المؤمنين فشققوهم في بدر) إذا لقيتموهم زاحفين لقتالكم زحفا فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عددا وعدداً . وإذا كان التزاحف من الفبر يقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحرم الفرار والهزيمة أولى ولفظ لقيتموهم زحفا يصلح للأحوال الثلاثة ورجح الأول هنا بقرينة الحال التي نزلت فيها الآية .

والآية الكريمة توحى بأسئلة عدة أولاً ارتباط الآية بما سبقها ومكانها في السورة الكريمة .

والثاني الأحكام الفقهية التي تؤخذ من الآية الكريمة والثالث ما هو موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة .

وللإجابة عن السؤال الأول نقول :

عوقب الأصحاب على سوائهم عن الأنفال في مطلع السورة ووجهوا ذلك التوجيه الرابع إلى تبؤ مراتب اليمان الرفيعة ثم عوتيوا على كراهية فريق منهم لقتال وجدهم رسول الله في شأنه وهو حق أراده الله ثم ذكروا بنعم الله عليهم الجسيمة تذكيرا يعيد إلى الذهن ما وقع من المؤمنين قبل المعركة من رغبتهم في الغلبة على العير ولرادة الله جل شأنه أمراً جلياً يهد للقضاء على الكفر وإخاد أنفاسه ذكروا باستغاثتهم ربهم وذكروا بما غشى قلوبهم من هدوء وطمأنينة وبما ألقى عليهم من النعاس وذكروا بالنظر الذي أنعش قلوبهم وطمأن نفوسهم وظهر أجسادهم وثبت أقدامهم وأذهب عنهم رجس الشيطان وذكروا بأن الله أوحى إلى الملائكة بأنه جل شأنه معهم في نصرة المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين وماذا يكون بعد إمداد الله المؤمنين بالملائكة وأمرهم جل شأنه بضرب الكافرين فوق الرقاب وضرب كل بنان كان من بعد ذلك أيام المؤمنين أيامنا مبينا على ما جربوه وشاهدوه بأن الله معهم في جهادهم للكافرين وبأن الله ناصرهم في كل موقعة يتصدون فيها لإنزال العذاب بال مجرمين وما هي النتيجة التي تترتب على ذلك؟ يترتب على ذلك أن يتقدم المؤمنون للاقاء أعداء الله غير هيابين ولا وجلين ولو كان الأعداء زاحفين زحف الجراد .

هذه النتيجة هي النتيجة الختامية للتجربة الواقعية التي تمت صيغت بنداء موجه

للمؤمنين يعطي حكماً شرعاً و يضع قاعدة فقهية ليس للمؤمن أن يفر من الزحف وليس له أن يفر من لقاء العدو.

ولقد جاء الحكم مدعماً بأدلة التي تؤيده وتبيّن أسبابه ليس للمؤمن أن يفر من لقاء العدو لأن هذا الفرار جبن لا يتصف به المؤمن وأنه خوف من لقاء العدو وحرص على الحياة وجزع من الموت وضعف ثقة بالله وبنصرته ، كل ذلك انطوت عليه الآيات السابقة التي مهدت لهذا الحكم الجليل الذي يجعل التوقي يوم الزحف مما يتوعّد به الله المؤمن بأنه بييء بغضب الله ومأواه جهنم .

إذا كان الله مع المؤمنين وهو ناصرهم ومؤيدتهم فكيف يخالفون عن أمره وكيف يضئون بأرواحهم في سبيله .

وقد أعقب هذا النداء نداءات أربع تؤيد معناه وتدعم غايته ثم ذُكر المؤمنون بما كانوا عليه من قبل من قلة وضعف فآواهم جل شأنه وأيدهم ونصر قضيتهم ونتى دعوتهم وذكروا أيضاً بما كان عليه المشركون من قبل من شدة على المؤمنين ومكرهم بهم وبرسول الله وقد أخزاهم الله اليوم في بدر وأذْهَمُ وكل هذا يؤيد قضية واحدة هي أن يكون المؤمن في امثال مرضاه الله ولن يضيعه الله ولن يخذله .

وتعود الآيات الثانية إلى الغنائم وللوقعة ويعود النداء الثانية بعد ذكر الموقعة إلى القضية الهامة وللمسألة التي كأنها غرض السورة كلها .

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتووا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»
ويعود السياق إلى المشركين وكفرهم وأخذ الله إيمانهم بذنوبهم وتذكر خيانتهم وينادي بالمؤمنين ثلاثة أن يعدوا العدة لمقابلتهم وخضد شوكتهم «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»

ويتخلل ذلك قواعد حربية تتعلق بالسلم وبالأسرى والتحرير على القتال وقوة المؤمنين في مقابلة المشركين وتحتم السورة الكريمة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض ومن هذا الاستعراض يمكن ان تدرك أن الآية التي نحن بصددها هي محور البحث وهي الغرض الرئيسي في السورة كلها .

قال تعالى « ومن يوهم يومئذ ذرته إلا متزحراً لقتال أو متحيزاً إلى فتة فقد باع بغضبه من الله وأماواه جهنم وبئس المصير »

المتزحّر للقتال هو المنحرف من جانب إلى آخر وأصله من الحرف وهو الطرف وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكليف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدريج . والمتّهِي في معناه وهو المتّقل من حيز إلى آخر والحيز المكان وأصل مادته بالواو والحوz المكان يعني حوله حائط .

وانحاز عن القوم اعزّ لهم وانحاز إليهم وتحيز انفسهم والفتة الطائفة من الناس والمأوى الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان وينضم .

وقوله تعالى الا متزحراً لقتال أي متزحراً لمكان من أمكنة القتال رأه أحوج إلى القتال فيه أو متزحراً لضرب من ضروب القتال رأه أبلغ في النكبة بالعدو .

وقوله تعالى أو متحيزاً إلى فتة أي متتنقلاً إلى فتة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج إليه من كان في حيزهم .

وقوله تعالى فقد باع بغضبه الله أي فقد رجع متلبساً بغضبه عظيم من الله عليه .

ومأواه جهنم وبئس المصير ومأواه الذي يلتجأ إليه في الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم كأن المهزوم أراد أن يأوي إلى مكان يأمن فيه من الملائكة فعقوب على ذلك يجعل عاقبته التي يصير إليها دار الملائكة والعذاب الدائم أي جوزي بقصد غرضه من معصية الفرار .

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي وقد جاء التصریح بذلك في أحاديث أصحها عن أبي هريرة مرفوعاً عند الشیخین « اجتنبوا السبع الموبقات (اي المهلّکات) قالوا يا رسول الله وما هن قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقدف المحسنات المؤمنات » .

يقول ابن جریر :

واختلف أهل العلم في حكم الله عز وجل « ومن يوهم يومئذ ذرته إلا متزحراً لقتال أو متحيزاً إلى فتة فقد باع بغضبه من الله وأماواه جهنم » فهو خاص في أهل بدرأه هو في

المؤمنين جيما؟ فقال قوم هو لأهل بدر خاصة لأنه لم يكن لهم أن يترکوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عدوه وينهزوا عنه فاما اليوم فلهم الانهزام ويروي ابن جرير بسناده عن أبي نصرة في قول الله عز وجل ومن يوْمِئْذٍ دُبَرَهُ قَالَ ذَاكَ يَوْمٌ بَدَرٌ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ أَنْ يَنْحَازُوا وَلَوْ انْحَازَ أَحَدٌ لَّمْ يَنْحِزْ إِلَّا إِلَى الْمُشْرِكِينَ .

يقول ابن جرير وقال آخرون بل هذه الآية حكمها عام في كل من ولى الدبر عن العدو منهزاً ويروي ابن جرير بسناده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال اكبر الكبار الشرك بالله ، والفار من الزحف لأن الله عز وجل يقول : « ومن يوْمِئْذٍ دُبَرَهُ فَقَدْ بَاءَ بِغَضْبِ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ » .

قال ابو جعفر وأولى التأویلین في هذه الآية بالصواب عندي قوله من قال حكمها حکم وأنها نزلت في أهل بدر وحكمها ثابت في جميع المؤمنين وان الله حرم على المؤمنين اذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتجرف لقتال او لتحيز الى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الاسلام ، وأن من لا هم الدبر بعد الزحف لقتال منهزاً بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما فقد استوجب من الله وعيده إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

يقول : وإنما قلنا هي حکمة غير منسخة ، لما قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره أنه لا يجوز أن يحکم حکم آية بنسخ ، وله في غير النسخ وجه إلا بمحنة يجب التسلیم لها من خبر يقطع العذر أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حکم قوله الله عز وجل « ومن يوْمِئْذٍ دُبَرَهُ الا مُتَحِرِّفًا لِقتالِ او لِتحِيزِ إِلَى فَئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضْبِ اللَّهِ »

قول ابن العربي

ويقول ابن العربي في احكام القرآن :
اختلف الناس في الفرار يوم الزحف أخصوص هو يوم بدر أم عام في الزحف كلها
إلى يوم القيمة ؟

فروي عن ابي سعيد الخدري أن ذلك يوم بدر، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله وبه قال
نافع والحسن وقتادة ويزيد بن حبيب والضحاك ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن

الآية باقية الى يوم القيمة وانما شذ من شذ بقوله تعالى « ومن يومهم يومئذ دره فظن قوم
أن ذلك اشارة الى يوم بدر وليس به وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف .

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب ، وذهب اليوم بما فيه وقد
ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ان الكبائر كذا ... وعد الفرار
يوم الزحف ، وهذا نص في المسألة يرفع الخلاف ويبيّن الحكم .

والقول الذي لا يحتمل الخلاف في نظرنا ما ذهب اليه ابن جرير وابن العربي وما
نقلاه عن ابن عباس وسائر العلماء بأن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا
التشديد لضخامة الآثار التي يترتب عليها ولمساته بأصل الاعتقاد ولذا كان في التعبير
القرآنی شدة في التحذير وتغليظ في العقوبة ، وتهديد بغضب من الله وإلواء في السعیر .

قال القاسمي في تفسيره : (دلت الآية الكريمة على وجوب مصايرة العدو والثبات
عند القتال وتحرم الفرار من العدو يوم الزحف وعلى أن الفرار من الكبائر لأنه توعد عليه
وعيда شديدا) وإلى أن يقول : (والآية الكريمة تفيد العموم بمعنى أن النبي فيها يشمل
المؤمنين في كل زمان وعلى كل حال إلا في الحالتين اللتين استثنىـا الآية الكريمة . وهذا
القول مروي عن ابن عباس وعليه أكثر الفقهاء) .

وأراد قوم تخصيص حكم الآية في بعض الأحوال دون بعض ورووا عن عطاء أن
حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى (الآن خفف الله عنكم) وهذا ليس لأن النسخ هو
رفع الحكم بدلـيل شرعي والذي ذهب إليه عطاء ليس رفعـا للحكم الوارد في الآية الكريمة
ولكنـه تخصيص له في حال معينة وهي إذا كان عدد الكافـرين لا يزيد عن ضعـفي عدد
المسلمـين فإذا زادـ فالمقاتـلون في مثلـ هذه الحالـ لا يدخلـون فيـ الوعـيدـ الذي جاءـ فيـ الآية
الكريـمةـ إذا لمـ يـشـبـتواـ أـمـامـ الـأـعـدـاءـ وـذـكـرـ مـأـخـوذـ منـ قولـهـ تـعـالـيـ (ـ الآنـ خـفـفـ اللهـ عنـكمـ
وـعـلمـ أـنـ فـيـكـمـ ضـعـفاـ ...ـ الخـ)ـ .

حرمت الآية الكريمة الفرار ولم تحدد عدداً فيؤخذ منها تحريم الفرار على المؤمنين حين
مقابلة المشركين منها كان عدد هؤلاء آية التخفيف في السورة نفسها حددت عدداً
فيحمل المطلق على المقيد والعام على الخاص وليس هذا نسخاً وإن سماه بعض السلف
 بذلك .

قال القاسمي : قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضى بوجوب المصايرة على المؤمنين وإن تضاعف عدد المشركين أضعافاً كثيرة ثم قال تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً » فأوجب الله المصايرة على الواحد للعشرة لأنَّه خير معناه الأمر فلما شق ذلك على المسلمين رحهم الله تعالى وأوجب على الواحد مصايرة الاثنين فقال تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين » .

قال الشافعي رحمه الله : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فتنة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لما أوجب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير تحريف للقتال أو التحيز إلى فتنة .

وروى الشافعي وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر .

وفي المذهب : إن زاد عدد العدو على مثلي عدد المسلمين جاز الفرار لكن إن غالب على ظنهم أنهم لا يهلكون فالأفضل الثبات وإن ظنوا الهلاك فوجهان : أولها يلزم الانصراف لقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) والثاني يستحب ولا يجب لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين فالأصح في المذهب أنه لا يجوز الفرار حتى ولو ظن المسلمين الهلاك أخذًا بظاهر الآية الكريمة .

ويقول الجصاص (١) بأنَّ محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ذكر أنَّ الجيش إذا بلغوا اثنتي عشر ألفاًليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثر عدهم . يقول : ولم يذكر خلاف بين أصحابنا فيه يعني الحنفية واحتج الزهري عن عبيد الله بن عبد الله أنَّ ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير الصحابة أربعة وبخır السرايا أربعمائة وبخیر الجيوش أربعة آلاف ولن يوتى اثنا عشر ألفاً من قلة ولن يغلب وفي بعضها ما غالب قوم يبلغون إثني عشر ألفاً إذا اجتمعت كلمتهم .

وذكر الطحاوي أنَّ مالكا سئل فقيل له أيسعنا التخلف من قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها فقال له مالك إنَّ كان معك إثنا عشر ألفاً مثلك لم يسعك

(١) : في أحكام القرآن ج ٣ ص ٦٠ .

الخلاف والافت في سعة من التخلف وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن والذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في إثنى عشر ألفا فهو أصل في هذا الباب وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا كلامتهم وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم^(١).

يتصل بالحكم الفقهي الذي يؤخذ من الآية الكريمة تحديد معنى التحرف والتحيز وقد أضيف التحرف للقتال وأضيف التحيز إلى فئة فكان في الفتنة التي ينحاز إليها المقاتل بعض خلاف.

قال صاحب المغني ابن قدامة عليه رحمة الله :^(٢)

معنى التحرف للقتال أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن مثل أن ينحاز من مواجهة الشمس أو الرياح إلى استبارها أو من نزلة إلى علو أو من معطشة إلى موضع ماء أو يفر بين أيديهم لتنقض صفوهم أو تفرد خيلهم من رجالهم أو ليجد فيهم فرصة أو ليستند إلى جبل ونحو ذلك مما جرت به عادة أهل الحرب وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يوما في خطبته إذ قال: يأسارية بن زين الجبل . ظلم الذئب من استرعاه الغنم فأناكرها الناس فقال علي رضي الله عنه دعوه فلما نزل سأله عنها قال فلم يعترض به ،

(١) : الحديث رواه أبو داود والترمذى والحاكم عن ابن عباس ورمز له السيوطي بالصحة وقال الترمذى حسن غير بحكم عليه بالصحة لأنه يروى مستندا ومرسلا ومفضلا قال ابن القطان لكن هذا ليس بعلة فالأقرب صحته .

وقال الحاكم في المستدرك (ج ٣ ص ١٠١) : هذا إسناد صحيح على شرط الشعدين ولم يخرجاه خلاف بين الناقلتين فيه عن الزهرى واقره الذهبي على ذلك .

وآخرجه الترمذى (ج ٥ ص ١٦٦) وقال حسن غير بحكم لا يسنه كبير أحد غير جرير بن حازم وإنما روى هذا الحديث عن الزهرى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا وقد رواه حبان بن على العتى عن عقيل عن الزهرى عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الليث ابن سعد عن عقيل عن الزهرى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا .

وبعد هذا نميل إلى الحكم بالضعف على الحديث لأنه مرسل على رواية الثقات الأعلام والذين رووه متصلة لا يخلو حالهم من ضعف فجرير بن حازم يقول فيه ابن حجر ثقة قوله وآه وجان بن علي العتى ضعيف ، والحكم الفقهي الذي يؤخذ من الحديث ليس حكما مقطوعا به بل هو مكان للنظر .

(٢) : ج ٩ ص ٣٠٨ .

وكان قد بعث سارياً إلى ناحية العراق لغزوهم فلما قدم ذلك الجيش أخبروا أنهم لقوا عدوهم يوم الجمعة فظهروا عليهم فسمعوا صوت عمر فتحيزوا إلى الجبل فنجوا من عدوهم فانتصروا عليهم .^(١)

قال ابن قدامة : وأما التحيز إلى فئة أن يصير إلى فئة من المسلمين ليكون معهم فيقوى بهم على عدوهم سواء بعدت المسافة أم قربت .

قال القاضي : لو كانت الفئة بخراسان والفتنة بالحجاز جاز التحيز إليها ونحوه ذكر الشافعي لأن ابن عمر روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إني فئة لكم وكانوا مكان بعيد منه وقال عمر إننا فئة كل مسلم وكان بالمدينة وجيشه بمصر والشام وال伊拉克 وخراسان .^(٢)

وقد ذهب كثير من العلماء أن لقاتل أن يدع فته المقاتلة ويلتحق بفئة أخرى بعيدة أو قريبة وله أيضاً أن يلحق بإمامه ، ولقد نقلنا من قبل قول الصحاك : التحيز إلى فئة الفار إلى النبي وأصحابه وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه وجئ إلى هذا ابن كثير قال من فر من سرية إلى أميره أو إمام المسلمين دخل في هذه الرخصة ثم أورد حديث عبد الله بن عمر .

(١) : سارياً ترجم له ابن حجر وقال ابن عساكر له صحبة ، وقال ولاه عمر ناحية فارس وقال العسكري روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلقه وذكر الواقدي وسيف بن عمر انه كان في الجاهلية عداء يسبق الخيل عدوا على رجليه ثم اسلم وحسن اسلامه ويدرك ابن حجر القصة السابقة ويأتي على سرد أسماء الذين رووها ومحسن بعض اسانيدها ويروي القصة عن ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر .

(٢) : حديث عبد الله بن عمر رواه الإمام أحمد وابو داود والترمذى وغيرهم . ولفظ الترمذى عن عبد الرحمن ابن أبي يعلى عن ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فحاصل الناس حيصة (يعنى انهم فروا من القتال) فقدمنا المدينة فاختبأنا بها وقلنا هلكنا ثم أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله خن الفرارون قال بل انت العكارون (أى انتم العائدون إلى القتال والعاطفون) وإنما فتنكم .

قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا تعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد . ورواية الإمام أحمد عن يزيد بن أبي زياد هذا وكذا رواية أبي داود . ويزيد بن أبي زياد تكلم فيه قوم ويقول بشأن الحديث الشيخ أحمد محمد شاكر استناده صحيح

الارتباط بالقيادة

والسؤال الذي يرد هنا : أحق لفرد من أفراد جيش أرسله الإمام بقيادة قائد إلى جهة ما أن يدع أفراد الجيش ويلتحق بالإمام دون إذن قائده وهو مأمور بالسمع والطاعة لقائده ، لا يعتبر فراره في مثل هذه الحال فراراً من الزحف ، هذا الذي يبدو جلياً أما عودته إلى الإمام فعنها تسلمه نفسه إلى الإمام ليرى فيه رأيه ولينزل به ما يستحق من عقوبة .

ولا يرضى السيد رشيد رضا عن الفهم السابق لمعنى التحiz يقول : تأول بعضهم هذا الحديث (حديث ابن عمر) بتوسيع في التحiz إلى فئة ، لا يقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ويقول : يزيد بن أبي زيد مختلف فيه ، ضعفه الكثرون وقال ابن حبان كان صدوقاً إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فلن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح .

يقول رشيد رضا : وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متنأ ولا سندأ . يقول وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوجد في ميزان هذه المسألة .

والأثر الذي يشير إليه يرويه ابن جرير عن محمد أن عمر رحمة الله عليه بلغه قتل أبي عبيد فقال لو تحيز إلى ! إن كنت لفئة^(١) .

وقد فسر المفسرون قوله تعالى أو متحيزا إلى فئة بقولهم أي منتقلة إلى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم فصاروا أحوج إليه من كان في حيزهم . وهذا يغاير القول السابق .

إن للمقاتل أن يفر من سرية ليلحق بإمامه . والذي يبدو لنا ضرورة التمييز بين الفرد في الجيش والجيش كله . فالفرد من أفراد الجيش ليس له بدون إذن قائده أن يدع إخوانه

(١) : وابو عبيده هو ابن مسعود الثقفي صحابي وهو صاحب يوم الجسر المعروف بجسر أبي عبيده وكان عمر لما ولى الخلافة عزل خالد بن الوليد عن العراق والأئمة وولي ابا عبيده ابن مسعود الثقفي سنة ١٣ ثلث عشرة هـ واما وجه يزد حرد جوشه الى جيش ابي عبيده عبر ابو عبيده الجسر في المضيق فاقتتلوا قتالا شديدا وانكى ابو عبيده في الفرس وضرب ابو عبيده مشفر الفيل فبرك عليه الفيل فقتله ، واستشهد من المسلمين يومئذ الف وثمانمائة ويقال اربعة آلاف ما بين قتيل وغريق .

وقاده ليتحقق بجيش آخر أو يلتحق بالامام ولا لانفروت عقد الجيش وضاع نظامه . أما السرية بكمالها والجيش بقاده وجميع افراده فلهم أن ينسحبوا من وجه العدو إذا أيقنوا بالهلاك أو ضياع أكثرهم ، ونقول ينسحبوا ولا نقول يفروا والانسحاب هو ما فعله خالد رضي الله عنه في غزوة مؤته ، حين أخذ الراية ودافع القوم وحاشى بهم ثم انحر وانحر عنهم حتى انصرف بالناس ، ومع كل هذا فقد كان يفهم أصحاب رسول الله أن هؤلاء قد فروا .

وعلى هذا الفهم نحمل حديث ابن عمر الذي جاء فيه فحاص الناس حيبة وجاء فيه كيف نصنع وقد فرنا من الزحف وبئنا بالغضب والذي يبدو لنا فيه أن السرية بكمالها رجعت إلى رسول الله عليه صلوات الله ولا نفهم مما جاء في الحديث أن فريقا صمدوا للعدو وأخرین فروا وتركوا إخوانهم وقد قال أبو بكر بن العربي في شرحه على الجامع للترمذی بشأن هذا الحديث : يحتمل أن يكون القوم فروا في موضع الفرار يردد فرارا يعذرون فيه فلذلك لم يلهم النبي عليه الصلاة والسلام وتحتمل أنهم فروا في غير موضعه فعفا النبي عليه الصلاة والسلام عنهم والأول أظهر ، أي أنه يوثق أنهم فروا فرارا لا لوم عليهم فيه وعلى هذا الفهم ننزل كلام عمر رضي الله عنه الذي يروى عنه لو تحيز لي أبو عبيد إن كنت لفته وقد كان أبو عبيد قائد الجيش .

قال القاسمي في مسألة الفرار إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده فإن ظن المقاومة لم يحل له الفرار وإن ظن الملائكة جاز الفرار إلى فتنة وإن بعدت إذا لم يقصد الإفلات عن الجهاد وحل عليه حديث ابن عمر المذكور أقول وكل هذا الذي ذكر إذا لم يكن المقاتل فرداً من أفراد جيش منظم فإذا كان كذلك فعليه الاتباع والتزام ما عليه الجيش الذي ينتمي إليه إلى النهاية وأما إذا كان منفرداً أو كان هو قائد الجيش فما ذكر صحيح . يقول القاسمي وعن الكرخي أن الشبات واجب والمصايرة كذلك إلا إذا خشي الاستئصال وعرف عدم نكايته للكافر والتجأ إلى مصر للمسلمين أو جيش وهكذا أطلق فلم يبح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة ولم يعتبر العدد الذي سبق ذكره .

ونجد القول الأخير أقرب إلى الصواب فليس العدد المقياس الأخير للحكم ولا سيما في أيامنا هذه التي توصل الأعداء فيها إلى سبق الصوت وتفجير الذرة والسبح في الفضاء .

وخلاله القول الذي ارتضينا : إذا خشيت الفئة المقاتلة المسلمة الاستئصال وتيقنت في الوقت نفسه أنها ولو استؤصلت لن تبلغ في النكابية بال العدو مبلغاً ذا غناء فلها أن تدع ميدان القتال ولكن لا لاستسلام للعدو ولا لترك الجهاد بل للحاق بأرض أخرى والانضمام إلى فئة أخرى لشق ميدان جديد وفتح جبهة ثانية وكل هذا لا يتم على مستوى الأفراد ولكنه يتم في رأي الجماعة .

وهذه الشروط على غاية من الأهمية ويجب أن تم كلها معاً ومعنى هذه الشروط أن المسلمين لا يمكن أن يستسلموا كاستسلامهم الحاضر ويطمثروا كاطمثثائهم المترن بالذل والموت ولكنهم في حركة دائمة وفكرة دائم وجهاد لا ينقطع .

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ ذبره إلا متزحروا لقتال أو متخيزاً إلى فئة فقد باع بغضب من الله وأماؤه جهنم وبئس المصير» .

ما هو موقف المسلمين من الحكم الإلهي الذي تضمنته الآية الكريمة ؟

تشمل الإجابة نقاطاً أربعة :

أولاً موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة .

وثانياً تربية الأصحاب رضوان الله عليهم تربية بيع النفس في سبيل الله وهذه التربية ذات فرعين أولهما التربية المكية والثانية التربية المدنية .

الثالث موقف المسلمين الحالي من الآية الكريمة .

الرابع ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من الآية الكريمة في الأيام التي يغلب فيها المسلمون على أمرهم .

موقف المسلمين الأولين من الآية الكريمة :

أوجدت الآية الكريمة بندائها الحازم وجوهاً الرهيب وتهديدها المرريع لدى المسلمين الأولين شعوراً بأنه لا يجوز للمؤمن أن يفر من زحف المشركين وإن كان عددهم بعدد

الرمل والخصا وان ملأوا السهل والجبل ، ولم يكن ليقوم في أذهان المؤمنين السابقين في مواطن اللقاء أن العدو أكثر منهم عدداً وأقوى عدداً ذلك لأن النصر بيد الله والغلبة بعونه وأنه لما يخندش في عقيدة المسلم أن يخشى مناجزة الكافرين ، وان كثرة عددهم واشتد بأسهم ، والله تباركت أسماؤه يعتب على المؤمنين أن يخشاوا الناس يقول تعالى «أَتَخْشَوْنِي فَإِنَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ، وفي الآية إنكار وتعجب ووعيد ، وفي قوله تعالى : «فَلِمَا كَتَبْتَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِذَا فَرَّ يَقْرِبُ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخْشَيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدُ خَشْيَةً» تعنيف وزراية بأولئك الذين يخشون الناس والآية الكريمة نفسها تبين سر الضعف قال تعالى :

«وَقَالُوا رَبُّنَا لَمْ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقَتْلَ لَوْلَا أَخْرَتْنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ؟ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ مِنْ أَنْتَقِي وَلَا تَظْلِمُونَ فَتِيلًا» ، مفتاح السر في قوله تعالى متاع الدنيا قليل وعليه مدار الأمر كله .

وهكذا كان أمر الفرار من الزحف متصلاً بالعقيدة اتصالاً واضحاً ذلك أن الباعث له الحرص على متاع الدنيا والزهد في الآخرة ، والثبات يوم الزحف مبعثه الإيمان بقدرة الله جل شأنه وأنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده والطمأنينة إلى نصره والثقة بما عنده وما عند الله خير وأبقى وأن الموت لا يعجل به إقدام ولا يبطئ به قعود ولجاجام .

من هنا كان المسلمين في موئية ثلاثة آلاف ، لما بلغوا معان من أرض الشام بلغتهم أن هرقل قد نزل مأب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي مائة ألف ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

وهنا نجد منطقاً معقولاً لاغبار عليه ولا ثلمة فيه ولكنه لم يوضع موضع التنفيذ وكان العامل في ذلك اقتراح تقدم به عبد الله بن رواحة إذ قام فقال : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة فقال الناس قد صدق والله ابن رواحة فقضى الناس .

وقد استشهد في الموقعة زيد بن حارثة واستشهد جعفر بن أبي طالب واستشهد عبد الله بن رواحة . يروي البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : كنت فيهم في تلك الغزوة فاتقسىنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية .

ولقي الروم من شدة وطأة المسلمين ما جعلهم يرثون من الغنيمة بالإياب وبأن يكف المسلمون عنهم : يقول ابن اسحاق « فحاش خالد الناس ودفع انخاز وانحیز عنه » وهذه المدافعة تشير إلى ما أبدى خالد للعدو من الأساس ، يروي البخاري في صحيحه عن قيس قال سمعت خالد بن الوليد يقول : « لقد دق في يدي يوم موتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية » ويقول البخاري أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذ الراية سيف من سيف الله حتى فتح الله عليهم يقول ابن حجر « فن يومئذ سمي سيف الله » . ثم انحاز خالد رضي الله عنه فرأى الروم في انحيازه متتفسا للضيق الذي كانوا فيه فلما انحاز الأعداء . يقول ابن حجر وقع في المغازي لموسى بن عقبة (وهي أصح المغازي) مانصه : « ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين » ويدو بـأن قوله عليه الصلاة والسلام حتى فتح الله عليه المراد به انحيازه بال المسلمين حتى رجعوا سالمين .^(١)

يقول ابن اسحاق حتى انصرف خالد الناس ووصل المدينة واستقبلهم الناس وجعلوا يخوضون على الجيش التراب ويقولون يا فرار ، فررت في سبيل الله فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وقد ذكرنا حديث ابن عمر رضي الله عنها وقد جاء فيه « فربنا من الزحف وبؤنا بالغضب » وهكذا كان يفهم أصحاب رسول الله أنه لا عذر لهم في الفرار مهما كانت الظروف والأحوال .

(١) : نقل ابن حجر رواية ابن اسحاق بالنص التالي : « فحاش خالد الناس ودفع انخاز وانحیز عنه » وفي اللسان : يحوشهم أي يجمعهم والمعنى على هذا جم أصحابه ودفع الأعداء ثم انحازوا عنهم فانحازوا عنه وعن أصحابه .

تربيـة بـعـد النـفـس لـدى أـصـحـاب رـسـول الله رـضـوان الله عـلـيـهـم

كان الأصحاب في مكة رضوان الله عليهم يمثلون الجماعة التي أخذت على نفسها حماية الحق الذي آمنت به وإن كان من وراء ذلك جفوة الأهل وسخط العشيرة وإن كان من وراء ذلك العذاب والنكال .

وكانت آيات الكتاب الحكيم تقص عليهم نبأ الذين كانوا من قبلهم تفتتح قلوبهم لدعوة الحق والإيمان بالله فيقتئهم الذين كفروا فلا يصرفهم العذاب عن إيمانهم ، كان الأصحاب يتلون تلك الآيات ويعاهدون على الثبات كما ثبت المؤمنون من قبلهم .

ولم تكن نفوسهم تلك النفوس التي ترضى بأن تحتمل ضياء ، ولكنها التربية الحكيمـة الكـاملـة ، الطـاعـة للـه ولـرسـولـهـ والـضـبـطـ والـإـحـكـامـ ، قـيلـ لـهـمـ كـفـواـ أـيـديـكـمـ فـكـفـواـ أـيـديـهـمـ وأـخـذـواـ يـرـوـضـونـ أـنـفـسـهـمـ عـلـىـ الصـبـرـ وـالـأـنـاـةـ وـاحـتـمـالـ جـهـلـ الـجـاهـلـينـ وـبـغـيـ الـطـاغـيـنـ .

ماـذـاـ يـكـوـنـ لـوـأـنـ مـؤـمـنـاـ مـنـ مـؤـمـنـيـنـ غـضـبـ غـضـبـةـ فـيـ سـبـيلـ الـحـقـ يـوـمـذـ فـامـتـدـتـ يـدـهـ إـلـىـ رـأـسـ رـؤـوسـ الـكـفـرـ فـازـالـهـ ، لـوـوـقـعـ شـيـءـ مـنـ ذـلـكـ لـاـخـذـ الـمـشـرـكـوـنـ ذـلـكـ ذـرـيـعـةـ لـإـفـنـاءـ الـمـؤـمـنـيـنـ جـمـيـعـاـ وـهـوـ فـيـ قـلـتـهـمـ حـيـنـذاـكـ .

ولـمـ يـكـنـ مـؤـمـنـوـنـ ذـاكـ الـيـوـمـ فـيـ ذـلـكـ وـلـاـ استـخـذـاءـ وـلـاـ يـأـسـ وـلـاـ وـهـنـ وـلـكـنـهـمـ كـانـوـاـ يـحـتـمـلـوـنـ الـأـذـىـ وـالـمـوـتـ فـيـ سـبـيلـ الـهـ وـعـيـوـهـمـ قـرـيـرـةـ وـقـلـوـبـهـمـ مـطـمـثـةـ إـلـىـ نـصـرـ الـهـ وـنـفـوـسـهـمـ مـسـتـعـلـيـةـ عـلـىـ شـرـكـ الـمـشـرـكـيـنـ وـضـلـاـهـمـ وـفـتـتـهـمـ .

ثـلـاثـةـ عـشـرـ عـاـمـاـ تـمـ فـيـ تـرـبـيـةـ الضـبـطـ وـالـإـحـكـامـ وـتـمـهـدـ لـلـأـعـوـامـ الـعـشـرـ الـمـدـنـيـةـ التـيـ تـلـتـهـاـ التـيـ تـمـ فـيـهاـ فـتـحـ الـجـزـيـرـةـ الـعـرـبـيـةـ وـهـذـهـ تـمـهـدـ لـلـأـعـوـامـ التـيـ تـلـتـهـاـ أـيـضاـ التـيـ اـمـتـدـ فـيـهاـ الـاسـلـامـ إـلـىـ أـقـصـيـ الـمـشـرـقـ وـأـقـصـيـ الـمـغـرـبـ .

انتـهـتـ المـرـحـلـةـ الـأـوـلـىـ بـبـيـعـةـ الـعـقـبـةـ الـكـبـرـىـ حـينـ باـيـعـ أـصـحـابـ الـعـقـبـةـ رـسـولـ الـهـ عـلـيـهـ صـلـوـاتـ الـهـ وـسـلـامـهـ عـلـيـهـ عـلـىـ السـمـعـ وـالـطـاعـةـ فـيـ الـمـنـشـطـ وـالـمـكـرـهـ وـالـعـسـرـ وـالـيـسـرـ وـأـثـرـهـ عـلـيـهـمـ وـأـنـ يـقـولـواـ بـالـحـقـ أـيـنـاـ كـانـوـاـ لـاـ يـخـشـوـنـ فـيـ الـحـقـ لـوـمـةـ لـاـمـ .

وهـنـالـكـ أـذـنـ لـلـذـينـ يـقـاتـلـونـ .

وانتهت المرحلة الأولى وكان الإذن من عند الله العلي القدير.

وإنه لأمر عظيم أن يضع مخطط المعركة الحكيم الخبير وذلك لتظل تلك الفئة المؤمنة نموذجاً في الحياة الإنسانية يتطلع المؤمنون إليه كلما أرادوا العود إلى الحياة الحقيقية.

أذن للذين يقاتلون بسبب أنهم ظلموا ولو أنهم لم يظلموا ولم يفتتوا عن دينهم ولم يخرجوا من ديارهم لما كانت هنالك حاجة لقتال ولكنها سنة الله في خلقه : ما وجد دعاة الحق في قطر من الأقطار أو عصر من الأعصار إلا صُب عليهم العذاب والطرد والإيذاء والاستهزاء وفي حديث عائشة عند البخاري قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لورقة بن نوفل «أو مغرجي هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي».

وفي مدينة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه تربية ثانية يؤخذ بها المؤمنون تختلف عن التربية الأولى قليلاً في مظاهرها واتجاهها لا في روحها وحقيقةها.

كانت التربية الأولى ضبطاً للنفس وصبراً على الأذى وتبليغاً للدعوة وإعداداً للعدة مع حبس دواعي الانطلاق وكف حدة الإقدام أما التربية الثانية فهي تبني على الأسس السابقة ثم تدفع المؤمنين دفعاً قوياً إلى الانطلاق في سبيل الله للضرب على أيدي أعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن.

كان طابع التربية في المدينة طابع الإقدام والموت في سبيل الله وبيع النفس ابتغاء مرضاة الله ليطمئن المؤمنون في ديارهم وليقضي على الشر والشرك والباطل والطاغية وكل هذا يحتاج إلى سهر دائم وتحفز مستمر ودفع قوي وفي كل هذا يجب أن يكون لدى المؤمنين منعة في نفوسهم وقوة في أرواحهم تربأ بهم أن يخلدوا إلى الأرض أو يضعفوا أو يستكينوا.

كان أول ما قرع اسماعهم في المرحلة الثانية الإذن : ، إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وقبل أن يؤذن لهم اعلموا في الآية نفسها ثبيتاً لقلوبهم بأن الله يدافع عن الذين آمنوا وبعد أن أذن لهم بشروا بأن الله على نصرهم لقدير.

وبعد أن أذن لهم وبعد أن بشروا بنصر الله ذكرت لهم أسباب مقاتلته هؤلاء قيل لهم «إن تركتم هؤلاء الآثمين فستهدم بيوت الله التي يذكر فيها اسم الله» (ولولا دفع الله

الناس بعضهم ببعض هدمت صوامعٌ وبئعٌ وصلواتٌ ومساجدٌ يذكر فيها اسم الله كثيراً) وتعود الآيات الكريمة ثانية وثالثة فتطمئن المؤمنين وتقر في قلوبهم السكينة «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» .

والله تبارك اسماؤه خلق هذا الانسان وهو أعلم به يهدى روعه ويسكن فؤاده ويعده جل شأنه ويوثق موعده بأنه معه وبأنه ناصره كأنما يشير بذلك إلى أن ما ركب فيه من ضعف وهلع وجزع بحاجة شديدة إلى التثبت والتأييد والعون الدائم والتطمين .

أذن للمؤمنين في المدينة بالقتال ثم أمروا به ثم نبهوا وهم في غمرة النداء الا يعتدوا فليس الاذن بالقتال إذنا بالاعتداء ، أين هذا من مكر الأعداء الذين يزعمون أنهم تسنموا ذرورة المدينة اليوم حين يعترفون أنفسهم بأنهم للوصول إلى أغراضهم من تسيير الشعوب كما يريدون واللعب بها كما يشاؤون لا يبالون باللجوء إلى وسائل شريفة أو غير شريفة .

أذن بالقتال ثم أمر به وفرض على المسلمين فرضاً فهو أمر في كتاب الله كما فرضت الفرائض وشرعت الأركان ولكن الله الخبير بالنفوس يقول انه شيء مكره وبين جل شأنه أن هذا المكره هو خير . «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تخربوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» .

والجهاد وإن كان مكرهًا من بعض النفوس فهو محظوظ من نفوس أخرى « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاه الله والله رءوف بالعباد » وهو وسيلة دخول الجنة ولا بد للمؤمن من أن تمسه الأساس والضراء ويزلزل زلزالاً شديداً في سبيل الله ، قال تعالى : « ألم حسبتم أن تدخلوا الجنة وما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الأساس والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قریب »

ويحول بين المؤمن وبين الجهاد خوف الموت ولذا ضرب الله للمؤمنين الأمثال في الأمم التي قد خلت : خرج أناس وهو ألف من ديارهم فارين من الموت فأدركهم الموت جميعاً في خروجهم وفي فرارهم ثم أحياهم جل شأنه ليروا معنى الحياة ويدركوا معنى الموت ويتبيّن لهم وللناس من بعدهم أن الموت ليس بذلك الشبح الذي يخافه المؤمن ويجزع للقياه .

« ألم تروا إلى الذين خرجوا من ديارهم وهو ألف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحيائهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وتلا هذه الآية الأمر بالقتال والامر بالإنفاق : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » .

أذن جل شأنه بالقتال ثم أمر به وفرضه على مؤمني المدينة ثم أمر بالإنفاق في سبيل الله وسمى تبارك اسماؤه ترك الإنفاق لقاء باليد إلى التهلكة قال تعالى « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين »

وهذا المفهوم أعني تسمية ترك الإنفاق القاء باليد إلى التهلكة هو الذي تعطيه الآية الكريمة وهو التفسير الذي ذهب إليه أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله في حديث يرويه عنه أبو داود في سنته قال فيه : إنما نزلت هذه الآية فيما معاشر الأنصار لما نصر اللهنبيه وأظهر الإسلام قلنا هلم نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله تعالى : « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فاللقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد ، قال أبو عمران وهو الراوي عن أبي أيوب : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية . اخرجه الترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح .

كل هذه الآيات الكريمة التي تلواناها في سورة البقرة ، وقد جاء في الجزء الأخير من السورة الكريمة دعوة إلى الإنفاق حازمة تتلو من بعض آياتها قوله تعالى « وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا يبع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » ونتلو أيضا « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهر سرا وعلانية لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكان محور السورة الكريمة الجهاد وإنفاق في سبيل الله كما مررتنا من قبل .

وقد ابتدئ نزول هذه السورة الكريمة أي سورة البقرة في السنة الأولى من الهجرة تمهدًا للأيام المقبلة ، وكانت آيات الله تتنزل على المؤمنين فتبليغ قراره نفوسهم و تستقر في أعماق افئتهم حتى إذا كانت السنة الثانية جنى المسلمين ثمرات تلك التربية وكان يوم الفرقان وكان النصر الأكبر .

ولم تنته المهمة ههنا ولكنها بدأ ، يوم بدر و كان يوم الفرقان أول السبيل التي

تشرف على فتح مشارق الأرض ومحاربها ولقد استقر اليمان في قلوب المؤمنين بعد الموقعة
ورأوا بأعينهم نصر الله وأيقنوا أن الله معهم وأن الملائكة تثبيتهم وتويدهم فإذا بعد هذا ؟
ليس بعد اليمان بنصر الله إلا الإعدام وليس للمؤمنين بعد رؤية النصر أن يفروا من موقعة
أو يخشوا عدوا ، وهذا هو حكم الله من عليه سماه حازما صارما يفادي المسلمين ويحكم
عليهم أبد الدهر بأن من يفر من الزحف فقد باع بغضب من الله وماواه جهنم وبئس
المصير . ولم يوضح الحكم بصيغة الأحكام ولكن صور الكافرين وهم زاحفون كموح
البحر والمؤمنون في لقائهم واستقباهم ، وفي هذه الصورة التي تضع المشهد أمام أعين
المؤمنين يأتي الأمر من عند الله بأنه من يوهم دبره في هذه الحال فقد باع بغضب من
الله .

وانه حكم صارم وأمر شديد ولكن المؤمن يتثل أمر الله ويسلم نفسه الى الله وهنالك
تتغير المقاييس ويصبح الصعب سهلا والعسير يسيرا .

ولإذن فلا بد من طاعة الله والتزام أمره ولا بد من السماع لآيات الله بقلوب واعية
وآذان صاغية ، إن هنالك أناساً يسمعون ولكنهم لا يسمعون وينظرون ولكنهم لا ينظرون ،
والله جل ثناؤه يصف هؤلاء ويعيذنا أن نكون منهم إن هؤلاء هم شر الدواب .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانت تسمعون
ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند الله الصنم البكم الذين
لا يعقلون » .

ولايكتفي في الأمر الطاعة فحسب أو دعوى الطاعة ، إن الطاعة الحقيقة لا بد أن
تشمر تلبية واستجابة ، والاستجابة أبلغ من الإجابة فهي طاعة والتزام وامتثال وتعجيل
بالتنفيذ ، وهذه الاستجابة استجابة الله ولرسول إذا دعانا الله ورسوله ، وهذه الاستجابة
فيها الحياة وفي تركها الموت وهذا الحكم ينطبق على كل أمر يأمرنا به الله وكل دعاء
يدعونا اليه .

والأمر هنا عدم الفرار من الزحف . وهذا هو النداء الثاني بعد الأول : « يا أيها الذين
آمنوا استجيبوا لله ولرسول إذا دعاكم لما يحببكم »

ويجب أن يعلم المؤمن أن حق الله على عباده المؤمنين أن يطعوه والعهد اليمى أن يتسلوا أمره فإن لم يفعلوا فقد خانوا الله ورسوله . فجانية أمر الله خيانة وأمره هنا جهاد وموت في سبيله فالجهاد في الآيات الكريمة محور الموضوع وعليه مدار الحديث وتركه خيانة لله ورسوله . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانت تعلمون » وثمرة الطاعة والاستجابة التقوى وثمرة التقوى نور في وجه المؤمن وفي سلوكه وفي قلبه وبصيرته نور يفرق به بين الحق والباطل ويفرق به عن غير أمثاله من المتقين ، وهذا النور سماه الله تعالى فرقانا قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويغفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

وهكذا اتبع النساء الذي يحذر من الفرار يوم الزحف بأربع نداءات متلاحقة تؤيده وتؤكدده تدعوا إلى الطاعة والاستجابة وعدم الخيانة والتقوى .

وفي السياق الكريم يؤمر المؤمنون ثانية بعد آيات أن يثبتوا عند لقاء الكافرين ثم يؤمرون أن يعدوا العدة للقائهم ثم يؤمرون بأن يقابل الواحد منهم عشرة من الأعداء ويخفف الحكم فيجعل للواحد اثنان .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فتنة فاثبتوهواذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم »

وقال تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين »

ولما جاءت السنة الثالثة كان ثمرة هذه التربية ثبات المؤمنين حول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه بعد أن أصابهم القرح وبعد أن تتصدع بناء جيش المسلمين في أحد

وكانت تلك التربية كفيلة بعلم الشعث وإعادة البناء ولو لا فضل الله وثبات رسوله عليه صلوات الله وسلامه وثبات التفر اليسير حوله يبيعون أرواحهم في سبيل الله ويتساقطون عند قدمي رسول الله لما قامت للمؤمنين قامة وتنزلت الآيات الكريمة بعد الموقعة هادبة مرشدة تهيب بالمؤمنين ألا يهنو ولا يحزنوا .

قال تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » وفي السنة الرابعة طرد المؤمنون يهود بنبي النصیر من المدينة ونزلت الآيات مفتتحة بنشيد قدسي ليس فيه ثناء على الظافرین وليس فيه إطراء للفاتحین ولكن الذي يستحق الثناء هو الله وحده .

« سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظلمتم أن يخربوا وظنوا أنهم مانعهم حصولهم من الله فأناهم الله من حيث لم يحتسبوا وقدف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأ بصار » .

وفي السنة الخامسة للهجرة ظهرت ثمرات التربية كلها في موقعة الأحزاب لقد اجتمع العرب جميعاً على المسلمين ورموهم عن قوس واحدة وما كان أحد ليصر كصبرهم على الخوف والشدائد والجوع والبرد كان لي لهم نهاراً وكانوا يبيتون في حراسة المدينة من المشركين ومن اليهود الغادرين ولم تكن موقعة أشد على رسول الله وأخوف على المسلمين من موقعة الأحزاب .

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم رحمة وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأ بصار وبلغت القلوب الخاجر وتظنون بالله الظنو »

هذه خمس سنوات تنقضي في جهاد المؤمنين واستبساطهم ، وهزيمة الأحزاب هي الحد الفاصل بين عهدين أيضاً فقد اعتدلت الكفة وتغيرت الوجهة واصبح المسلمين يُرهبون ولا يُرهبون وهما جمون ولا يُهاجمون قال عليه الصلاة والسلام حين رأى الأحزاب قد انكشفت « اليوم نغزوهم ولا يغزوننا »

وبعد سورة الأحزاب نزلت سورة المتحنة وبعد سورة النساء وفي سورة النساء

دعاة للمؤمنين الإنقاذ إخوانهم المستضعفين المذنبين في مكة .

قال تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالأخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف تؤتيه اجرا عظيما وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظلم أهلها واجعل لنا من لدنك ولينا واجعل لنا من لدنك نصيرا »

وفي السنة السادسة بدأ خطة الإنقاذ وكان صلح الحديبية وكان فتحا مبينا وكان تمهدًا للدخول الناس في دين الله افواجا .

قال تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكُمْ فَتْحًا مِّنْ بَيْنِ أَيْمَانِكُمْ لِيغْفِرَ لَكُمُ اللَّهُ مَا تَقدِمُ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْخُرُ وَمَا تَمْ

عْمَلْتُمْ عَلَيْكُمْ وَهَدَيْكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرُكُمُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا »

وفي السنة السابعة توجه المسلمون من المدينة إلى مشارف الشام لغزو الروم . وفي السنة الشامنة دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكة مع عشرة آلاف من أصحابه خاشعاً الله مطأطئاً رأسه ليرى الذين أخرجوه وقاتلوه ونابدوه ويقول لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وفي السنة التاسعة يعود الكثرة عليه صلوات الله وسلامه في جيش عظيم يقوده بنفسه إلى بلاد الروم ويرسل في ذلك العام أبا بكر ليحج بالناس فيعقبه بعلي يتلو صدراً من سورة براءة ويخبر المشركين بأنه لا يدخل المسجد الحرام بعد اليوم مشركاً ولا يطوف بالبيت عزياناً ومن كان له عهد عند رسول الله فعده إلى أجله وتم الغلبة للMuslimين ويعلي الله كلامه فيتبرأ الله من المشركين ويعطون مهلة مقدارها أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كما يشاون فإذا انتهت الأشهر الأربعة أخذ المشركون وحاصروا وقتلوا وقعد المسلمين لهم كل مرصد .

قال تعالى :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله عجزي الكافرين » والى قوله تعالى « فإذا انسلاخ الأشهر الحرم فاقتلو المشركين حيث وجدتهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

وهكذا ارتفع لواء الاسلام ، وأعلى الله منارته ، وما كان الاسلام دين عبادة فحسب وصلة وصيام وحج وزكاة ولكن قبل هذه الفرائض والى جانب هذه الأركان ، كان حركة دائمة منظمة ترمي الى جمع قوى الخير في الدنيا وتنظيمها لضرب قوى الشر ودفعها وتحطيمها .

وهذا المعنى فقده المسلمين بكل أسف وأضاعوه واستناموا واستكانوا وكفوا ايديهم ورضوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما هي بالصلاحة التي أمر بها الله ولا بالزكاة التي يحبها الله وعدو الله رابض بالقرب منهم يراوغهم مراوغة الشغل ويأخذ في كل يوم جزاً من دينهم ويقطع قطعة من عقيدتهم ويعدهم وينهشون وما يعدهم الشيطان الا غرورا .

وان الدعاة الذين لا يعرضون الاسلام هذا العرض ولا يفهمونه هذا الفهم ولا يبلغونه هذا التبليغ مسؤولون عند الله محاسبون أمام ربهم .

موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة

موقف المسلمين اليوم في البلاد الاسلامية واحد : عدو غاشم يكتسح الديار يوما بعد يوم ويستحل الحرمات الواحدة تلو الأخرى ولا ينقطع عن النكبة والعداوة بكل أصناف النكبة والعداوة ، وهو لا يجد اليوم مباشرا العداء بنفسه ولكنه يعمل خلف الستار يبعث أعوانه ويبث أجناده ويتلاعب بالشعوب .

ومسلمون اليوم قد نسوا أمرا واحدا : صناعة الموت وحرفة القتال .

وان المرحلة التي يمر بها المسلمين اليوم لم يسبق لها مثيل في التاريخ أبدا ذلك أن كيد العدو مابلغ في يوم في إحكامه ونفذه واتساع مداه مابلغ اليوم ، وما بلغ استسلام المسلمين في يوم مابلغه استسلامهم اليوم . . . وما يؤذن كل ذلك إلا باقتراب الفرج ذلك أن الأزمة قد بلغت غايتها والعدو قد بلغ في تطويقه النهاية . . . وه هنا يزداد المؤمن ثقة بالله وبعونه ونصره ويستبشر المؤمن كما كان يستبشر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه حينا تحدق الخطوب وتشتد الكروب .

إن بشائر الأمل لا تنقطع ولكن ساعة الانطلاق لم تؤذن بعد وما زلنا في مرحلة لا يشعر الفرد منها فيها أن عليه أن يحمل التبعه ولو كان وحده ولكننا يوم بعضنا بعضا ويلقي كل منا التبعه على غيره .

وإن الأجيال ستوجه علينا العتاب الطويل وإن الله تبارك أسماؤه سيسألنا كيف
أسلمنا الأمر بآيدينا لخصومنا؟ وكيف سلمنا عن واجبنا وكيف هونا عن عدونا أين
كتاحين سطا الأعداء وماذا فعلنا حين غلب الدخلاء وكيف استقرت بنا الأرض بعد أن
قهروا الأذلاء.

وإن كثيرين من أبناء هذا الجيل الذين أشرفوا على آخر العمر من أمثالى لا يجرون أن
يسمعوا كلمة القتال ولا يروق لهم أن يتحدث عن الجهاد ولقد سمعت اللوم من كثيرين
من عامة الناس وخاصلهم؟ سمعت من كثيرين من الأمثال يقولون : أليس هنالك
موضوع غير الجهاد؟ أليس في الإسلام فريضة إلا فريضة الجهاد؟
كيف يمكن للجهاد وال المسلمين مشتون وقلوهم متفرقة والجهل غالب والبعد عن الروح
الإسلامية عام شامل؟

ألا يشبه حال المسلمين اليوم حال أهل مكة وقد قيل لهم « كفوا ايديكم واقيموا
الصلة وآتوا الزكاة»

وأقول إن العلة الحقيقة هي ماغلب على قلوب المسلمين، علمائهم وعامتهم من حب
للنها وكراهية للموت ، والذي يجعل بيننا وبين العمل في سبيل الله والدعوة الى الله
والصدع بالحق هو الخوف على الدنيا والخوف من الموت .

إن التربية على حب الدنيا وكراهية الموت غرست في قلوبنا واحكم غراسها في
اعماق نفوسنا اتفق على ذلك آباءنا ومعلمونا واخواننا ومجتمعنا ، على ذلك ربينا نحن
أيضاً الأبناء ونشأتنا الأجيال .

إن الجهاد اليوم حق على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض وغارتها وهو موضوع
الساعة وليس هنالك اليوم بعد اليمان بالله وأداء الأركان فريضة آكده من فريضة الجهاد
ذلك أنه الوسيلة اليوم لحفظ إيان المؤمنين وتركه يؤدي إلى ضياع الفرائض كلها إذ يسمح
لأعداء الله بفتنة المسلمين وإخراجهم من دينهم .

ولقد جحّد الإله جل شأنه في الصحف الرسمية في بعض البلاد الإسلامية واستهزئ
به تبارك أسماؤه وتعالي عما يقول الظالمون علواً كبيراً وحرق المسجد الأقصى على مرأى
ومسمع من المسلمين كل ذلك لأن مهابة المسلمين قد نزعت من صدور الكافرين ، ولكن
الأدهى من كل هذا أن تخفيط الأعداء ومكرهم لم ينته عند هذا الحد ذلك أنه ماتزال في

ال المسلمين بقية يخشى الأعداء غواها وعودتها الى أيامها الأولى ولن يطمئن هؤلاء حتى تزول
البقية الباقيه ، ولكن الله غالب على أمره واننا كما نؤمن بأن الله ربنا نؤمن بأن الله ناصر
دينه معلى كلمته وسيكون ذلك بال المسلمين أنفسهم وإن أصابهم اليوم ما أصابهم .
إن الله قد فرض علينا القتال وان المسلمين يدفعون اليوم هذه الفريضة بأعذار واهية
ولو أنهم آمنوا بالله وامتثلوا أمره لوجدوا السبيل لدفع الأعذار وقطع دابرها .

واما القائلون كيف يمكن الجهاز المسلمين مشتتون جاهلون بعيدون من معاني دينهم
والجواب علاج هذه كلها بالدخول في ميادين القتال ، لقد عرف النصارى الصليبيون
الغربيون أنفسهم وجدوا وحدتهم وخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه بعد أن خرجوا من
قتال المسلمين مائتي عام لقد بدأت يقطفهم بعد تلك الأعوام بأعوام يسيرة وكانت نهضتهم
التي استمرت إلى أيامنا هذه .

إن المسلمين لم يشعروا بعد بالنكبات التي حلت بهم والخطر الذي يخفيهم وما تزال
وسائل التخدير ماضية لا تسمع للMuslimين أن يفتحوا عقولهم أو أبصارهم ، ولو شعر
المسلمون بالخطر لاجتمع قلوبهم فليس شيء يجمع القلوب كالمحنة حين تعم .
لم يشعر المسلمين بالمحنة لأنهم لم يدخلوا جميعاً في صف واحد في قتال العدو ولو دخلوا
لشعروا بوطأة المحنـة .

إن العدو اليوم لا يستعمل أسلحته المادية في قتال المسلمين ولكن لديه إلى جانب
ذلك أسلحة نفسية ومكتشفات علمية وهو أمضى من الأسلحة الأولى وغرض الثانية أن
يستسلم المسلمين إلى نومتهم ويظلوا في رقادهم .

إن أعظم ميدان للتربية ميادين القتال ذلك أن الذي قدم نفسه للموت في سبيل الله
واستطاع أن يجاهد نفسه حتى وصل إلى هذه الغاية فهو عليه أي جهاد آخر ففى هذه
الميادين تخلص النفوس وتمحص النوايا وتصدق العزائم وتتصفو القلوب وانه من الخطأ
الكبير أن يقول بعض شباننا الصالحين يجب أن نكمـل تربية نفوسنا لتدخل الميدان بل
الصواب أن يقال يجب أن ندخل نحن المؤمنين الميدان ليتم ايماننا وتكمل تربيتنا .

وأما قول القائلين بأن المسلمين اليوم في مرحلة تشبه المرحلة المكية فهو خطأ من وجوهـه :

أولاً: أن الأصحاب رضوان الله عليهم لم يكونوا في مكة في نوم ولا استسلام لأعداء
الله ولكنهم كانوا في أعلى درجات الجهاد معلين إيمانـهم بالله وكفرهم بالطاغيت

وبأنظمة المجتمع الجاهلي وعقائده وأعرافه منسحبين منه انسحاباً تماماً مخابرين له مجاهرين بازدرائهم إياه خارجين عليه خروجاً تماماً في عقيدته ومثله وأعرافه وتقاليده ولقد كانوا لكل هذا في تحد دائم ، وصبر مستمر على العذاب والأذى والاضطهاد ، لقد صبروا وهاجروا مرتين وأوذوا وقطعوا حتى أكلوا أوراق الشجر.

إن الموضوع اليوم موضوع القتال وإنها ساعة التغير العام وإنها ساعة الجهد والتنافس في الجهاد والساعة التي يجب أن تسرى فيها عدوى الجهاد في قلوب المؤمنين من فئة إلى فئة .

وإن العدو اليوم لا يجد في أمر المسلمين حيرة ولا يجد عناء بل المسلمين اليوم كما يريد الأعداء هادئون مطمئنون يساقون إلى الموت وهم غافلون ولو فزع كل مسلم إلى سلاحه كما أمر الله لتحرير العدو ودهش .

أين المسلمين اليوم من كل هذا في استسلامهم لجاهلية اليوم وسكتهم عنها ومشاركتهم فيها وتأثرهم بها .

لقد كان أصحاب رسول الله في مكة جادين عازمين مصممين و يعدون العدة ويجتمعون القوى ليوم الذي يواجهون فيه العدو ، والمسلمون اليوم في لعب .

ولابد من الخروج من دور اللعب ودور الأمانى إلى دور الجد والعزم والاستخفاف بالموت وهنالك يضع المسلمون قدمهم على الجادة التي لا عثار فيها .

الأمر الثاني : إن الله قد أتم دينه وأكمل نعمته وحد حدوده وفرض فرائضه وأحكم شريعته وحكم القتال اليوم في شرعة الله فرض عين في رقبة كل مسلم من تركه كان مخالفًا لأمر الله واقعًا في الإثم ، والقتال في المرحلة المكية كان منها عنه لم يؤذن به ولم يسمح للمؤمنين فكيف يصح أن تقاس الحال التي لم يفرض فيها القتال ولم يؤذن به بالحال التي يكون القتال فيها فرضاً عيناً من قصر فيه كان من أهل الإثم والوعيد .

الأمر الثالث : كان عدد الأصحاب في العهد المكي لا يزيد عن بضع مئات وعدد المسلمين اليوم سبعمائة مليون كلهم رجالاً ونساء شباباً وشيوخاً فرض الله جل شأنه عليهم القتال فرض عين في هذه الساعات الرهيبة فكيف تقاس مئات الملايين على بضع مئين ؟

ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين اليوم من الآية الكريمة يبيّنه قوله تعالى:
«وتلك الأيام نداوها بين الناس ولیعلم الله الذين آمنوا ویتخد منکم شهداء والله لا
يحب الظالمن ولیمحض الله الذين آمنوا ویحق الكافرین»

كل أمر في هذا الكون لا يتم الا بتدبیره جل شأنه وتقديره وفي كل ذلك تحاط
الواقع بحكمته ويتخللها مته وكرمه ورحمته ومن الحوادث أن يرفع أقواماً جل شأنه ويضع
آخرين ، وقد يكون أولئك الذين رفعهم وأعلى أوليائهم أنصار الباطل دعاة الشر ، وما يرفع
الله ألوية هؤلاء لأنهم أثيرون لديه جل شأنه (والله لا يحب الظالمن) ولكن الموضوع أمر
آخر هو أنه لابد من أن تنفذ سنن الله في مخلوقاته والآية التي سبقت هذه الآية هي قوله
تعالى (قد خلت من قبلكم سنن فسروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)
فللأمم سن وللمجتمعات قوانين وضعها الخالق الباري جل شأنه ومن أمثلة هذه السنن
قوله تعالى «ويذا أردنا أن نهلك قرية أمننا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمناها
تدميرا» والآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن المترفين هم الآلة المسخرة بيد القدرة
الإلهية لتدمير قرية وإفقاء أمة . والمترفون هم الذين يجمعون بين النعمة والرخاء والتوسع
في ملاذ الدنيا وشهواتها وقد أبطرتهم النعمة وأطغتهم الشهوات ووسيلة هؤلاء الفسق وهو
الخروج عن طاعة الله جل شأنه .

والآيات الكريمة نزلت بعد غزوة أحد وقد كان النصر فيها للمؤمنين ولكن أسباباً
وقد حولت ميزان النصر وغيّرت اتجاه الغلبة وأضع المسلمون النصر وكان الأمر لهم
فأصبح عليهم وأسباب جلية فيها أخبر به تعالى من أن الله صدق المؤمنين وعده فأخذوا
بقتل المشركين وأخاد أنفاسهم ثم حدث أمر توجّه الآية الكريمة قال تعالى : «حتى اذا
فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منکم من يرید الدنيا ومنکم
من يرید الآخرة »

حين وقع الفشل وهو الكسل والضعف والترخي والجبن ، والتنازع والعصيان وإرادة
الدنيا أضعاف النصر أصحاب رسول الله .

وهكذا ترشد الآيات الكريمة الى ان الله سنتاً اجتماعية تطبق على المجتمعات
الإسلامية وعلى غير المجتمعات الإسلامية وأن هنالك شروطاً إذا أضاعتها الجماعات

المسلمة فقدت قيادتها وأسلمت القيادة إلى أعدائها .

ولكن الآية الكريمة ترشد إلى أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو مندرج في سنن الله جل شأنه ونظامه الكوني وهو أن المحن والشدائد التي تصيب المسلمين ليست شرًا كلها وحين يغلب المسلمون ويدال عليهم فليس معنى ذلك أن الأمة قد تهادى منها .

إن للشدائد غرضًا هاماً جداً أن توقظ العيون النائمة وتُوجّح الضمائر الهادئه وتثير إيمان ذوي الإيمان فتدفعهم إلى الوقوف أمام الباطل لمناجزته .

وهنا تقدم الصحايا وتقدم الشهداء ويميز الله الخبيث من الطيب ويعلو صوت الإيمان وتشتد الأمور حتى يدرك الخطر الجميع وحينما يضيق الخناق ويشعر الأفراد جميعاً بشدة وطأة الأعداء تنطلق الصيحات مستغيثة مستجيرة وتشرب الأنفاس لترى تباشير النصر وتطلع القلوب لتنظر آفاق الأمل وهنالك تتقدم طلائع الإيمان تستقبل الموت وتحمل في أعماق نفوسها الثقة والرجاء والأمل .

«وتلك الأيام نداوها بين الناس» هذه الكلمات اليسيرة تنطوي على تقلبات الأيام وعاديات الزمان وتشير إلى التاريخ الطويل في حساب الناس حين تصل أمة إلى الذروة ثم تطرأ عليها الطوارئ وتعصف بها العواصف فتتغير القلوب على مر الزمن وتبدل النفوس وتنحدر الأمة ثم تفيق من غفوتها فإذا هي مستذلة مغلوبة مقهورة .

فداولة الأيام يقدرها الله حكم يعلمها جل شأنه .

وقد أشاد تبارك اسماؤه بذكر صفين من الناس يعلو شأنهم في أيام الشدائـد وتسـمو مكانـتهم أولـئـك المؤـمنـون والـشـهـداءـ قالـ تعالىـ : «ولـيـعـلـمـ الـذـينـ آـمـنـواـ وـيـتـخـذـ منـكـمـ شـهـداءـ» .

وهكذا كان من حكمة الشدائـدـ التي تصـيبـ الأـمـةـ أنـ يـعـلـمـ حالـ الـذـينـ آـمـنـواـ وـأـنـ يـتـكـرمـ اللهـ جـلـ شـانـهـ فـيـتـخـذـ الشـهـداءـ مـنـهـمـ كـمـاـ يـتـخـذـ أحـدـناـ الأـصـفـيـاءـ وـالـأـخـلـاءـ وـالـلهـ المـثـلـ الأـعـلـىـ .

وان الآية الكريمة لجدية بأن تدفع المؤمنين دفعاً قوياً إلى إدراك مراميها والعمل بهديها .

والآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال التي يدار فيـهاـ علىـ المؤـمنـينـ وـيـغـلـبـونـ عـلـىـ أـمـرـهـمـ فـلـهـاـ أـغـرـاضـ كـرـيـعـةـ فيـ ثـنـايـاـ هـدـيـهاـ :

الفرض الأول أن يعلم المؤمنون أن الله سنتا لا تختلف فالعاملون المجدون يجبنون ثمرات عملهم والخاسرون الفاشلون الذين لا يعملون والذين ينتظرون فرج الله ويرجون بزعمهم نصراً دون أن يبذلوا جهداً أو مالاً أو نفساً هؤلاء يكذبون على أنفسهم وبخادعونها ويتجاهلون أن نصر الله لا يكون إلا من ينصر الله.

الفرض الثاني أن يعلم المؤمن أن الشدائـد التي تصيب المؤمنين يريـد الله جـل شأنـه بها تمـحيص قـلوب المؤمنـين بـتنقـية الضـمـائـر من الأـغـارـض الـدـنيـوـيـة وـالـمـنـافـع الـشـخـصـيـة وـتـطـهـير النـفـوس من أـوـشـابـها بـرـجـوعـها بـسـبـبـ الشـدـائـدـ إـلـىـ رـهـاـ وـاخـلاـصـهاـ لـخـالـقـهاـ ، وـبـعـدـ ذـلـكـ كـلـهـ يـرـيـدـ اللهـ جـلـ شـانـهـ أـنـ يـتـبـارـىـ المـؤـمـنـونـ وـيـتـقـدـمـ الـمـخـلـصـونـ الـذـينـ هـمـ طـلـاثـ الخـيرـ وـرـوـادـ الـحـقـ وـوـسـيـلـةـ إـنـقـاذـ الـأـمـةـ .

إن الشدائـدـ تـخـرـجـ أـبـطـالـاـ وـتـقـدـمـ رـجـالـاـ يـنـسـونـ أـنـفـسـهـمـ وـمـصـالـحـهـمـ وـيـدـعـونـ أـغـارـضـهـمـ وـيـعـمـلـونـ فيـ سـبـيلـ اللهـ وـيـرـضـىـ عـنـهـمـ اللهـ جـلـ شـانـهـ وـيـرـضـىـ عـنـهـمـ النـاسـ وـيـعـلـيـ اللهـ شـأنـهـمـ وـيـكـثـرـ أـتـبـاعـهـمـ وـيـنـصـرـ اللهـ بـهـمـ ، كلـ هـذـهـ الـمعـانـيـ مـنـدـرـجـةـ فيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : «ـ وـلـيـعـلـمـ اللهـ الـذـينـ آـمـنـواـ وـيـتـخـذـ مـنـكـمـ شـهـادـهـ »ـ وـفـيـ قـوـلـهـ : «ـ وـلـيـحـصـ اللهـ الـذـينـ آـمـنـواـ وـيـعـقـ الـكـافـرـينـ »ـ

والفرض الثالث من هـدـيـ الآـيـاتـ الـكـرـيمـةـ أـلـاـ يـتـسـرـبـ الـوـهـنـ فيـ السـاعـاتـ الـرـهـيـبةـ إلىـ قـلـوبـ المـؤـمـنـونـ وـلـاـ يـغـلـبـ عـلـيـهـمـ الـحـزـنـ وـلـاـ يـجـدـ الـيـأسـ إـلـيـهاـ سـيـلاـ .

إن الـوـهـنـ منـ صـفـاتـ النـفـوسـ الـضـعـيفـةـ التـيـ عـدـمـتـ ثـقـةـ بـنـفـسـهـاـ وـضـعـفـتـ صـلـتهاـ بـخـالـقـهاـ وـلـمـ يـكـنـ لـدـيـهاـ ذـلـكـ الـإـدـرـاكـ الـنـافـذـ وـالـنـظـرـ الثـاقـبـ وـالـرـأـيـ الـحـصـيـفـ وـلـمـ يـكـنـ لـدـيـهاـ ذـلـكـ الـضـمـيرـ النـقـيـ الـخـالـصـ وـتـلـكـ الـعـزـيـةـ الـمـاضـيـةـ،ـ تـلـكـ هـيـ النـفـوسـ التـيـ غـلـبـتـ عـلـيـهاـ شـهـوـاتـهـاـ .

أماـ النـفـوسـ الـمـؤـمـنةـ فـهـيـ النـفـوسـ الـوـاعـيـةـ الـيـقـظـةـ الـمـدـرـكـةـ النـقـيـةـ الـخـالـصـةـ التـيـ تـؤـمـنـ بـأـنـ الـأـمـورـمـهـاـ عـظـمـتـ فـهـيـ حـقـيرـةـ بـجـانـبـ عـونـ اللهـ ، وـهـذـهـ النـفـوسـ هـيـ التـيـ غـلـبـتـ عـلـيـهاـ اـيمـانـهـاـ فـلـاـ تـهـنـ وـلـاـ تـخـرـنـ وـتـؤـمـنـ أـنـهـاـ الـغـالـبـةـ الـمـسـتـعـلـيـةـ باـذـنـ اللهـ .

لاـ يـجـوزـ لـمـؤـمـنـ أـنـ يـتـسـرـبـ الـوـهـنـ إـلـىـ قـلـبـهـ.ـ وـالـسـبـيلـ لـذـلـكـ أـنـ يـكـونـ معـ الـفـتـةـ الـمـؤـمـنةـ

تلك الفئة التي ذكرها رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ووصفها لعلم الناس ما يجب أن يكونوا عليه في أيام الشدائـد والخطوب قال عليه الصلاة والسلام « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيمة » والرواية الثانية في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتـهم الساعة وهم على ذلك » .

وكثير من المسلمين يظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم من الطائفة التي ذكر رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ولكن المؤمن فطن لقن يحسن محاسبة نفسه ولا تغره دعاؤها وفي هذه الروايات الثلاث وصفت الطائفة بأنها تقاتل على الحق وبأنها غالبة .

وأقول ، أفراد هذه الطائفة هم المؤمنون وهم الشهداء الذين ذكر الله تباركـت اسماؤه وهؤلاء لا يهـنون ولا يحزنون وهم الأعلـون .

الغرض الرابع في هـدي الآيات الكـريمة أن يعلم المؤمنون أن أيام الشدائـد لا بد فيها من تضحيـات في الأموال والأنفس قال تعالى (ام حسـبـت ان تدخلـوا الجنة ولـما يـعـلم اللهـ الذين جـاهـدوا مـنـكـمـ وـيـعـلـمـ الصـابـرـينـ) .

ويـتصـلـ بـهـذاـ انـ يـرىـ المؤـمنـ الحـيـاةـ رـخـيـصـةـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ وـانـ يـصـدـقـ فـيـ عـدـمـ خـوـفـهـ منـ المـوـتـ فـاـذـاـ اـدـعـىـ أـنـ لـاـ يـخـافـ المـوـتـ فـيـ سـاعـاتـ الـأـمـنـ فـيـجـبـ اـنـ يـصـدـقـ قـوـلـهـ فـعـلـهـ فـيـ سـاعـاتـ الـلـقـاءـ .ـ قـالـ تـعـالـىـ :ـ «ـ وـلـقـدـ كـنـتـمـ تـمـنـيـنـ الـمـوـتـ مـنـ قـبـلـ أـنـ تـلـقـوـهـ فـقـدـ رـأـيـتـمـوـهـ وـانـتـ تـنـظـرـوـنـ »ـ .ـ

ويـؤـكـدـ عـدـمـ الـخـوـفـ مـنـ الـمـوـتـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ «ـ وـمـاـ كـانـ لـنـفـسـ أـنـ تـمـوتـ إـلـاـ يـأـذـنـ اللهـ كـتـابـاـ مـؤـجـلـاـ وـمـنـ يـرـدـ ثـوـابـ الدـنـيـاـ نـوـيـهـ مـنـهـ وـمـنـ يـرـدـ ثـوـابـ الـآـخـرـةـ نـوـيـهـ مـنـهـ وـسـنـجـزـيـ الشـاكـرـينـ »ـ .ـ

الغرض الخامس في هـدي الآيات الكـريمة في السـاعـاتـ التيـ يـدـالـ فـيـهاـ عـلـىـ المؤـمنـينـ أـنـهـ لـاـ عـذـرـ لـلـمـؤـمـنـينـ فـيـ قـوـلـهـ لـيـسـ لـنـاـ قـيـادـةـ نـقـاتـلـ تـحـتـ لـوـائـهـ وـلـاـ نـعـرـفـ جـمـاعـةـ نـطـمـئـنـ إـلـىـ الـانـضـمـاءـ تـحـتـ رـايـتهاـ لـاـ عـذـرـ لـهـمـ فـيـ ذـلـكـ لـأـنـ أـصـحـابـ رسولـ اللهـ حـينـ قـعـدـ بـعـضـهـمـ وـتـرـكـواـ الـقـتـالـ فـيـ غـزـوـةـ أـحـدـ حـينـ نـادـيـ مـنـادـ بـأـنـ حـمـداـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ وـالـسـلـامـ قـدـ مـاتـ عـنـفـواـ عـلـىـ قـعـودـهـمـ وـعـوـتـبـواـ عـتـابـاـ شـدـيدـاـ قـالـ تـعـالـىـ :ـ «ـ وـمـاـ حـمـدـ الـرـسـولـ قـدـ خـلـتـ مـنـ

قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » .

والغرض الآخر في هذه الآيات الكريمة؛ التأكيد على وجود الطبيعة وأنصار الحق الذين يتقدموه ويستبقون الناس. وصفات هؤلاء أنهم ربيعون غلبت عليهم النسبة لله جل شأنه لا يشار جانب الله عندهم على كل جانب سواه لا يهون ولا يضعفون ولا يستكينون . قال تعالى : « وَكَأْنِيْنَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِيْوْنَ كَثِيرًا وَهُنَوْا لَا أَصَابُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعَفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبُّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذَنْبُنَا وَإِسْرَافُنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَتَ أَقْدَامُنَا وَانْصَرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

والخلاصة أن الأمة لا ينchezها في مثل هذه الأيام إلا طبيعة تتصرف بصفات المؤمنين والشهداء تجمع شمل المؤمنين وتكون مع الصادقين تدعوا إلى الله وتحتمل أنواع الأذى في سبيل ذلك .

قال تعالى :
« فَلَمْ تَقْتُلُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »

يقول السيد رشيد في تفسيره :
كأنه تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَا تَوْلُوا الْكُفَّارَ ظَهُورَكُمْ فِي الْقَتْالِ أَبْدًا أَنْتُمُ أُولَئِنَّا بِالشَّبَابِ وَالصَّبَرِ ثُمَّ بِنَصْرِ اللَّهِ فَهَا أَنْتُمُ أُولَاءِ قَدْ انتصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ عَلَى قَلْتَهُمْ وَعَدْدَكُمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَاسْتَعْدَادُهُمْ وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ لَكُمْ وَرَبْطُهُ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَتَشْبِيهُ أَقْدَامِكُمْ ، فَلَمْ تَقْتُلُهُمْ ذَلِكَ الْقَتْلُ الْذَّرِيعَ بِمَحْضِ قُوَّتِكُمْ وَاسْتَعْدَادِكُمُ الْمَادِيِّ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ تَشْبِيهِ قُلُوبِكُمْ وَإِمْدادِكُمْ بِالْمَلَائِكَةِ وَإِلَقاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ » .
فالآية بمعنى قوله « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وبخزفهم وينصركم عليهم »

وقال ابن كثير :
يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم وهذا قال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أي ليس بمحولكم وقوتكم قتلتكم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عدكم أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما

قال (ولقد نصركم الله بيدروأنت اذلة) .

وقال المفسرون الفاء جواب شرط مقدر، والتقدير اذا كان الأمر كذلك فلم تقتلواهم بقوتكم وقدرتكم واذا كان الله جل شأنه هو الذي أخرج رسوله من بيته وهو الذي أراد أمراً غير الذي أراده المؤمنون حين أرادوا الفوز بالغير وأراد الله أن يحق الحق وهو جل شأنه الذي غشاهم النعاس وأنزل عليهم الماء من السماء يطهرهم ويثبت أقدامهم وهو الذي أ美的هم بالملائكة وأوحى إليهم أن ثبتو الذين آمنوا والقى الرعب في قلوب الذين كفروا ، اذا كان الله جل شأنه برحمته قد يسر كل هذا فما الذي فعله المؤمنون وما هي مكانتهم في هذا الأمر العظيم الذي تم ؟ أجاب تباركت أسماؤه بقوله : « فلم تقتلواهم ولكن الله قتلهم »

الآية ذات غرضين

والإجابة الكريمة تنزع من المؤمن غروره أولاً وتدفعه دفعاً قوياً في مواطن البأس التي يرضي بها الله ثانياً .

وهكذا كانت الآية الكريمة ذات غرض مزدوج وكانت تربيتها للمؤمنين في موطنين : أولها موطن الظفر تطمئن من غلواء المؤمن وكثيراً ما ساعده النصر وثانيها في موطن الإقدام تدفع بالمؤمن دفعاً لا تردد فيه ولا وجع .

ومن أجل هذا كان ارتباطها بكل ما سبق وبالآية التي قبلها ارتباطاً وثيقاً عكساً فهي خلاصة ما جاء في الآيات الكريمة من ذكر من الله وعونته وهي لذلك من تمام الدفع الذي جاء في الآية التي سبقتها دفع المؤمنين للهجوم على أعداء الله والاستبسال في ذلك . وأنه لعجب أمر المؤمن في صلته بالذي خلقه فهو :

١ - يبذل نفسه يقدم مهجته في سبيل الله رب الخلاق مصدر الحب والرحمة باذل الفضل ناصر الحق .

٢ - والمؤمن في بذلك هذا لا يستقل بإرادته ولا يصدر عن رأيه ولكن يعتمد كل حركة من حركاته وكل نفس من أنفاسه من الذي خلقه ويؤمن بأن الأمر له جل شأنه فهو يتبرأ من حوله وقوته ويلجأ إلى حول الله وقوته ويؤمن بأن الذي تم كله إنما هو بإرادة الله وتدبره .

٣ - وحين يكتب له النصر فالنصر من عند الله وقد صنع بيد الله ليس للمؤمن منه إلا أنه جل شأنه اختاره موضعاً لإنفاذ إرادته ومكاناً لإتمام أمره فهو الذي هدى قلبه وربط جأشه وقوى عزيمته .

٤ - فالمؤمن أداة بيد الله يسير قلبه ويملك ناصيته ويوجه جل شأنه إرادته ويده . وهذا المعنى يحمل المؤمن على الإقدام في أمر الله وليس أمر الله بالهوى ولا اللعب ولكن الحق والخير يقدم المؤمن على أمر الله راضياً مطمئناً لا يتردد ولا يختلف ولا يخشى لأنّه إنما يفعل ما يرید الله ولأن الله معه يرعاه فكل ما يصيّبه من أذى فالله جل شأنه أولى بعونه .

٥ - وهذا الاعتقاد دافع للمؤمن قبل الإقدام دفعاً قوياً ينزع من نفسه كل جبن ضعف وتردد ثم إنّه بعد الفوز ينادي لست الظافر بقدرتك ولست المنتصر بقوتك ولكن هنالك قدرة الله وقوته قد يسّرت لك أسباب الفوز والنجاة فاسجد للذي أعنك ويسرك وهكذا يطأطئ المسلم الفاتح رأسه خاشعاً لله متواضعاً أمام عظمته .

٦ - وليس معنى كل ما سبق أن المؤمنين أشباح لا أرواح فيها وصور لا معنى لها وجهادات لا إرادة تحرّكها ليس شيء من ذلك كذلك ولكنهم ذوقوا قلوب ربط الله عليها وثبّتها وذووا إرادات قواها الله وأيدها وذووا عزائم شحذها الله وأمضوها .

وقد أودع الله جل شأنه كل نفس من القوى والطاقة ما لا يعرف حدوده ومدّاه الذي برأه فلدى العبد قدرة وقّوة وإرادة منحها إياه القادر القوي المرشد .

ولكن أكثر الناس يستمرون الكسل ويسلمون أنفسهم إلى الأرض ويعيشون لشهواتهم الرخيصة ومحرصون على دنيا مهينة لا تعدل جناح بعوضة فتفسد القيم الحقيقة لديهم ولا يدركون الحق حقاً ولا الباطل باطلًا وهؤلاء لا يعرفون جهاداً ولا يغرسون بقتال وتظل قواهم التي أودعها الله في نفوسهم معطلة وطاقتهم دفينة .

أما المؤمنون فيدركون المعاني السامية يدركون معاني الخير والحق والمثل القوية فتملاً قلوبهم ويعيشون للنضال في سبيل الحق ...

وهؤلاء تنطلق قواهم وتتوسّع طاقاتهم كاملة في موضع العمل والتنفيذ .

فالقوى من عند الله والاستعدادات من خلقه و اختيار العبد يتم بصنعه وكسبه
واجتهاده يشعر به كما يشعر بوجوده ولا يرضى انسان بأن يوصف بفقدان الإرادة والاختيار
ذلك أن فقدانها لغير الانسان السوى .

ولا يزال العبد في امتحان وابتلاء يصارع هواه ويجادل شهواته فإن غلبها بجouال الله سار
في ركب عباد الله المقربين وكان في زمرة المخلصين .

والامر معجز لمن أراد الوصول الى كنه وكشف سره وكيف ينماح للمخلوق ان يعرف
سر الخالق وكنه تدبيرة والحججة قائمة وخير للعبد أن ينصرف لجهاده ولما خلق له من ان
يشغل نفسه بما لا يعنيه ولا يجديه نفعا .
« وما رميتك إذ رميت ولكن الله رمى »

روى ابن جرير وابن كثير قالا: قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يديه يوم بدر فقال « يا رب ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد في
الأرض أبداً » فقال له جبريل « خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم » فما
من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخر يه وفه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

وعن السدي قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم حين التقى الجماعان يوم بدر
لعلي « اعطي حصا من الأرض » فناوله حصا عليه تراب فرمى به ووجه القوم ، فلم يبق
مشرك الا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ثم ردهم المؤمنون يقتلونهم
ويأسرونهم فذكر تعالى رمية النبي صلي الله عليه وسلم فقال « فلم يقتلوكم ولكن الله
قتلهم وما رميتك إذ رميت ولكن الله رمى »

وقال ابو معشر المدني عن محمد بن قيس و محمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم
بعضهم من بعض أخذ رسول الله صلي الله عليه وسلم قبضة من تراب فرمى بها في وجه
ال القوم وقال شاهت الوجوه ! فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله صلي الله
عليه وسلم يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلي الله عليه وسلم
وأنزل الله « وما رميتك إذ رميت ولكن الله رمى »

قرن جل شأنه في الآية الكريمة بين فعلين أولهما صدر عن رسول الله عليه صلوات الله
سلامه فأمر خارق ومعجزة تمت بأمر الله وعونه وأما فعل الأصحاب وهوقتل المشركين

فأمر جرت به العادة وألفه الناس وإن كان الغريب فيه انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة .

وهذا الاقتران بين الموضوعين يوحى بمعان منها أن كل ما يتم إنما يتم بأمر الله سواء في ذلك الأمور الخارقة للعادة والأمور المعتادة المألوفة فليست الأمور الخارقة للعادة وحدها من صنع الله ولكن كل ما يتم سواء أكان من صنع البشر أو من غير صنعهم إنما يتم بأمره « والله خلقكم وما تعملون » .

الأمور الخارقة التي تبدو لنا غريبة معجزة ليست الأمور المعتادة المألوفة بأقل منها غرابة وإعجازا ولو أن إنسانا عاقلا قيل له إن بذرة صغيرة تلقي في الأرض ستكون منها بعد قليل شجرة عظيمة باسقة ذات أغصان وفروع لا تستبعد ذلك وكذبه فإذا قيل له إن هذه النطفة التي أقيمت في الرحم سيكون منها بعد قليل إنسان مثلك يفكرو يغضبو وعلاء الدنيا خيراً وبراً أو يعيث في الأرض فسادا وملؤها شرا وبطرا لأنكر ذلك واستبعده وليس أمر النطفة بأقل إعجازا من حفنة من تراب يرمي بها رسول الله فيصيب بها عيون ألف من البشر .

كان قتل المؤمنين للمشركين أمراً داخلاً في نطاق القدرة البشرية ورمي الرسول وأصابته العيون جميعاً أمراً بعيداً كل البعد عن الطاقة البشرية وقد قرن بين الأمرين ليستوتحق الذين آمنوا بأن الفرق بينهما ضئيل جداً في ميزان الإرادة الإلهية والتدبر الإلهي ، والكتاب الحكيم بدقة أسلوبه واحكامه تعبيره يقرن بينهما ليعلم أنها في الأصل لا يختلفان ثم يتتأمل المتأمل فإذا التعبيران متمايزان وتمايز التعبير بين ليعطي فرقاً دقيقاً بين المعنين أما التمايز ففي أمرين أولهما أن رمي الرسول عليه صلوات الله وسلامه وجوه المشركين لم يذكر له مفعول فقال تعالى « وما رميت » في شأن الرسول وفي شأن الأصحاب « فلم تقتلواهم » وفي ذكر المفعول هنا إيناس للسامع وإشارة بأن القتل الذي وقع من الأصحاب هو قتل قد أوقعه المسلمون بالمشركين بإيقاعاً محسوساً مشاهداً ولكن رمي الرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان مشاهداً ولكن يد القدرة الحقيقة كانت من ورائه ولذا نفي أصل الرمي عن الرسول عليه الصلاة والسلام ولم ينف أصل القتل بالنسبة للمؤمنين ولكن نفي تعلقه ليؤدي المعنى الذي سبق وخلاصته أن قتلكم المشركين المشاهد المحسوس لست أنت الفاعلين له حقيقة ولكن الفاعل الحقيقي هو الله الذي أوجد أسبابه وأراد إيقاعه

فاجانب البشري في قتل المؤمنين للمشركين أشد ظهورا من رمي الرسول وجوه المشركين .

والأمر الثاني قيل بشأن الرسول « وما رميت إذ رميت » ولم يقل بشأن الأصحاب « فلم تقتلوا حين قتلت » إذ المعنى رميتك التي رميتك لست أنت الذي رميتك فهو نفي للمشاهد المحسوس ولو قال ما قتلت حين قتلت لكن تناقضه لأنه يكون نفيا للقتل المحسوس المشاهد ولا يصح ذلك إذ المراد في حق الأصحاب إثبات القتل المشاهد ونفي كون المؤمنين هم الفاعلين له حقيقة وبالنسبة لرمي الرسول عليه الصلاة والسلام نفي الرمي حتى المشاهد المحسوس منه لأنه كان معجزة وراء الأسباب الظاهرة . وهكذا اجتمع الموضوعان وافترا ، اجتمعا في الأصل وافترا في الفروع وهذا إعجاز الله جل شأنه في خلقه وفي كتابه .

الآية الكريمة تدل على صدق الروايات التي وردت في موضوع رمية الرسول عليه صلوات الله وسلامه في غزوة بدر والروايات التي سبقت أسانيدها صحيحة لا غبار عليها وإن التأمل ليعجب لما لقيت الفتنة القليلة المستضعفة من عناء الله ومته وجزيل إحسانه ، غشاهم النعاس وأنزل الله عليهم من السماء ماء ثبت به أقدام المسلمين وكان الماء عذاباً على الكافرين وأمدhem بالملائكة ثبت قلوبهم وأوحى جل شأنه إلى الملائكة أنه معهم وأنه سيلقي الرعب في قلوب الكافرين وأمر الملائكة بضرب الرؤوس وتقطيق هام المشركين وحز رقابهم وبعد هذا كله أوحى إلى نبيه أن يرمي المشركين بالتراب والخباء فلا يبقى شرك إلا وقد دخل التراب في عينيه وفه ومنخر يه . التراب في العيون والفرع في القلوب والملائكة تقبل من السماء ، لقد أطبقت المصائب إطياقا فلم تدع لهم متنفسا .

كل هذا لأن الفتنة القليلة أمتثلت أمر الله وأطاعت رسوله وانتهى به الأمر إلى ساعة من ساعات الشدة التي يفرغ فيها المؤمن إلى الله ويستغيث من يحبب المضطر إذا دعاه فكان ما كان من عون الله ولطفه وحسن رعايته أما الذين يأتون اليوم إلى فراشهم آمنين رافلين بالنعمة لا هين عن المصيبة يسألون الله بالسنتهم لا بقلوبهم أن يدفع كيد الظالمين وهم في منازلهم دون أن يصل إليهم أذى ودون أن يمسهم سوء هؤلاء قد زين الشيطان أعمالهم وصرفهم عن فهم كتاب ربهم وطاعته وامتثال أمره .

قال تعالى :

«وليبلی المؤمنین منه بلاء حسنا إن الله سميع علم ذلکم وأن الله موهن کید الكافرین».

خلق الله جل شأنه الموت والحياة ليبلو الناس أیهم أحسن عملا ولذا كان غرض الحياة الجهاد وليس لخلوق لا يناضل مكان فوق الأرض ، وأشرف أنواع الجهاد الجهاد في سبيل الحق ، ولا يزال الصراع قائما لا ينقطع ولا يهدأ بين أولياء الرحمن وأعدائه ، والمؤمن في كنف الله ورعايته وهب نفسه لخالقه وقدم حياته في سبيله والله أشد ما يكون يثبت قلوبهم ويطمئن نفوسهم بأنه معهم ... ذلك أن المجاهد في سبيل الله أشد ما يكون حاجة إلى رعاية الله تثبت فؤاده وترتبط على قلبه وهذا غرض القرآن دفع المؤمنين إلى الجهاد ثم تشبيت قلوبهم ففي كل طائفة من آيات الكتاب نداء للمؤمنين بأنه جل شأنه معهم وأنه ناصرهم وخاذل أعدائهم ومذنبهم .

كل ذلك ليثوب قلب المؤمن إلى ربه ولتسكن نفسه إلى خالقها وليتقدم في سبيل الله لا يعرف عجزا ولا وهنا .

والآية الكريمة التي نحن بصددها تصرخ بال المسلمين بأن الله جل شأنه قتل الكافرین في الموقعة التي تمت وهوقاتلهم في كل موقعة يتقابل فيها الفريقان: المؤمنون وهم صادقون مخلصون والكافرون وهم مستكبرون ظالمون .

ثم قال تعالى : «وليبلی المؤمنین منه بلاء حسناً» .

أي أنه جل شأنه فعل ما ذكر لأمور يقدرها النظر منها : إقامة حجته وتأييد رسوله ولبيبلی المؤمنین منه بلاء حسنا بالنصر والغنية وحسن السمعة ، وبالسيء ، فهو يستعمل في الخير والشر على حد قوله تعالى فيبني إسرائيل «وبلوناهم بالحسنات والسيئات»

وقد أفسر ابن جرير الآية بأثر رويه عن ابن اسحاق عن عروة بن الزبير قال أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه وليشكروا بذلك نعمته .

وقال ابو السعود : ليبلی المؤمنین أي ليعطیهم من عنده جل شأنه (بلاء حسنا) أي عطاهم جيلاً غير مشوب بمقاساة الشدائـد والمكاره .

والتقدير رمى جل شأنه ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين .

قال في اللسان :

أبلى بمعنى أخبر وفي حديث أم سلمة : إن من أصحابي من لا يراني بعد أن فارقني فقال لها عمر بالله أمنهم أنا ؟ قالت لا ولن أبلى أحداً بعدهك أي لا أخبر بعدهك أحداً وأصله من قوله أبليت فلاتا يميناً إذا حلفت له بيمين طيبتك بها نفسك .

ثم قال :

والله تعالى يبلي العبد بلاء حسناً ويليه بلاء سيئاً وفي الحديث: اللهم لا تبلنا إلا بالتي هي أحسن أي لا تختبرنا . ويقال أبلاه يبليه بلاء حسناً إذا صنع به صنعاً جيلاً .

والبلاء الإنعام والإحسان والبلاء الاسم وهو الإنعام يقال: أبلاه بلاء حسناً وأبلته معروفاً وأبلاه خيراً بلاء أي صنعت به خيراً الصنيع .

وعلى هذا فأبلى بمعنى أخبر وبمعنى امتحن وبمعنى أنعم وأحسن وقد اختار الزمخشري الثالث ففسر ليبلي بلاء حسناً بقوله ليعطي عطاء جيلاً وتابعه أبو السعود في ذلك الكلمة في أصل معناها تفاصيل الاختيار والامتحان وقد ضمن معنى العطاء ولذا كان البلاء بمعنى النعمة كما في الآية الكريمة وبحيء بمعنى النعمة .

والآية الكريمة تشعر بالإحسان من قبل الله جل شأنه وتشعر بالاختبار بالإحسان ليظل المؤمن في حال الإحسان إليه يقظ الضمير واعي الفؤاد لا يسترسل في النعمة ولا يرکن إلى البحبوحة ولكنه يرى في أعماق نفسه أنه مبتلى بها ، موضوع تحت الاختبار والتجربة .

وهكذا لا يغفل المؤمنون ساعة النصر عن ذكر الله ولا ينسون شكر نعمته ويزدادون إيماناً بحمل رسالة الحق ويزدادون إيماناً في تقديم أنفسهم في سبيلها ، وذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى «إن الله سمِع عَلِيْم» فهو جل شأنه سمِع الدُّعَاء عَلِيْمَ بْنَ يَسِيرٍ النصر والغلب ، وقد سمع جل شأنه استغاثة المؤمنين ربهم ودعائهم إياه وحده وعلم صدقهم وإخلاصهم وهو جل شأنه سمِع لكل دُعَاء ونداء يصدر منهم بعد ذلك اليوم ومن إخوانهم الذين يأتون من بعدهم وهو يسمع تبارك اسماؤه نداء المسلمين اليوم وهو عَلِيْم بما تنطوي عليه نفوسهم من ضعف ووهن ولن يغير الله ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قال تعالى «ذلکم وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنٌ كِيدُ الْكَافِرِينَ» :

الأمر ذلکم الذي سبق والذي رأيتم وعلمتم في كل نزاع بين الحق والباطل والإیان والکفر، ينصر الله الإیان ويعلي کلمة الحق والأمر ذلکم الذي تحقق لدیکم أیها المؤمنون إعزاز دینه ونصر کلمته والأمر أيضاً أن الله موہن أي مضعف کید الكافرین يقول ابن کثیر وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف کید الكافرین مصغر أمرهم وتأکید في أثر تأکید ونص صريح بأن الله مع المؤمنين وأن کید الكافرین منها عظم فآل إلى الدمار وقد بلغ کید أعداء الإسلام اليوم غایته تستم ذروته وأضحى المسلمين يکادون يرتابون في وعد الله ويکادون لا يصدقون بأن هؤلاء الذين ملكوا البحار والسهول والجبال وبلغ غزوهم الفضاء ما بلغ قد تكون ساعة دمارهم قريبة جداً فھي قوة مادية تبهر الانظار وتأخذ بالألباب ولكنها ليست مقتنة بالأمن ولا بالسلام بل هي قوة تجعل العالم كله على برکان مستعر لا يدرى متى تنطلق حمه وتنفذ نيرانه ومما بلغ إليه حال المسلمين فبقية الخير لا تزال كامنة فيهم والحق الأبلج لا يزال فيها انطوى عليه كتابهم والأمل الوحيد في انتباھتهم .

قال تعالى «إِن تَسْتَفْتُحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَانْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدُ وَلَنْ تَغْنِيَ عَنْكُمْ فَشَيْئًا وَلَوْ كَثُرْتُ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» .

روى ابن جریر وابن کثیر عن عبد الله بن ثعلبة بن صعیر العدوی حلیف بنی زهرة أن المستفتح يومئذ أبو جهل وأنه قال حين التقى القوم : «أینا أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحننه الغدة» فكان ذلك استفتاحه فأنزل الله في ذلك «إِن تَسْتَفْتُحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ» الآية ^(۱) .

(۱) قال الشيخ احمد محمد شاکری تعلیقه على تفسیر ابن جریر : «عبد الله بن ثعلبة بن صعیر العدوی مسح رسول الله صلی الله علیه وسلم وجهه ورأسه زمان الفتتح وقال ابو حاتم : رأى النبي صلی الله علیه وسلم وهو صغير»

وقال البخاري في التاریخ : «عبد الله بن ثعلبة عن النبي صلی الله علیه وسلم مرسل إلا أن يكون عن ابیه وهو أشهـ (وقد ذكرت ترجمته في الإصابة والتہذیب ، وأسد الغابـة ، والاستیعاب) . وهذا الخبر رواه ابن اسحاق عن الزهـري ورواه احمد في مسنده (۵ : ۴۳۱) عن ابن اسحاق عن الزهـري . ورواه الحاکـم في المستدرک (۲ : ۳۲۸) عن محمد بن اسحاق عن الزهـري . وقال «هذا حديث صحيح على شرط الشیخین ولم یخرجـاه» وواقـهـ الذہـیـ . وقولـمـ أـحـنـهـ أـیـ أـهـلـکـهـ من حـانـ الرـجـلـ أـیـ هـلـکـ وـأـحـانـهـ اللـهـ أـهـلـکـهـ .

وروى ابن جرير عن السدي قال : كان المشركون حين خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا : « اللهم انصر أعز الجندين ، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين » فقال الله « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » يقول نصرت ما قلتم وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى ابن جرير عن يزيد بن رومان وغيره قال : قال ابو جهل يوم بدر بالله انصر احب الدينين اليك ديننا العتيق أم دينهم الحديث فأنزل الله : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح »

يقول رشيد رضا وهذا يدل على أن أبو جهل كان مغروراً بشركته واثقاً بيدينه ولم يكن أكثر أكابر مجرمي مكة كذلك بل كان كفراً وعلوًّا وحسداً للنبي صلى الله عليه وسلم وأقول هذا الذي ذكر من الكبر والعلو والحسد إنما كان يتمثل في أبي جهل في أقوى درجاته أليس هو القائل (١) حين سُئل عما سمع من رسول الله عليه صلوات الله وسلمه من القرآن : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه من السماء فتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه » .

ولعل استفتاح أبي جهل ودعاهه السابق إنما كان عليه عليه الغرور والتفاهم أمام أصحابه وأتباعه بأنه ما يريد إلا الحق وما يبغي إلا الخير وقد سبق إلى هذا فرعون إذ قال للملأ من قومه « ما أرىكم إلا ما أرى وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد » وهذا شأن أنصار الباطل اليوم يحملون شعارات هم أبعد الناس عنها وينادون بمبادئ هم أعدى أعدائها ينادون بجمع شمل الأمة وهم الذين مزقوا شملها ويدعون أنهم ينتصرون الحرية وهم يطمسون معالمها .

يقول صاحب النار :

وقيل إن الخطاب في الآية للمؤمنين كسابقه ولا حقه والمعنى إن تستنصروا ربكم وتستغشيوه عند شعوركم بالضعف والقلة فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة بما يأمر به الرسول ومجادلته في الحق بعد ما تبين فهو خير لكم ، وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهيج العدو ولن تغرنكم كثرةكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فها نحن أولاً قد ناصرناكم على قتلكم وضعفكם . يقول هذا أقوى من كل ما

(١) : ابن هشام ج ١ ص ٣٦

رأينا في تصوير المعنى فأكثر ما قاله ظاهر التكليف ولو لا السياق لكان المعنى الأول أرجح لأنّه أظهر. ويقول صديق حسن خان ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى قوله تعالى (ولن تغنى عنكم فتكم شيئاً) و يأباه أيضاً «وأن الله مع المؤمنين» وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكليف.

أقول و يؤيد المعنى الأول الروايات الكثيرة التي سبق ذكرها وفيها ما هو على شرط الصحيحين كما أشرنا و يؤيده السياق أيضاً إذ الكلام متصل تمام الاتصال بالآيات التي سبقت وهي توهين كيد المشركين.

سياق الآيات التي سبقت فيها امتن الله به على المؤمنين من إمدادهم بكل الوسائل المادية والمعنوية التي انتهت إلى الغلب على أعدائهم وقد وضعت الآية الكريمة حكماً بأن الأمر كذلك في كل موقعة يواجه فيها المؤمنون الصادقون المخلصون أعداء الله ونصت الآية الكريمة على أنه تبارك أسماؤه موهن أمر الكافرين وكيدهم وقد كانت الموقعة نفسها أعظم موهن لكيد الكافرين . فلقد كان من ثمراتها رعب ملأ قلوب المشركين ولازم افتدتهم و كان من ثمراتها أن استيقن الذين عاشوا من المشركين بعد الموقعة أن ما كان يحدثهم به زعماء الكفر وطواحيت الضلال أبو جهل وأصحابه من انتصارهم على أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه ما كان لا غروها ولعل أبلغ ما وقع من ذلك استفتح أبي جهل ودعاؤه عند عزيمته على القتال بأن ينصر الله فته . لقد استفتح وجاءه الفتح وكان فتحاً إلى مقره في جهنم وليس من شك في أن المشركين أنفسهم كانوا يتحدّثون بكل ما قال أبو جهل وبكل أنواع كيده وتغريبه وقد انتهى كله إلى ما انتهى إليه أبو جهل وهذا أكبر الوهن في صفوف المشركين فالآية مرتبطة بأوثق رباط بالآية التي سبقتها والحديث كله موجه إلى المؤمنين يتخلله شئون تتصل بالمشركين .

ذكر جل شأنه في الآية الأولى أنه موهن كيد الكافرین ثم التفت الخطاب للمشركين بذكرهم باستفتحهم ، والاستفتح الاستنصر وفي الحديث انه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بهم والرواية التي جاء فيها اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر تؤيد هذا المعنى ومعها الرواية الثانية التي جاء فيها اللهم انصر احب الفتىين إليك ، يقول صاحب لسان العرب : ويجوز أن يكون معناه إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء . يقول وقد جاء التفسير بالمعنىين جميعاً . روى أن أبو جهل قال يومئذ : اللهم

أقطعنا للرحم وأفسدنا للجماعة فأحنه اليوم فسأل الله ان يحكم بمحين من كان كذلك ، فنصر الله النبى صلى الله عليه وسلم وناله هو الحين يقول صاحب اللسان وكل القولين جيد .

التفت الخطاب للمشركين يذكرهم باستفاحتهم ولم يكن التذكير بصورة الأخبار ولكنه جاء بصيغة الشرط والاستفهام وكان الجواب تهكمًا بالغا غايتها فقد جاءهم الفتح الذي طلبوه وكان الفتح الذي توقعوا ما رجعوا به من ذل وانكسار وصغار ، وفي هذا تشبيط لعزم المشركين ليس بعده تشبيط وتيئيس لهم ، وكل ذلك توهين لكيدهم ولضعف لأمرهم .

وبعد هذا كله فباب الرجوع إلى الحق مفتوح أمامهم ولا تألوا الآيات الكريمة جهدا في دعوتهم إلى نبذ ضلالهم قال تعالى : « ولن تنتها فهو خير لكم » يقول ابن جرير معناه يامعشر قريش وجاءة الكفار إن تنتها عن الكفر بالله ورسوله وقتال نبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به « فهو خير لكم » في دنياكم وآخركم ، ودعوة الناصح لا بد فيها من قول مريح ولا بد من بيان عاقبة البطل إذا أصر على باطله وكان عازماً على الاستمرار في شروره قال تعالى « وإن تعودوا نعد » أي إن تعودوا لحربه عليه الصلاة والسلام وقتاله وقتال أتباعه نعد لمثل الواقعة التي أوقعتكم يوم بدر .

« ولن تغرنى عنكم فتشكم شيئاً ولو كثرت » والفتنة الطائفة يقول ابن جرير : وإن تعودوا نعد هلاككم بأيدي أولياء الله وهزيمتكم ولن تغرنى عنكم عند العود إلى قتلكم وسيبكم « فتشكم شيئاً ولو كثرت » أي جندكم وجماعتكم كما لم يغروا شيئاً يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين « وأن الله مع المؤمنين » يقول جل ذكره وإن الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم ينصرهم عليهم ويظهرهم كما أظهراهم يوم بدر على المشركين والمهزة مفتوحة والتقدير لأن الله مع المؤمنين كان كل ما ذكر .

وبعد هذا كله أفلأ يجد بالمؤمنين أن يكونوا حزب الله وأنصار رسوله أفلأ يجد بهم أن يسمعوا ويطيعوا وألا يتولوا عن أمر الله وأمر رسوله وهم معرضون يسمعون وكأنهم لا يسمعون . وإنها لصورة من أشنع الصور وأقبحها أن يسمع المؤمن نداء الله يناديه باسمه ثم يضم أذنيه وينكس رأسه ويمضي في سبيله صامتاً متتجاهلاً أن النداء نداء القاهر فوق

عبادة وأن الصمت صمت القسوة والغفلة والإعراض إعراض العناد، وأن هذا الذي يدعى الإيمان ويسمع نداء الله ثم يضم أذنيه هو جامد القلب متبدل الحس يخشى أن تكون هنالك وصلة بينه وبين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وهؤلاء عند الله شر مخلوق يدب على وجه الأرض.

«يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند الله الصنم البكم الذين لا يعقلون».

بعد الذي سبق كله ، من الآيات البينة والوعود الصادقة والتثبت والتأييد وأنه جل شأنه مع المؤمنين بعد هذا كله ينادي الله المؤمنين بقوله : «يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله».

إنه نداء الحليم الرحيم المشفق على أوليائه أن يتصرفوا في حال من الأحوال بصفات الصنم عن سماع الحق ، البكم عن النطق به ، والدعوة إليه ، الذين لا يعقلون للحق معنى ، ولا يدركون له غرضا .

إنه نداء المشفق على أوليائه المخدر لهم الذي يخشى أن يقع من بعضهم شيء مما يقع من أولئك الذين يخالفونهم في الإيمان وبيانونهم في إدراك الحق أولئك الذين فارقوا صفات البشرية وانخطوا إلى أدنى الدركات واستحقوا أن يوصفوا بأنهم شر الدواب : إنهم ينظرون ولكنهم لا يصرون ويسمعون ولكنهم لا يعون ويفكررون ولكنهم لا يعقلون «لهم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» . وإن الذين يحملون اسم الإيمان إذا سمعوا نداء الله ونداء رسوله فتولوا وأعرضوا عنه فشأنهم شأن الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون .

والأمر بطاعة الله في أمر الجهاد فهو موضوع الآيات وعليه يدور الحديث .

نهى الله المؤمنين عن التولي وهو الانصراف والإعراض قال تعالى (ولا تولوا عنه) أي عن الرسول لأن طاعة الرسول عليه صلوات الله وسلامه من طاعة الله ، قال تعالى (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) ، : نهى الله المؤمنين عن التولي والحال أنهم يسمعون ما يتلى عليهم من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وفيها الأمر بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره وهم يصدقون بها وليسوا كالصم البكم .

والسماع هنا سمع الفهم والتصديق والإذعان الذي هو شأن المؤمنين الذين يقولون «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» الذي يصفهم جل شأنه بقوله «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

وحذر الله المؤمنين أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون قال تعالى « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » هؤلاء هم اليهود والمركون المعاندون والمنافقون . وقد قال تبارك اسماؤه في الفريق الأول « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليها بالسنتهم وطعننا في الدين ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بکفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » وقال تعالى في المنافقين « ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟ »

نهى الله المؤمنين أن يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وبين جل شأنه أن هؤلاء هم الصم البكم الذين لا يعقلون وهم شر الدواب قال تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » الدواب جمع دابة وهي كل ما يدب على وجه الأرض قال تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » وقيل يستعمل هذا اللفظ (الدواب) في الإنسان وحده وإنما يغلب في الحشرات ودواب الركوب فإذا استعمل في الدلالة على الإنسان كما هو الشأن في الآية الكريمة فهو يشعر بالاحتقار ، على أن إطلاق الدابة على الإنسان حقيقة لا بجاز ، جاء في المصباح الدابة كل حيوان في الأرض مميزا أو غير مميز . والمعنى على هذا إن شر ما يدب على الأرض في حكم الله جل شأنه هم الأشرار من البشر « الصم » الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا بفقد منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته « البكم » الذين لا يقولون الحق كأنهم فقدوا قوة النطق « الذين لا يعقلون » أى فقدوا فضيلة العقل الذى يميز بين الحق والباطل ويفرق بين الخير والشر .

قال القرطبي :
دللت الآية على أن قول المؤمن سمعت وأطعت لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه

بامثال فعله فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها واعتمد النواهي فاقتصرت حكمها فأي سمع عنده وأي طاعة؟ وإنما يكون حينئذ منزلة المنافق الذي يظهر الإيمان ويسرك الكفر وذلك هو المراد بقوله «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» يعني بذلك المنافقين أو اليهود أو المشركين . ثم أخبر الله تعالى أن الكفار شر ما دب على الأرض . وفي البخاري عن ابن عباس «إن شر الدواب عند الله الصنم البكم الذين لا يعقلون» قال لهم نفر من بنى عبد الدار .

والآية الكريمة تشير إلى موضوع هام يتصل بهذه النفوس البشرية وموقفها من كلمة الحق فبعض النفوس إذا استمعت إلى نداء الحق كانت كالأرض الخصبة الندية الطيبة تهش للفكرة الصالحة كما تهش الأرض الطيبة قطرة العرش ثم تهتز وتربو ثم تنبت أطيب النبات . تتقبل الأرض الطيبة قطرة العرش فتدخل في ثناياها وتحتلط في أجزائها وتتحدد وعناصرها وتكون وحدة متداخلة متمازجة لا يمكن فك عنصر منها من العناصر الأخرى ومن هذا الامتزاج يتغذى النبات وينمو ويزدهر ويشمر . وبعض النفوس إذا استمعت إلى صرخة الحق كانت كالأرض الصلبة القاسية تمسكت ذراتها وغلفت قشرتها فهي لا تسمح بقطرة تسفل إلى داخلها وذرات القطر منها انهرت فوقها لا تلبث أن تمر على قشرتها وتزول على سطحها .

وهكذا تدخل دعوة الحق إلى بعض النفوس فتتغلغل في ثناياها وتحتلط بأجزائها وتتحدد بعناصرها وتتصبح جزءاً من النفس فعالاً مؤثراً فيها دافعاً قوياً بل قد تهيمن الفكرة على النفس حتى تكون شغل المرء الشاغل ليله ونهاره غدوه ورواحه وتتصبح غاية الجهد وأمل الحياة .

وهكذا تلقى أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه دعوة الإيمان ، فتحروا لها قلوبهم فاستقرت في أعماقها واحتللت بأجزائها وعاشوا من أجلها وماتوا في سبيلها . وصد عن دعوة الحق أكابر مجرمي قريش فلم يفهموا لها معنى ولم يفتحوا لها قلباً ولم يسمحوا لقطرة من دعوة الحق أن تجد سبيلاً إلى نفوسهم ولم يقتصروا على ذلك ولكنهم صدوا الناس عنها وبذلوا دماءهم في حرها ومات كثير منهم وقلوبهم خواء مظلمة .

لم يقبل بعض الناس دعوة الحق ولم يعرض عنها آخرون ، يقابل كل انسان كل دعوة

تعرض عليه وكل فكرة تقدم إليه بالرصيد النفسي الذي لديه والرصيد النفسي يتكون من المواهب التي منحها الله جل شأنه كل إنسان والاستعدادات التي فطر الله كل انسان عليها يضاف إلى ذلك البيئة التي يعيش فيها الإنسان والظروف التي يتقلب فيها والتربيـة التي يتلقاها . وكل هذه العوامل والأسباب تجعل الناس مختلفين متباهين بكل انسان عالم مستقل لا يصل إلى داخله إلا صاحبه ولا يدرى بحقيقة إلا الذي خلقه وصوره فإذا أقيـنا فكرة واحدة على عشرين انساناً قبلها كل إنسان تقبلاً خاصاً وفهمها فهمها خاصـاً وكان لدينا مقابل فكرة واحدة يعرضها إنسان واحد عشرون فهمها يتقارب بعضها ويتباعد بعضها الآخر حسب تقارب الأفراد في الذكاء وظروف الحياة والتربيـة والثقافة .

إنك لتلقي فكرة على جهور من الناس بعد بالمئات فتجد أن الذين استجابوا لك استجابة تامة وفهموا عنك فهمها تماماً لا يكادون يجاوزون أصابع اليد وهكذا كانت استجابة قريش لدعوة رسول الله عليه صـلوات الله وسلامـه .

يتقبل المرء الفكرة بالرصيد النفسي الذي لديه وتنزل الفكرة فتجد أفكاراً سابقة وعواطف متعددة واستعداداً خاصـاً فإما أن تجد لها مكاناً بين هذا كله وإنما أن تبـذـ وتسـبعـ وتـطـرـحـ ، فالـفـكـرـةـ الجـديـدـةـ كـقـادـمـ جـديـدـ يـأـتـيـ جـمـاعـةـ إـمـاـ أنـ يـجـدـ الإـلـفـ لـدـيـهـ وـحـسـنـ الصـحـبـةـ فـيـأـلـفـ وـيـؤـلـفـ إـمـاـ أنـ يـجـدـ فـيـهـ جـفـوـةـ وـيـجـدـوـ فـيـهـ نـبـوـةـ فـيـلـفـظـوـهـ وـيـعـدـوـهـ .

ومن كل هذا يتـبـينـ أـثـرـ الرـصـيدـ النـفـسـيـ فـيـ تـقـبـلـ دـعـوـةـ تـطـرقـ بـابـ نـفـسـ مـنـ التـفـوسـ فـهـيـ إـمـاـ أنـ تـجـدـ لـهـ أـنـصـارـاـ وـأـعـواـنـاـ وـمـعـارـفـ إـمـاـ أنـ تـجـدـ أـعـدـاءـ مـنـابـذـينـ مـنـكـرـينـ .

والـذـيـ نـشـءـ عـلـىـ الجـشـعـ وـالـطـمـعـ وـالـخـرـصـ عـلـىـ دـنـيـاهـ وـمـلـذـاتـهـ وـمـنـافـعـهـ مـاـذـاـ يـكـونـ مـوقـفـهـ إـذـاـ دـعـيـ لـلـخـرـوجـ مـنـ مـالـهـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ أـوـ تـقـدـيمـ نـفـسـهـ أـوـ وـلـدـهـ ؟ـ لـاـ تـجـدـ هـذـهـ الدـعـوـةـ أـنـصـارـاـ فـيـ نـفـسـهـ وـلـاـ تـجـدـ لـهـ مـكـانـاـ فـيـ قـلـبـهـ وـهـيـ دـعـوـةـ حـقـ يـجـبـ أـنـ تـنـفـذـ وـلـكـنـ النـفـسـ تـأـبـاـهـاـ وـلـاـ تـأـلـفـهـاـ ،ـ فـهـيـ وـإـنـ كـانـتـ حـقـاـ فـلـتـجـدـ النـفـسـ التـعـلـاتـ لـلـخـرـوجـ مـنـهـاـ .

عرض عتبـةـ بنـ رـبـيـعـةـ عـلـىـ رـسـولـ اللهـ أـمـرـاـ وـهـوـ يـرجـوـ أـنـ يـقـبـلـ عـلـىـ صـلـواتـ اللهـ وـسـلامـهـ بـعـضـهـاـ وـيـكـفـ عـنـ دـعـوـتـهـ إـلـىـ عـبـادـةـ اللهـ وـحـدـهـ .ـ عـرـضـ عـلـىـ المـالـ وـعـرـضـ عـلـىـ الجـاهـ وـالـسـوـدـ وـعـرـضـ عـلـىـ الـمـلـكـ وـعـرـضـ عـلـىـ النـسـاءـ وـقـدـ عـرـضـ عـلـىـهـ فـيـ الحـقـيـقـةـ رـصـيدـ نـفـسـهـ وـمـطـمـعـهـ أـمـلـهـ وـغـاـيـةـ مـاـ يـرـجـوـ فـيـ الـحـيـاـةـ وـمـنـ كـانـ هـذـاـ رـصـيدـهـ النـفـسـيـ صـعـبـ عـلـىـهـ جـداـ .

أن يفقة مثل دعوة محمد عليه صلوات الله وسلامه ولعله لم يستطع أن يتصور بشراً يدعو إلى مثل ما يدعو إليه محمد عليه الصلاة والسلام .

وأكثر المسلمين اليوم لا يختلف رصيدهم النفسي عن الرصيد الذي لدى عتبة بن ربيعة يضاف إليه معانٍ إسلامية موروثة ليست في صميم النفس ولكنها على هامش الحياة وفي قشرتها والمسئولة عن ذلك التربية في المنازل وفي المدرسة ، تلك التربية التي لا تؤدي إلى غرس المعاني الإسلامية ولا تكون رصيداً نفسياً إسلامياً ووسيلة ذلك أن يعيش الطفل في جو متطلعاً حقيقة إلى المعاني الإسلامية جو تشيع في جنباته ذكريات أبطال الإسلام وشهداء الإسلام ورجالات الإسلام وتغلب عليها معاني الاعيان والتضحية في سبيل الإسلام .

قال تعالى « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتلوا وهم معرضون » وصف الله تبارك تأسفاً وأسفه الذين سكرت أبصارهم وعميت قلوبهم عن الحق بأنهم صم بكم ووصفهم جل شأنه بقوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ووصفهم بقوله « صم بكم عمي فهم لا يعقلون »

والذي فعله هؤلاء بأنفسهم وفعله بهم مربوهم أنهم غمسوهم في شهواتهم وأسلموهم إلى أهوائهم ففسدت فطرتهم واعتلت قلوبهم واحتلت موازيمهم ونكست المعاني والقيم لديهم ، ولا يحمي ضلال هؤلاء إلا الباطل والزيف والانحراف أما الحق الواضح الأبلغ فلا يريدون أن يروه أو يسمعوا وأنه لعسير على هؤلاء أن يدركوا حقيقة أو ينكشف لهم هدى لأن بصائرهم قد طمست وفطرهم قد غشيت .

وتقتربن دعوة هؤلاء بالظلم والكفر والطغيان كما تقتربن بالاستسلام للشهوات فإذا دعى هؤلاء إلى الحق والعدل والإنصاف والكف عن الاسترسال في الشهوات وجدوا أنهم يدعون إلى ما لا قبل لهم به .

لم يبق في نفوس هؤلاء مقدار ذرة من خير ولو وجدت لكان سبيلاً إلى هدايتهم إلى الحق ولكنهم عدموا كل خير و كانوا في ظلمة مطبقة . قال تعالى « ولو علم الله فيهم خيراً » أي خير ولو خيراً يسيراً لأسمعهم والآية نص صريح بأن هؤلاء فقدوا دواعي الخير كلها .

فإذا لاحت لأنفسهم بارقة من بوارق الأدلة الناصعة ولذا مرت في خواطرهم ومضة من ومضات الحق المشرقة أعرضوا عنها وباعدوا بينهم وبينها ، فإذا ذكر أحد هؤلاء أو ذكر أن حياته ستنتهي ، ما في ذلك ريب ، وسيصل إلى نهايته وفي الموت عبرة منها قست القلوب وله هزة منها غلظ حجاب النفوس ولكن المعاند يضيق صدره قليلاً خاطر الموت ويشعر بحيرة وظلمة ثم لا يلبث أن يطرح كل هذا ليعود إلى غيه .

يقول تعالى لم يبق في قلوبهم مثقال ذرة من خير ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم جل شأنه ولو جاءهم ما يصدّم قلوبهم ويزلزل أفئدتهم لما تنازلوا عن عنادهم قال تعالى : « وإن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر » ولو أسمعهم جل شأنه لتولوا وحالم أن الإعراض مستقر في نفوسهم راسخ في طباعهم .

يقول ابن حجر في تفسير الآية الكريمة ولو علم الله في هؤلاء القاتلين خيراً لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم وأنهم من كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لتولوا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان معاندون للحق بعد العلم به .

وقال سيد قطب عليه رحمة الله « لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم أي لأسمع ولكنه سبحانه لم يعلم فيهم خيراً ولا رغبة في الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقى والاستجابة فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا : ولو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة والاستجابة هي السماع الصحيح وكم من ناس تفهم عقوتهم ولكن قلوبهم مطمئنة لا تستجيب ». .

وفي الآية الكريمة في نظرنا تنبيه إلى أمر خطير جداً هو التربية ، إن تربية كثيرين من الناس تؤدي بهم إلى انعدام الخير في نفوسهم فيكون حاهم كما وصفت الآية الكريمة ، أما تربيتنا الحالية في منازلنا ومدارسنا ففيها تعهد يسير لبذور الخير التي أودعها الله قلوب أبنائنا تعهد يسير دون ما يحب ولذا لا تجد هذه البذور العناية الكافية ولا تجد الأجراء الصالحة لتنمو وتترعرع وتزدهر وتشمر وتحق على الآباء أن يرعوا بذور الخير هذه في أبنائهم وأن يقدموا لهم من الجهد والوقت والخبرة ما ينمي هذه المعاني ويصل بها إلى غاياتها الطيبة ، ويتصل بالموضوع أن الذي عاش في الديار الغربية على شرورها وما سببها

وسيئاتها يجد لدى عدد من الأفراد من الفطر المستعدة لقبول الحق ما يجعله يعود باللوم على المسلمين في تقصيرهم في تبليغ الدعوة التي وضعت في أنفاسهم. ولو يسر هؤلاء الغربيين دعاة مخلصون يدعون بالحكمة والمعونة الحسنة لكان للإسلام أنصار كثيرون في تلك الديار التي ما يزال أهلها يجهلون الإسلام على حقيقته جهلاً مطيناً.

«يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله ولرسول إذا دعاكم لما يحببكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون».

الخطاب للمؤمنين المصدقين ، والاستجابة الإجابة ، هكذا قال في لسان العرب .
يقال دعاء فأجابه واستجابه واستجاب له . ونقل صاحب تفسير المنار عن الراغب أن أصل الاستجابة التهؤل والاستعداد للإجابة فعل محلها . يقول صاحب المنار «والأقرب إلى الفهم قلب هذا وعكسه وهو أن الاستجابة هي الإجابة بعنابة واستعداد فتكون زيادة السن والتاء للمبالغة» .

والمعنى على هذا «فأجبوا الدعوة بعنابة وهمة وعزيمة وقوة فهو قوله تعالى : «خذوا ما أتيناكم بقوه» . أقول وحذراً هذا الفهم إن أيدته كتب اللغة .

وقال صاحب الكشاف المراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالدعوة البعث والتحريض .

ولقد ذكرت الطاعة في الآية التي سبقت فالأرجح أن تكون الاستجابة أمراً زائداً عليها وأن تكون ثمرة الطاعة وأن يراد بها الإجابة الفعلية المقترنة بالمبادرة إلى امتثال الأمر واجتناب النهي بجد واهتمام .

وأما قوله تعالى لما يحببكم فقال فيه ابن كثير قال مجاهد «للحق» وقال السدي هو الإسلام فيه إحياء لهم بعد موتهم بالكفر وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة الزبير أبي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم . وقال القرطبي المراد بقوله لما يحببكم الجهاد فإنه سبب الحياة في الظاهر لأن العدو اذا لم يغزوا وفي غزوه الموت والموت في الجهاد الحياة الأبدية . قال الله عز وجل «ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون»

فهذه أقوال أربعة أما الثالثة فهي متقاربة فالإسلام هو الحق والقرآن هم كتاب الإسلام وزاد بعض المفسرين التوحيد فيه حياة القلوب والعلم بالله تعالى وسنته في خلقه وأحكام شرعه يقول الزمخشري: لأن العلم حياة كما أن الجهل موت . قال القرطبي: والصحيح العموم كما قال الجمهور يعني الاستجابة لكل ما تضمنه القرآن والاسلام من أوامر ونواهي .

وليس من شك في أن قوله «استجيبوا لله ولرسول إذا دعاكم لما يحببكم» يفيد العموم والاستجابة لأوامره جل شأنه كلها ولكن الحديث في الآيات يدور حول موضوع معين ويرمي إلى غرض واضح قد أعطي من العناية قسطاً كبيراً وهو الجهاد ومن العناية الكبيرة به أن الأوامر جعلت نداءات يعقب بعضها بعضاً وكان النداء الأول في عدم الفرار من الزحف والنداء الثاني بضرورة طاعة الله ورسوله والنداء الثالث في الاستجابة لدعوة الله ورسوله . فطلب الطاعة والاستجابة كل ذلك سبق في موضوع الجهاد ولذا فنحن نؤثرون القائلين بأن المراد بقوله تعالى (ما يحببكم) الجهاد لما له من أثر كبير في حياة الأمة ولما تركه من أثر في موت الأمة واستذلاها وكون الجهاد فيه الحياة شأنه في ذلك شأن كل ما أمر الله به فالآية تفيد أن كل ما دعا إليه الرسول عليه صلوات الله وسلامه في الحياة وقد دعا إلى الجهاد فالجهاد فيه الحياة .

كل ما دعا الرسول إليه في الحياة ، والاسلام هو متكامل لا يمكن أنخذ بعضه وترك بعضه الآخر ، وأكثر المسلمين اليوم نسوا فرض الجهاد وتركوه ، فانتهى الحال بال المسلمين إلى ما انتهى إليه وما تركوا الجهاد إلا خلل في العبادات التي يقومون بها ونقص في الإيمان ذلك أن الجهاد ثمرة الإيمان وثمرة التقوى فإذا لم يؤد يا إلى ثمرتها وهي بذل النفس والمال دل ذلك على أن فيها خللاً ونقصاً .

وقد وحد الضمير في قوله دعاكم (أي الرسول) لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى وقال الزمخشري لأن استجابته صلى الله عليه وسلم كاستجابته تعالى وإنما يذكر أحد هما مع الآخر للتوكيد .

وقال سيد قطب عليه رحمة الله (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يدعوه إلى ما يحببهم ...) إنها دعوة إلى الحياة وبكل معاني الحياة .

إنه يدعوهم إلى عقيدة تخبيء القلوب والعقول وتطلقها من إسار الجهل وسلطان الأوهام ومن العبودية لغير الله .

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر الإنسان وتكريمه يقف فيها البشر كلهم صفا واحداً متساوين في مواجهتها لا يتحكم فرد في شعب ولا طبقة في أمة ولا جنس في جنس ولا قوم في قوم ولكنهم ينطلقون أحرازاً متساوين في ظل شريعة صاحبها رب العباد .

ويدعوهم إلى القوة والعزّة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم والثقة بدينهم وبربهم والانطلاق في الأرض كلها لتحرر الإنسان وخروجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده وتحقيق انسانيته التي وله إياها الله فاستلبها منه الطغاة .

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله لتقرير ألوهية الله سبحانه في الأرض وفي حياة الناس وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ومطاردة هؤلاء المعذبين على ألوهية الله سبحانه وحاكميته وسلطانه ، حتى يفيوا إلى حاكمية الله وحده وعنده يكون الدين كله لله حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك محمل ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

والتعبير القرآني لهذا كله في كلمات قليلة موجبة :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله ولرسول إذا دعاكم لما يحببكم »

يتصل بالأية الكريمة حديث رواه البخاري في الصحيح عن سعيد بن المعلى قال (كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، أو قال فلم آته حتى صلحت ثم أتيته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال : الم يقل الله استجبوا الله ولرسول إذا دعاكم) الحديث وروى الترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة انه دعا أبي بن كعب وهو في الصلاة وذكر نحو ما رواه البخارى عن أبي سعيد وصححه . وقال الحافظ بن حجر فى باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكر فقه الحديث وفيه أن إجابة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لا تفسد الصلاة هكذا صرخ به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث ... الى آخر ما يقوله .

يقول السيد رشيد رضا : وفي متن الحديث شيء من الاضطراب على أنه لا يتعلّق به
بعد صلّى الله عليه وسلم عمل .

وأحق من هذا بالبيان أن طاعته صلّى الله عليه وسلم واجبة في حياته وبعد مماته فيما
علم أنه دعا إليه من أمر الدين كبيانه لصفة الصلوات وعدها والمناسك ولو كان البيان
بالفعل في قوله «صلوا كما رأيتمني أصلي» وقوله «خذوا عني مناسككم» ومقدادير
الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليلها
فيما تدل عليه دلالة قطعية وأما غير القطعية رواية ودلالة من سنته فهو محل الاجتئاد فكل
من ثبت عنده شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على أنه من أمر الدين
فيتبين له الاهتداء به ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتئاده تشرعه عاما
يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفته من قوله هو فيه ، إلا الآئمة أولي الأمور فتجب
طاعتهم في اجتئادهم في أحکام المعاملات القضائية والسياسية إذا حكموا بها لإقامة
الشرع وصيانة النظام العام وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع آئمه الأمصار من
كلامهم أن المجتهد لا يقلد مجتهدا وأنه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معيناً في دينه ولكن
من عرض له أمر يستفتني فيه من يطمئن قلبه لعمله بالكتاب والسنّة ويأخذ بفتواه إذا
اطمأن لها وقد امتنع الإمام مالك عن إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من إلزام
الناس العمل بكتبه حتى الموطن الذي هو سنن وآطه جل علماء المدينة عليها .

أما من يقولون إن النبي صلّى الله عليه وسلم إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا
يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة مضلون يريدون هدم الإسلام بدعاوى
الإسلام بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأسي به في كل زمان إلى
يوم القيامة بل نقول إننا نهتدي بخلفائه الراشدين وأئمه الأمصار من أهل البيت والفقهاء
والمحدثين ، نهتدي بهم في آدابهم واجتئادهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد
الشرعية والمصالح العامة ولا نسمى شيئاً منها ديناً لله به إلا ما ثبت في كتاب الله
وسنة رسول الله صلّى الله عليه وسلم على الوجه المقدم ، وأما السنن والإرشادات النبوية
في أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم يعدها أحد من السلف ولا علماء
الخلاف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكرة لأنه تشريع لم يأذن به تعالى .
انتهى قول السيد رشيد رضا .

وهذه العبارة الأخيرة جديرة بأن نقف عندها يسيراً ولعل الشيخ عليه رحمة الله تأثر بشيخه فيها فيما كان في عصره من دعوة إلى التجديد في كل شيء في اللباس والمطعم والمشرب والعادات ونحن نحسب أن الموضوع خطير وأنه من صميم الدين ذلك لأن العادات والأعراف في المطعم والمشرب واللباس تتصل بخضارة الأمة وتتصل ببنائها ومفاهيمها وأخلاقها ومن عادة الأمم الفالية أنها تريد أن تفرض عاداتها ومناهجها في الحياة وكل مظاهر حضارتها على الأمم المغلوبة ومن طبيعة الأمم المغلوبة أنها تأخذ في تقليد الأمم الفالية وما تزال تسير في هذه الطريق حتى تضيّع مميزاتها وت فقد شخصيتها وتذوب في أمة أخرى ومعنى ذلك ترك الأمة لمثلها ومعانها السامية والإعجاب بمثل الأمة الفالية ، واللباس مثال واضح في الموضوع ولقد أخذت الأمم الإسلامية بارتداء اللباس الغربي وأصبح زي الآباء والأجداد الذي يتصل بعادات الأمة ومفاهيم الأمة وما ألفت من حياء وحشمة أصبح محتقراً في أكثر البلاد وأصبح الزي الغربي الذي لا يراعي حياء ولا يقدر للحشمة وزناً هو الزي المحبوب المحترم ولم تقتصر الفتنة على الرجل ولكنها بلغت النساء وكانت شرًا مستطيراً . روى أَحْمَدُ وَأَبْوَدَّاودُ وَالْطَّبَرَانِيُّ عَنْ أَبْنَى عَمْرَأَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » (١)
 قال تعالى :

« اعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »

قال ابن جرير اختلف أهل التأويل في قوله تعالى يحول بين المرء وقلبه فقال بعضهم معناه يحول بين الكافر واليمان وبين المؤمن والكفر وروى بسنده عن سعيد بن جبير قال بين الكافر أن يؤمن وبين المؤمن أن يكفر. وروى ابن كثير هذا القول عن ابن عباس

(١) : قال صاحب كشف الخفاء في سنده ضعف كما في الـ *اللائـ* والمقصاد لكن قال العراقي سنده صحيح وله شاهد عند البزار عن حذيفة وابي هريرة وعند ابي نعيم في تاريخ اصحابه عن أنس وعند القضايع عن طاوس مرسلًا وصححه ابن حبان .

اقول وقال ابن حجر في الفتح سنده حسن وقال ابن تيمية سنده جيد وقال ابن تيمية هذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بأهل الكتاب وإن كان ظاهره يقتضي كفر التشبه بهم كما في قوله تعالى « وَمَنْ يَتَوَطَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » وهو نظر قول ابن عمرو من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يوت حرث يوم القيمة منهم فقد حل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك .

وقال : رواه الحاكم في مستدركه موقوفا وقال صحيح ولم يخرجاه ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا . يقول ابن كثير ولا يصح لضعف إسناده والموقف أصح .

وقال آخرون بل معنى ذلك يحول بين المرء وعقله فلا يدرى ما يفعل . وروى بسنده عن مجاهد قال يحول بين المرء وعقله . وفي رواية أخرى عن مجاهد يحول بين المرء وقلبه قال إذا حال بينك وبين قلبك كيف تعمل ؟

وعن السدي قال يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه .
وقال آخرون معنى ذلك أنه قريب من قلبه لا يخفى عليه شيء أظهره أو أسره وروي
بسنته عن قتادة أنه قال هي كقوله « أقرب إلى من حبل الوريد »

قال أبو جعفر وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال أن ذلك خير من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئاً من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئاً أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته وذلك أن الحول بين الشيء إنما هو الحجز بينها وإذا حجز جل ثناوه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه لم يكن للعبد إلى إدراكه ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيلاً .

وإذا كان ذلك معناه دخل في ذلك قول من قال يحول بين المؤمن والكافر وبين الكافر والإيمان وقول من قال يحول بينه وبين عقله وقول من قال يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه لأن الله عز وجل إذا حال بين عبد وقلبه لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما منع إدراكه به على ما بينت .

غير أنه ينبغي أن يقال : إن الله عم بقوله « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه ، ولم يخص من المعاني التي ذكرنا شيئاً دون شيء والكلام محتمل كل هذه المعاني فالخير على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له .

يقول ابن كثير : وقد وردت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يناسب هذه الآية روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك « قال فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبا جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله

تعالى يقلبها وهكذا رواه الترمذى فى كتاب القدر ثم قال حسن وروى الإمام أحمد عن أبي ادريس الخولانى يقول سمعت النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيفه أزاغه» وكان يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال «وال Mizan بيد الرحمن يخفيه ويرفعه» وهكذا رواه النسائي وابن ماجة من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله وروى الإمام أحمد عن الحسن أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بها «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالت فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فقال «إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه»

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أم سلمة تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم مقلب القلب ثبت قلبي على دينك» قالت فقلت يا رسول الله أو أن القلوب لتقلب؟ قال نعم ما خلق الله من يشر منبني آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله عزوجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه فتسأله ربنا لا يزيف قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنك رحمة إنه هو الوهاب قالت فقلت يا رسول الله لا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال «بلى قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي واذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتنة ما أحبيتني».

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر أنه سمع صلوا الله عليه وسلم يقول: إن قلوببني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء ثم قال صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك . انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري ورواه النسائي من حديث حمزة بن شريح المصري به .

ذكر المفسرون في الآية الكريمة أقوالاً أوصلها ابن الجوزي إلى عشرة أحدها يحول بين المؤمن وبين الكافر وبين الإيمان» رواه ابن طلحة عن ابن عباس وبه قال سعيد بن جبير الشانى يحول بين المؤمن وبين معصيته وبين الكافر وبين طاعته . رواه العوفى عن ابن عباس وبه قال الضحاك والفراء . والثالث يحول بين المرء وقلبه حتى لا

يترکه يعقل قاله مجاهد قال ابن الأنبارى المعنى يحول بين المرء وعقله فبادروا الأعمال فإنكم لا تأمنون زوال العقول . والرابع هو قريب من المرء لا يخفى عليه شيء من سره ك قوله « ونحن أقرب اليه من جبل الوريد » وهذا معنى قول قتادة . والخامس يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع إيمانا ولا كفرا إلا بإذنه قاله السدى . والسادس : يحول بين المرء وبين هواه . والسابع : يحول بين المرء وبين ما يتعلّم بقلبه من طول العمر والنصر وغيره . والثامن : يحول بين المرء وقلبه بالموت فبادروا الأعمال قبل وقوعه . والتاسع : يحول بين المرء وقلبه بعمله فلا يضمر العبد شيئاً في نفسه إلا والله عالم به لا يقدر على تقديره عنه .

والعاشر : يحول بين ما يقع في قلبه من خوف أو أمن فإذاً بعد خوفه وبخاف بعد أمنه وحکى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم فدخل الخوف قلوبهم أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يدلّه الخوف الأمان ويبدل عدوهم بالقوة الضعف . قال ابن الجوزي وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو مقلب القلوب المتصرف فيها .

وقد حکى أبو حيان التوحیدي القول العاشر بعبارة أوضح قال : وقيل معناه أن الله قد يملّك على العبد قلبه فيفسح عزامه ويفبر نياته ومقاصده ويبدلاته بالخوف أمناً وبالأمان خوفاً وبالذكر نسياناً وبالنسيان ذكرًا وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى .

ونسب القول الثامن إلى علي بن عيسى قال وقال علي بن عيسى هو أن يتوفاه لأن الأجل يحول بينه وبين أمل قلبه وهذا حتى انتهاز الفرصة قبل الوفاة التي هو واجدها وهي التمكّن من لخلاص القلب ومحاجلة أدواته وعمله ورده سليماً كما يريد الله فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله . أـهـ قال أبو حيان وهو على طريقة المعتزلة وعلى بن عيسى هو الرماني وهو معتزلي قال أبو حيان وقاله الزمخشري أيضاً .

والمعنى الذي اختاره هو الذي اختاره ابن جرير الطبرى أن الله أملك لقلوب العباد أنفسهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بشيئته تعالى .

وكيل الأقوال العشرة تتدرج تحت هذا ولا تخرج عنه ومؤداته أن الله جل شأنه مالك قلوب العباد يتصرف بها كما يشاء ومن تصرفاته ما ذكر في الأقوال السابقة ومنها أنه يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل (وهذا هو القول الثالث من الأقوال السابقة) وهذا المعنى هو الأنسب بسياق الآيات وعرضها في نظرنا وهو الذي يتافق وما تعطيه اللغة أيضاً ذلك أن القلب هو أداة الوعي والإدراك والتثير بين الخطأ والصواب والخير والشر فإذا حيل

بين المرء وعقله أو بين المرء وقلبه كان كمن عطل قلبه فلا يستطيع إدراكا ولا تمييزا
وقولنا حيل بينه وبين قلبه كقولنا حيل بينه وبين سمعه أو بصره أو ماله إذا افتقد سمعه
أو بصره أو ماله أو كانت هذه الأدوات موجودة ولكنه غير قادر على استعمالها ومن ذلك
قوله تعالى (وحال بينهم الموج فكان من المغرقين) لقد حال الموج بين نوح وابنه فلم يعد
هناك إمكان لعود التلاقي بينها وهكذا يحال بين المرء وعقله فيتذرع إمكان التلاقي
بینها .

وهذه الحال تتحقق بالموت والإغماء وبالجنون المطبق في حالة السكر ولكن حالاً
شبيهة بالسكر أو الجنون تعتبرى المرء وهو في حالة الإفاقة فلا يستطيع التمييز بين الخير والشر
ولا الخطأ والصواب ولا يستطيع مجال أن يرى الحق حقاً ولا الباطل باطلاً وقد وصف الله
جل شأنه الناس يوم القيمة بأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد
وال موقف الذي أسكر الناس هو يوم الزلزلة حين يعم الهلع ويستولي الفزع وتذهب الدهشة
بالقلوب .

وهذا المعنى كما أسلفنا هو الذي يناسب سياق الآيات إذ الغرض تربية المؤمنين أن
يتثلوا أمر الله ويستجيبوا لندائه ، ولقد أمرت الآية الأولى المؤمنين بالطاعة لله ورسوله
وحذرتهم أن يكونوا كالذين سكرت أسماعهم الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وهؤلاء
هم الصم البكم الذين لا يعقلون ثم أمرت الآية الثانية بالاستجابة لله ورسوله وحذرت
المؤمنين من الواقع في حال يفقدون معها الانتفاع بقلوبهم كمن قال تعالى في شأنهم
«فإنها لاتعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور» ومن ذلك السكر بالدنيا
بزخارفها ومفاتنها والتنافس في جمعها والتکاثر فيها وما يصرف المرء عن امثال أمر الله
ورؤية الحق كحب الدنيا والانغماس فيها ولذلك قال الله تعالى «أرضيتم بالحياة الدنيا
من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل» مخاطباً المؤمنين على أثر انكاره جل
شأنه عليهم التباطؤ في الاستجابة إلى دعوة الرسول حين دعاهم إلى التفرة في غزوة تبوك
قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم إنفروا في سبيل الله اثأقلتم إلى
الأرض»

حب الدنيا والانغماس في ملذاتها يحول بين الإنسان وقلبه فلا يرى الحق حقاً ولا
ينهض في مثل هذه الحال للقيام بأمر ربه ويصبح حاله حال من حيل بينه وبين قلبه .

والآية الكريمة من آيات الإعجاز بما تضمنته من معانٍ تتصل بصفة من صفات الله وهي تفرد جل شأنه بالخلق والتدبّر واستقلاله بتصريف الأمور وتقديرها فليس له في ملكه منازع وليس في الأرض ولا في السماء سلطان غير سلطانه ولا مشيئه غير مشيئته .

ولكن السلطان الذي تتحدث عنه الآية الكريمة سلطانه جل شأنه على القلوب وملكه لها يصرفها كيف يشاء ويقلبها كما يشاء ، ولما كانت القلوب مركز الوعي والإدراك والتمييز والحكم للتمييز بين الخير والشر والحكم على الخطأ والصواب والفصل بين الحق والباطل إلى جانب الشعور والوجود والتصميم والإرادة كان مجال الآية الكريمة النفس البشرية في ما انطوت عليه من نوازع ودفافع وغرائز وعواطف وعادات مكتسبة واستعدادات متباعدة مكتسبة واستعدادات متباعدة مختلفة في تقلباتها وتغيراتها وهو مجال فسيح وعالم متبع الأرجاء وإذا كان القادر الحكيم جل شأنه هو مالك النفوس وهو المتصرف بها وهو الذي يسيرها فأين تقع مسؤولية هذه النفوس وما هو مجال عملها وما هو مدى إرادتها واختيارها ؟ كل هذه المعاني قد انطوت في ثنايا الآية الكريمة التي تعد حروفها ويتذر على القارئ أن يحيط بمعانٍها ويجد المتأمل في ما كتب المفسرون أن كلّاً منهم قد بذل الوسع في تبيين جانب من جوانب الآية الكريمة .

وأضاف كل لاحق جزءاً يسيراً إلى ذكره السابق وظلت الآية الكريمة عالية مشمرة كأنماوج البحر الزاخر تتواتي الأجيال وما أدرك المدركون من معانٍها إلا الجزء اليسير .

«قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربِي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربِي ولو جئنا به مثله مداداً» .

الحقيقة التي تقررها الآية الكريمة أن الله تباركَت أسماؤه يحول بين المرء وقلبه أي يفصل ويحجز بينهما وهذا الحجز بين المرء وقلبه إنما يكون في ساعة حاجة المرء إلى قلبه والقلب هو الأداة التي يكون بها الإنسان إنساناً وحاجته إلى قلبه لا تقطع ولكن في بعض أحيائه يكون أشد احتياجاً إلى قلبه منه في أحيان أخرى ، فإذا بحث المرء عن أداته الوحيدة ووسيلته التي لا وسيلة غيرها في ساعة من ساعات الشدة فإذا هو قد افتقدها وأضاعها وهو لا يستطيع الوصول إليها بحال فاي حرج أكبر من ذلك الخرج وأي شدة أعظم

منه ولأنه لوصف رهيب توجل له القلوب وما مثله إلا الجندي في ساحة القتال عند مقابلة العدو في الساحة التي لا ينجيه فيها إلا سلاحه يفتقد سلاحه ويحال بينه وبينه فلا يصل إليه بحال.

والآية الكريمة ومعها شروح المفسرين توحى بالأسئلة التالية :

السؤال الأول : الآية الكريمة أهي مساوية في معناها لقوله عليه الصلاة والسلام انه جل شأنه مقلب القلوب أهي اخص منها ؟

السؤال الثاني : ما هي ثمرة الإيمان بأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن وأنه جل شأنه قد يحول بين العبد وقلبه فلا يستطيع العبد أن يصل إلى قلبه أو يشوب إلى رشده ؟

السؤال الثالث : هل معنى كونه جل شأنه يحول بين العبد وقلبه أنه ليس للعبد كسب في ذلك وليس له فيه جنابة ؟

الإجابة عن السؤال الأول :

فسر ابن جرير الآية الكريمة بأنه جل شأنه أملك لقلوب عباده منهم أنفسهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئاً من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئاً أو أن يفهم إلا بأذنه ومشيئته وأنزل ابن جرير على هذا المعنى مانقل من أقوال التابعين جميعاً ، وهذا المعنى يتضمن جانبين أولهما أنه جل شأنه مالك للقلوب متصرف بها والثاني أنه يحول في بعض الأحيان بين العبد وقلبه والجانب الأول هو الأصل في المسألة والثاني فرع لها فالله جل شأنه يتصرف في القلوب ومن جملة تصرفاته فيها ومن أنواع تسيرها أنه في بعض الأحيان ولدى بعض الأفراد يحول بينهم وبين قلوبهم ، قوله الرسول عليه الصلاة والسلام يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك نداء له جل شأنه بصفته وهي قدرته على القلوب وملكه لها وداعه بطلب التثبت على الحق فكونه مقلب القلوب صفة عامة لله جل شأنه ينشأ عنها كل الحالات التي تطأ على القلوب ومن هذه الأحوال حالة خاصة وهي حين يحال بين المرء وقلبه فلا يدرك به شيئاً ولا يعي به أمراً والآية الكريمة إنما جاءت محذرة المؤمنين من وقوع هذه الحالة الخاصة التي يسلب المرء فيها رأيه ويفسخ رشده ويدرك عنه تدبيرة .

وقد جاء تفسيرات المفسرين ملاحظة الجانب الأول مرة والجانب الثاني مرة أخرى

وقد جمع ابن جرير بينها كما رأينا والسؤال الذي يرد ما هي الأمثلة التي توضح وقوع الفرد في حالة يضيع فيها رشده ويفقد وعيه ؟ الموت ، غلبة الهوى ، غلبة العصبية ، إدمان الشر ، حيرة الفتن .

المثال الأول :

يفقد المرء رشده حين تشنل إرادته ويعقد لسانه ويشخص بصره وتبرد أطرافه هنالك لا رأي ولا عقل ولا تفكير ولا إرادة وقد فسر الآية بعض المفسرين بهذا قال صديق حسن خان قبل معنى الآية : «بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقولن بها بالموت الذي كتبه الله عليكم»

المثال الثاني :

غلبة الهوى على قلب المرء أي هوى من الأهواء ذلك أن الهوى يعمي عن رؤية الحق ويصم عن سماعه قال تعالى «أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشَاوةً، فَنَّ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»

هؤلاء الراسخون في الكفر ختم على سمعهم وعلى قلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة وحيل بين قلوبهم وبين الحق فلا يستطيعون أن يروه أو يسمعوا أو يعيوه وكان سبب ذلك أن أهواءهم غلبت على قلوبهم وكانت آلة معبودة لهم وحالت حيلولة تامة بينهم وبين قلوبهم ، هذه القلوب التي ترى الحق بفطرتها وتدرك الخير قد عطلت عن إدراكها حتى كأنهم فقدوها وكأنها معدومة بالنسبة لهم .

غلبة العصبية على قلب العبد والعصبية هي ما ألف المرء اعتقاده عن أبيه وأمه وعشيرته وببيئته ونشئه عليه حتى خالط لحمه ودمه وعظامه وهذا الذي ذكر في قوله تعالى : «إِنَّا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَلَنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقتَدُونَ» وهو الذي عناه عليه الصلاة والسلام بقوله «فَأَبْوَاهُ يَهُودَانِهُ أَوْ مَجْسَانِهُ أَوْ يَنْصَارَانِهُ» وأنه لم من العسير جدا على الإنسان أن يتزع ما غرس في قلبه على مدى الأزمان وغا في فؤاده مع الأيام ذلك أن هذا الذي ألفه واعتاده واعتقدته قد أصبح جزءا من نفسه فكيف يستطيع المرء أن يتزع جزءا من نفسه فإذا أضيف إلى هذا الإلف الهوى والكبر والعناد والإصرار انتهى إلى ما وصف الله تعالى : «خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غَشَاوةً»

وهكذا كانت العصبية للمعنى الذي نشئ عليه الماء والعقيدة التي ربي عليها حجابا عن رؤية الحق تحول بينه وبينها .

المثال الرابع :

إدمان الشر ، لقد أودع الله في قلب كل إنسان ضميرًا ينزع بفطرته إلى الخير يرغب فيه وينزع عن الشر ويله عنه ولكن الإنسان قد يدمى الشر نعوذ بالله ويقع فيه المرة بعد المرة حتى يقسوا قلبه وعموت وجدانه ويتبدل إحساسه فلا يعود يحس بكرابية للشر ولا نفرة منه بل يألفه ويستمره . قال تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . والرين الطبع والدنس والرين الصدأ الذي يعلو السيف والمرآة ، والرين الصدأ يغشى القلب ، وران الذنب على قلبه غالب عليه وغطاه قوله تعالى بل ران على قلوبهم أي غالب وطبع وختم وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يسواه القلب .

المثال الخامس :

الفتنة حين تصم وتظم في مجتمع من المجتمعات ويستشرى أمرها ويشمل وباؤها الناس جميعا حين ذلك يخرج الأمر من أيدي العقلاة ويجدون أنفسهم قد غلبو على أمرهم وأصبح الأمر فوق طاقتهم وهنالك تكون الفتنة في شدتها وضراوتها حاثلا يحول بين عقلاة الأمة وحسن التدبير وإيجاد المخرج وهنا كأنما يحال بين المجتمع وعقله أمام أمواج الفتنة العارمة وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

فالفتنة في أول نشأتها أمرها يسير والقضاء عليها في مهدها قد يكون قريرا المتداول فإذا استفحلا أمرها واستشرت شرتها غلت على ذوي العقول حكمتهم وأضاعت تدبيرهم ولم يجدوا في شأنها علاج .

ما هي ثمرة الإيمان بالآية الكريمة

الآية الكريمة ذات جانبين كما أسلفنا أولاًها أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء والثاني أنه جل شأنه قد يحول بين العبد وقلبه فلا يستطيع العبد أن يصل إلى قلبه أو أن يثوب إلى رشدته .

ومن ثمرات الإيمان بهذا كله ما ذكره السيد رشيد رضا في تفسيره قال : «إن من سنة الله في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه الذي هو مركز الوجود والادراك ذي السلطان على إرادته وعمله وهذا أخو福 ما يخافه المتقي على نفسه إذا غفل عنها وف祸 في جنب ربه كما أنه أرجى ما يرجوه المسرف على نفسه إذا لم يبيئ من روح الله فهذه الجملة أعجب جمل القرآن ولعلها أبغاها في التعبير، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية وعلم الصفات الربانية وعلم التربية الدينية التي تعرف دقائقها بما تشرمة من الخوف والرجاء .

فبینا زید یسیر علی سبیل المدی و یتلقی بنيات طرق الصلاة الموصولة إلی مهاوی الردی إذا بقلبه قد تقلب بعصفوف هوی جدید یمیل به عن الصراط المستقیم من شبهة تزعزع الاعتقاد أو شهوة یغلب بها الغی على الرشاد ، فيطیع هواه و یتخذه لاهه من دون الله (رأیت من اخذ لاهه هواه فأنانت تكون عليه وكیلا) على أنه فيه مختار ، فلا جبر ولا اضطرار .

و يقابل هذا من الحيلولة ما حکی بعضهم عن نفسه أنه كان منهما في شهواته ولهو تاركا لهداه وطاعة ربہ فنزل يوماً في زورق في نهر دجلة للتنزه مع رفاق له ومعهم النبيذ والمعازف فبینا هم يعزفون و يشربون إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سیرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت وإذا المؤدة سئت بأي ذنب قلت وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة فاستمع له وأنصت حتى إذا بلغ قوله تعالى «إذا الصحف نشرت» امتلاً قلبه خشية من الله لا طلاعه على صحيحة عمله يوم يلاقاه فأخذ العود من العازف فكسره وألقاه في دجلة وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها وصار يردد الآية وعاد إلى منزله تائباً من كل معصية مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة .

فتذکر الله إيانا بهذا الشأن من شؤون الإنسان وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الإرادات والأعمال وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان واذعان يفيدنا فائدتين لا يكمل بدوتها الإيمان وهو أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغير بطاعته ويعجب بنفسه

وأن لا يئس العاصي والمقصري الطاعة من روح الله فيسترسل في اتباع هواه حتى تحيط به خطاياه ومن لم يؤمن عقاب الله ولم يئس من رحمة الله يكون جديراً بأن يرافق قلبه ويحاسب نفسه على خواطره ويعاقب نفسه على هفواته لتظل على صراط العدل المستقيم متجنبة الإفراط والتفرط ، ويتحرج أن يكون دائماً بين خوف يمحزه عن العاصي ورجاء يحمله على الطاعات » .

وهكذا يظل المؤمن خاشعاً لله متواضعاً مهما آتاه الله من قوة وحباه من سلطان ومها عظم جهاده وبذل نفسه وما له يخاف أن ينزع الله منه نعمته ويخشى أن يحول قلبه فهو لا يملك من الأمر شيئاً ولا يملك من أمر نفسه وأمر قلبه شيئاً وهكذا يفعل المؤمن الخير وقلبه خائف وجل فلا تبطره النعمة ولا يملكه الغرور ولا يأخذ بلبه الكبر والعجب والاستعلاء في الأرض ذلك أنه يعلم أن الساعة التي يأخذ الكبر بلبه ويستولي الغرور على فؤاده يهوي عن مكانه ويستلب نعمته ويعمى عن الحق ويصرفه عنه قلبه .

وهكذا كان بين المؤمن وعمي البصيرة لفتة يسيرة جداً أن يشعر أنه هو الذي أحسن وهو الذي أعطى وأنه هو الذي فعل الخير وأن يقول في نفسه كلمة بسيطة جداً « إنما أوتته على علم عندي » هناك يكون قد نسي الله جل شأنه الذي أعطاوه ويسره الخير وهناك يعمى عن الحق ويحال بينه وبين هذا النور الذي أودعه الله في قلبه ، النور الذي يرى الحق ويكشف الظلمة لقد نسي هذا رحمة الله به ولطفه به واحسانه إليه فكان جديراً أن يوكل إلى نفسه وشيطانه وكان جديراً ألا يصر هدى .

وبين الكافر الضال والجاحد المعاند ورؤيه الحق لفتة يسيرة أيضاً أن يشعر برحمة الله ولطفه به منذ كان في عالم الأجنحة هناك ينشرح صدره للامان وينفتح قلبه للحق .

وهناك ثمرة تربوية أخرى تؤخذ من الآية الكريمة ، إذا كان الكبر والعجب والغرور كل هذه تطمس على بصيرة العبد وتبعده عن رؤية الحق فالدنيا والانغماس في شهواتها ليست بأقل خطراً من ذلك فهي عامل كبير في الحيلولة بين المرء وقلبه وهذا الذي وقع فيه أكثر المسلمين اليوم .

والثرة الثالثة: الآية الكريمة تحذر المؤمن مخالفة أمر الله ذلك لأن امثال أمر الله فيه الحياة (استجيبوا الله ولرسول إذا دعاكم لما يحببكم) وامثال أمر الله دليل على الحياة وعدم

الامتنال يؤدي إلى الموت وما يقدم عليه إلا من مات قلبه فليحذر المؤمن من مخالففة واحدة لأنها تؤدي إلى موت جزئي والمخالففة الأولى تسول للنفس الأمارة الورع بالمخالففة الثانية فإذا انغمس العبد في المخالفات مات قلبه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله (فتاوي ٨: ١١٧) وما ينبغي أن يعلم أن مذهب سلف الأمة مع قوله : الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ، وأنه على كل شيء قادر وأنه هو الذي خلق العبد هلوعا إذا مسه الشر جزواعا وإذا مسه الخير منوعا ونحو ذلك — إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة قال تعالى : «من شاء منكم أن يستقيم وما تشاوون إلا أن يشاء الله رب العالمين» وقال تعالى «إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاوون إلا أن يشاء الله» وقال تعالى «كلا انه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة» .

وروى الترمذى في جامعه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هونزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو على قلبه وهو (الران) الذي ذكر الله في كتابه «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»

قال : هذا حديث حسن صحيح ، وكذا قال المفسرون هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ثم يذنب فيحيط الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب قلبه .

قال مجاهد هي مثل الآية التي في سورة البقرة : «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خططيته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» وأحاطت به خططيته أي غمرته من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة وسدت عليه مسالك النجاة .

ونحوه عن الفراء قال : يقول كثرت العاصي منهم والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الررين عليها .

أقول والآية الكريمة نص صريح بأن قلوب هؤلاء قد غشيت وطبع عليها وأصبحت لا تدرك حقا ولا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا وكان ذلك بسبب الذنوب والآثام التي أحاطت بها فطممتها طمساً ومن هنا يعلم أن الذنوب إذا توالّت على قلب العبد طمست نوره وأفسدت فطرته فلتقد روبي عن مجاهد أيضا قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه فإذا أذنب العبد الذنب انقبض وضم إصبعه ، فإذا أذنب الذنب انقبض وضم أخرى ، حتى ضم أصابعها كلها حتى يطبع على قلبه قال وكانتا يرون أن ذلك هو الرين ثم قرأ « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

يقول رشيد رضا في تفسيره وجملة القول أن من سنته تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله ويستمر على ذلك ويدمنه الزمن الطويل تضعف ارادته في سواه حتى تذوب وتتفنى فيه فلا تعود تؤثر فيه المواقظ القولية ، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة وهذه الحالة يعبر عنها بالحتم والرين والطبع على القلوب والضم والضم والبكم كما جاء في سورة البقرة .

ويقول أيضا : « وما يؤيد ما فهمناه في هذا المقام مقام حرمان الراسخين في الكفر من سماع الفقه والهدى قوله تعالى : « افرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه بعد الله ؟ أفلاتذكرون ؟ » فهي صريحة في أن من هذا حاله ليس مجبورا عليه وأن الله لم يحرمه الهدى بإعجازه عنه وهو يوثره ويفضله أو يكراهه على اتباع الهوى وهو كاره له فإنه أنسد إليه اتخاذ هواه إلهه وقد قال لنبيه داود عليه السلام (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلوك عن سبيل الله) .

وهذا نص في أن اتباع الهوى سبب لضلال عن سبيل الله ، وقوله تعالى في آية الجاثية (وأضلله الله على علم) ليس معناه أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالاً بل هو داخل في سنته تعالى في الأسباب والمسبيات ويوئده كون ضلاله على علم وهو أنه مستعمد الاتباع الهوى مؤثر له على الهدى والله تعالى يسند الأمور إلى أسبابها تارة وإليه تعالى تارة من حيث أنه خالق كل شيء وواضع سن الأسباب والمسبيات ... كقوله تعالى في الحزب (افرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) فهل يقول عاقل أن الفلاح لا فعل له ولا اختيار في زرعه وأن الله يخلق فيه له بدون إرادته ولا فعله ، أو أن فعله وتركه في أرضه سواء ، وتلقيحه نخله وعدمه سيان ؟

أقول ومن هذا الباب قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » وقوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » لم يقع الختم على قلوبهم ولا الحيلولة بينهم وبينها ، لم يقع شيء من ذلك إلا نتيجة لأسباب أوقعوها وأثام ارتكبواها وذنوب جنوها ولذلك ذيلت الآية الكريمة بقوله تعالى وإنه إليه تحشرون وفيه محاسبة العبد على أعماله ومجازاته عليه إما بالعذاب الأليم ولما بالنعيم المقيم .

قال تعالى :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

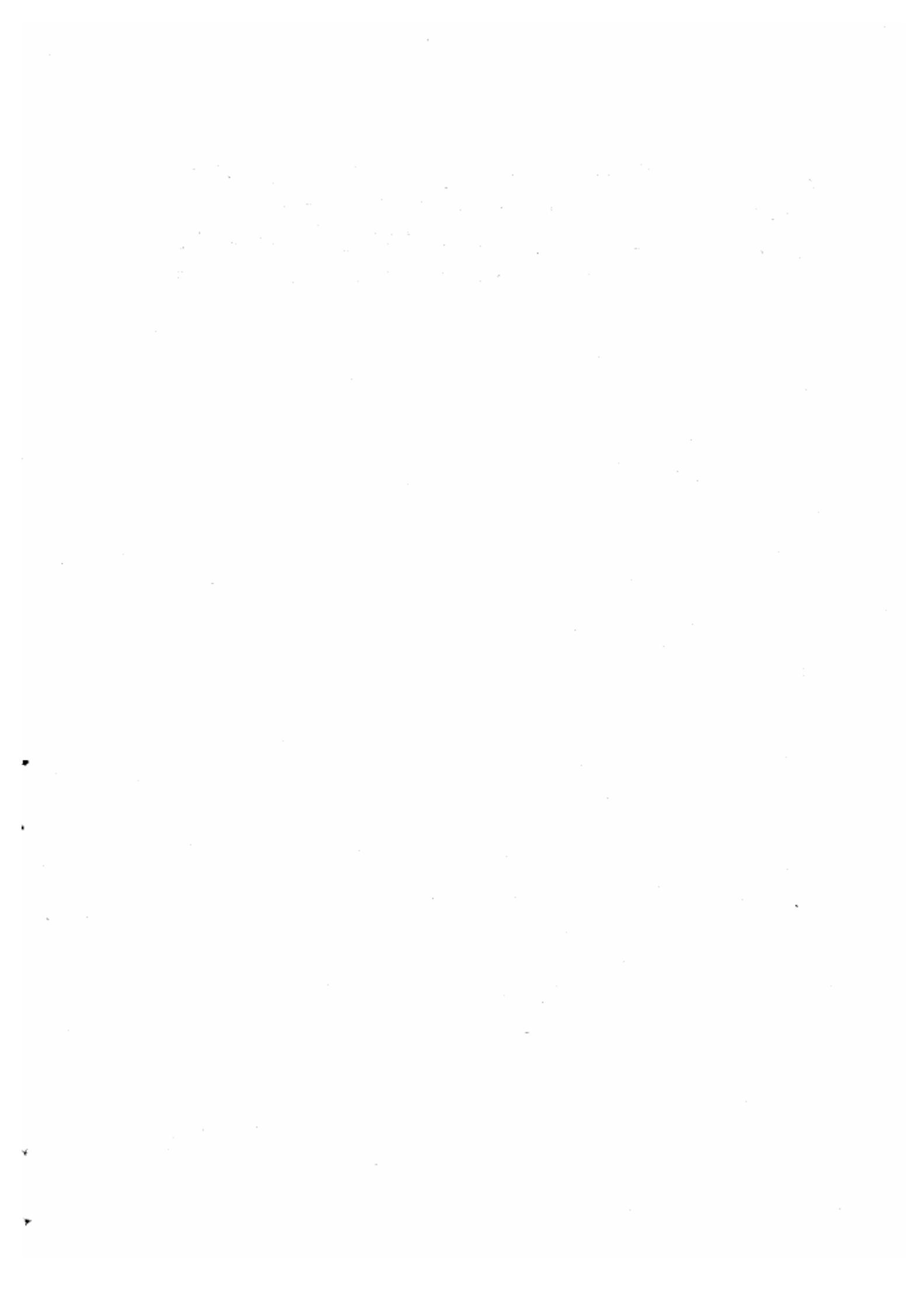
قال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية بأمر المؤمنين لا يقرروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب وهذا تفسير حسن جداً ، وهذا قال مجاهد في قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » هي أيضاً لكم وكذا قال الصحاح ويزيد بن أبي حبيب وغير واحد وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » فأياكم استعاد فليستعد بالله من مضلات الفتنة رواه ابن جرير والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتنة .

يقول القرطبي :

وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام فإنه قاتل يوم الجمل وكان سنة ست وثلاثين ما علمت أنا أرددنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنه إلا فيمن خطب ذلك الوقت . روى أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال قلنا للزبير « يا أبا عبد الله ضييعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال إنما قرأتنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فيما حيت وقعت وروى عنه جهور مخرجـي التفسير المأثور : لقد قرأتناها زماناً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها .

وقد روى أبو الشيخ عن مجاهد قال « اتقوا فتنـة لا تصـيبـنـ الذينـ ظـلـمـواـ منـهـمـ خـاصـةـ » هي (يحـولـ بيـنـ المرـءـ وـقـلـبـهـ) حتى يـترـكـهـ لـاـ يـعـقـلـ وـالـذـيـ اـفـهـمـهـ مـنـ هـذـاـ أـنـ الفـتـنـةـ إـذـاـ

عمت في مجتمع وطفت ثم استيقظ الناس للقضاء عليها وجدوا الأمر قد خرج من أيديهم وألفوا الخرق قد اتسع على الرتق وهنا تضيع حكمة الحكام و يذهب تدبير العقلاة وتغلب على العقول الحيرة وتستولي عليها الدهشة ويصبح ذوو العقول وكأنما عطلت عقولهم ، وإنما ننجد هذه المعانـي في كثير من المجتمعات الإسلامية الحاضرة .



« فهرس »

كتاب : من هدي سورة الأنفال

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة بقلم الأستاذ محمد العبدة
٧	تقدمة للسورة الكريمة
٨	نظرة إجمالية في أغراض السورة الكريمة
٩	النداءات الخمسة
١٧	موضع السورة من كتاب الله
١٧	قول الألوسي
٢٤	قول ابن كثير في النقل
٢٥	قول أبي عبيد في الانفال
٢٥	قول الراغب
٢٦	خلاصة الأقوال
٣٣	الرواية الراجحة في نظرنا
٣٧	خلاصة القول في الروايات
٤٠	هل الآية منسوخة
٤٥	قول ابن جرير الطبرى
٤٦	الخلاصة
٤٦	متى شرع الخمس ؟ أخمنت غنائم بدر
٤٨	هل النقل من أصل الغنيمة

٥٦	في تربية الآيات الكريمة
٥٩	قيمة التجارب في حياة الأمة
	قاعدة عامة في التربية القرآنية
٦١	الحرص على سلامية الجماعة
٦٣	التربية عملية ميدانية
٦٤	غوايل النصر
٦٦	ثناء عن طريق الاشارة
٧٠	القوى جماع الخير كلها
٧١	شأن المؤمن أن يتقي الله حق تقاته
٧٥	من صفات المتقين اليمان بالغيب
٧٨	ثمرة القوى
٨٠	لا نسخ في الآياتين
٩١	الخوف والرجاء مقتنوان
٩٦	زيادة اليمان
١٠٠	قول القرطبي في زيادة اليمان
١٠٣	قول السيد رشيد رضا في زيادة اليمان
١٠٤	أبو حنيفة رحمه الله وزيادة اليمان
١١١	حقيقة الانسان مجھولة
١١٢	دراسة الاعتقاد دراسة نفسية
١١٣	المصطلحات الشرعية يحكم في معناها الشرع
١١٥	قولهم إن التصديق لا يكون إلا بالقلب مردود
١٢٩	الانحراف عن المعنى الصحيح للتوكل
١٣١	الصفات الخمس ل التربية المؤمنين
١٤٤	ما هي العبادة
١٤٧	الانفاق

١٥٦	القصد في الانفاق
١٥٩	في الانفاق حياة المجتمع
١٦٤	كلمة في الانفاق للغزالى
١٦٥	الصلة بين الصفات الخمس والسؤال عن الانفال
١٨١	معالجة الموقف
١٨١	مغامرة في سبيل الله منظمة
١٨٦	وحدة صفات المؤمنين بعد المؤتمر
١٨٩	روحهم المعنوية عالية
١٩٩	الانفعال المتزن يستشير الطاقات الكامنة
٢٠٠	اعطاء كل مقام حقه
٢٠٣	أقاتلت الملائكة يوم بدر ؟
٢٠٥	دعاة باطلة
٢٠٨	الهدوء في ساعات الشدة
٢١٥	لا فرار يوم الزحف
٢١٩	قول ابن العربي
٢٢٤	الارتباط بالقيادة
٢٢٩	تربيبة يبع النفس لدى أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم
٢٤٦	الآلية ذات غرضين
٢٧٥	ما هي ثمرة الایمان بالآلية الكريمة

